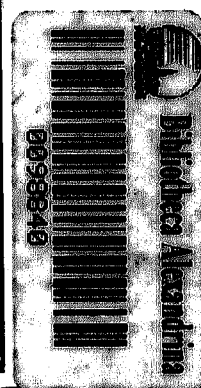


المسلمون والروم في عصر النبوة

دراسة في جذور الصراع وتطوره بين
المسلمين والبيزنطيين حتى وفاة الرسول ﷺ

الدكتور
عبد الرحمن أحمد سالم



دار الفكر العربي

دكتور / عبد الرحمن أحمد سالم
كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

المسلمون والروم في عصر النبوة

دراسة في جذور الصراع وتطوره بين المسلمين والبيزنطيين

حتى وفاة الرسول ﷺ

١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربي

٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة

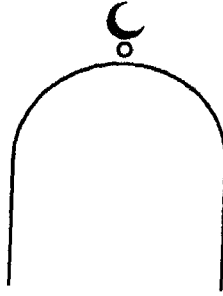
ت : ٢٧٥٢٧٩٤ - ٢٧٥٢٩٨٤

٩٥٣,٠٢ عبد الرحمن أحمد سالم.
 رح ٢ س المسلمون والروم في عصر النبوة: دراسة في جذور
 الصراع وتطوره بين المسلمين والسيزنطيين حتى وفاة الرسول
 ﷺ / عبد الرحمن أحمد سالم. - القاهرة : دار الفكر
 العربى، ١٩٩٨.
 ١٨٨ ص: خ؛ ٢٤ سم.
 بيليو جرافية: ص ١٥١ - ١٦٢.
 يشتمل على فهارس.
 تدمك : ٥ - ١٠٤٢ - ١٠ - ٩٧٧.
 ١ - التاريخ الإسلامى. أ - العنوان.

٢٠١٥
 للنشر للطباعة والنشر (مهندس/ هشام الشريف وشركاه)

ت ٥٩٢٥٨١٤

السيدة زينب - القاهرة



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾

يشغل البيزنطيون (أو الروم كما تسميهم مصادرها العربية) حيزاً بارزاً من اهتمامات المؤرخين المسلمين منذ ظهور الإسلام في أوائل القرن السابع الميلادي حتى سقوط القسطنطينية في حوالى منتصف القرن الخامس عشر . وقد لا يختلف ثنائ حول خطورة الدور الذى لعبه البيزنطيون على مسرح السياسة الخارجية لإسلامية طوال هذه الفترة الممتدة . ولكن الملاحظ أنه على الرغم من تعدد لدراسات الغربية والشرقية على السواء فى مجال العلاقات الإسلامية البيزنطية خلال مراحلها المتعاقبة فإن عصر النبوة - على أهميته البالغة فى هذا المجال - لم حظ بنصيبه العادل من تلك الدراسات . بل إن «ستراتوس»^(١) ، فى مؤلفه الضخم بعنوان : « بيزنطة فى القرن السابع الميلادي »^(١) Byzantium in the seventh Century ، لا يقدم عن علاقات البيزنطيين بالمسلمين فى تلك الفترة الخطيرة إلا محات خاطفة^(٢) . ولعل عدم اهتمام الباحثين بتلك المرحلة يرجع إلى أن لمواجهات الميدانية الحاسمة بين المسلمين والبيزنطيين لم تظهر بوضوح إلا بعد وفاة لرسول ﷺ ؛ وأن ما حدث فى عصر النبوة لم يكد يتعدى - فى تقدير الكثيرين - طاق مؤتة وتبوك . غير أننا ينبغى أن نؤكد هنا أمرين :

-
- (1) A . N . Stratos , Byzantium in the Seventh Century (in five volumes), translated into English by Marc Ogilvie - Grant and H . T . Hionides Amsterdam , 1968 - 1980 .
 (2) Ibid , vol . I, pp . 309, 312 - 314 .

الأول : أن علاقة الرسول بالروم وأحلافهم من عرب الشام تجاوزت كثيراً أحداث مؤتة وتبوك وكانت لها جذورها وأشكالها المعقدة المتشابكة التي عبرت عن نفسها في صور مختلفة ؛ **والثاني :** أن علاقات المسلمين بالروم في العصور التالية لا يمكن أن تفهم على وجهها الصحيح إذا نظرنا إليها بمعزل عن منبعها الأول وهو عصر النبوة . فالحق أن هذا العصر يمثل أساس تلك العلاقات جميعا . فليس من المستغرب - إذن - أن تقع على كاهل الباحثين مهمة أساسية وهي محاولة سبر غور تلك العلاقات في حياة الرسول ﷺ .

ومنذ كون الإسلام دولته في المدينة كانت ألصق القوى الخارجية به - وأقواها أيضاً - هي دولة الروم . ولما كان الإسلام في جوهره دين دعوة فقد كان من الطبيعي أن يحاول الرسول نشر دعوته بين كل من استطاع الاتصال بهم ، سواء أكانوا داخل شبه الجزيرة العربية أم خارجها . فماذا كان موقف الروم إزاء دعوة الإسلام ؟ هل عارضوها أو أيدوها أو وقفوا منها موقف الحياد ؟ وهل حاولوا توظيف قوى عرب الشام التابعين لهم لتحقيق أغراضهم ؟ وهل يمكن القول إن مواجهات الرسول ﷺ مع الروم وأحلافهم - وهي التي بلغت ذروتها في مؤتة وتبوك - كانت تمثل اتجاهها عدوانيا توسعيا من جانب الدولة الإسلامية ، أو كانت صورة من صور دفع الأذى ورد العدوان ؟ إن هذه الأسئلة وأمثالها شغلت اهتمام هذا البحث وكان لا بد من محاولة التماس إجابات علمية مقنعة لها . وفي سبيل ذلك كان علينا أن نتجاوز الوقوف عند ظواهر الأحداث ، وأن نمتحن ملامساتها وخلفياتها ، وأن نقارن بين الروايات العديدة - والمتناقضة أحيانا - في مصادرنا ؛ وأن نتعرف - فوق ذلك - على أهم آراء الباحثين المحدثين حول أبرز القضايا المثارة في هذا البحث وأن نناقشها بموضوعية وصولا إلى الرأي الذي نطمئن إليه .

ويتكون هذا البحث من تمهيد وستة فصول وخاتمة .

أما **التمهيد** فيتناول - باختصار - حالة الامبراطورية البيزنطية منذ قيامها حتى الفتح الإسلامى مع الإشارة إلى علاقاتها بأهم القوى الخارجية فى تلك الفترة ، وخاصة دولة الفرس . ولا شك أن الإمام الموجز بأحوال هذه الامبراطورية الشاسعة التى قُدِّرَ للمسلمين أن يحتكوا بها طويلا يعين على مزيد من الفهم لطبيعة المواجهة اللاحقة بين قوتين : أولاهما ناشئة محدودة الحجم والإمكانات وهى دولة المدينة ؛ والثانية كانت تمثل أعظم امبراطورية على الإطلاق عند ظهور الإسلام ، بل ربما قبل ظهوره بطويل .

ويتناول **الفصل الأول** علاقة عرب الشام والحجاز بالبيزنطيين قبل الإسلام . أما عرب الشام فقد مثلهم «الضجاعة» فى البداية ، حيث مارسوا دور السيادة على جميع القبائل العربية هناك ، ثم حل محلهم الغساسنة فى القيام بهذا الدور . والحق أن الغساسنة ارتبطوا بالبيزنطيين ارتباطا خاصا وكان لهم إسهام ملحوظ فى توجيه الأحداث بالشام ، سواء قبل الإسلام أم بعده ؛ ولذلك حظوا بمزيد من الاهتمام فى هذا الفصل . وقد ناقشنا فى هذا السياق ما تعرضت له علاقة الغساسنة بالبيزنطيين من صعود وهبوط ، ودور العوامل الدينية فى ذلك . كما تحدثنا عن قيادة الغساسنة لعدد مهم من القبائل العربية التى استقرت بالشام مثل لخم وجذام وكلب وجهينة وبللى وتنوخ وغيرها ، وكيف كانوا يوجهون جهود تلك القبائل لصالح البيزنطيين . والملاحظ أن هذه القبائل قامت بدور بارز فى الصراع المستقبلى بين المسلمين والبيزنطيين .

وأما عرب الحجاز فقد ناقشنا العلاقات المختلفة التى ربطت بينهم وبين البيزنطيين ، وفى مقدمتها العلاقات التجارية ، وأبرزنا - بصفة خاصة - دور مكة فى هذا المجال . كما تحدثنا عن تطلع البيزنطيين للسيطرة على الحجاز ؛ إما عن

طريق أحلافهم الأحباش الذين نجحوا فى إخضاع جنوب شبه الجزيرة العربية لنفوذهم ، أو عن طريق تجنيد بعض العناصر التى تعمل على تنفيذ مخططاتهم من بين عرب الحجاز . ومما ناقشناه أيضاً فى هذا السياق دور الدين فى علاقة البيزنطيين بعرب الحجاز ، وقد وضعنا كيف أن البيزنطيين فشلوا فى محاولة نشر المسيحية بين الحجازيين ؛ هذا مع ملاحظة أن الحجازيين كانوا على إلمام بالمسيحية عن طريق رحلاتهم التجارية إلى الشام ، وهى الرحلات التى أسهم محمد ﷺ فيها بنصيب .

أما الفصل الثانى فقد خصصناه لمناقشة علاقة الرسول بالبيزنطيين منذ البعثة حتى صلح الحديبية عام ٦هـ (٦٢٨م) . وقد تحدثنا فى بدايته عن المرحلة المكية وعن محدودية علاقة المسلمين بالبيزنطيين خلالها ، ثم أشرنا إلى محدودية تلك العلاقة أيضاً خلال السنوات القليلة التى تلت الهجرة إلى المدينة ، وهى السنوات التى شهدت انشغال الرسول ﷺ بتوطيد أركان دولته الجديدة ومواجهة التهديدات التى تحيط بها من أعدائها فى الداخل وعلى رأسهم مشركو قريش .

ولكن الجزء الأساسى فى هذا الفصل يتمثل فى دراسة الحملات الإسلامية الأربعة التى توجهت إلى الشام فى العامين الخامس والسادس للهجرة . وأولى هذه الحملات قادها الرسول ﷺ بنفسه ، وهى غزوة دومة الجندل فى سنة (٥هـ) . أما الحملات الثلاثة الأخرى فقد حدثت فى سنة (٦هـ) ، وقاد اثنتين منها زيد بن حارثة إلى حسمى ووادى القرى على التوالى ، وقاد الأخيرة عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل . وقد ناقشنا الملابس التى أحاطت بهذه الحملات وشرحنا أهدافها ونتائجها ، كما أبرزنا الدور الذى لعبه عرب الشام فى تلك المرحلة - نيابة عن البيزنطيين - فى تضيق الخناق على دولة المدينة ومحاولة إلحاق الأذى بها ، وخاصة عن طريق اللجوء إلى سلاح الحرب الاقتصادية .

ثم يأتي **الفصل الثالث** ، وقد خصصناه لمناقشة علاقة الرسول بالبيزنطيين من صلح الحديبية حتى سرية مؤتة في العام الثامن للهجرة ، وهي فترة تصل إلى عام ونصف تقريباً . وقد توزع اهتمام هذا الفصل بين نقطتين أساسيتين هما :

أولاً : كتب الرسول ﷺ إلى الملوك والأمراء ؛ **وثانياً :** علاقته بالقبائل العربية في الشام . وبخصوص النقطة الأولى فقد ناقشنا بصفة خاصة - ويقدر من التفصيل - كتب الرسول عليه السلام إلى هرقل والمسوقس وأمراء الغساسنة موضحين ملابساتها ومضامينها وردود أفعالها . وقد كان من الضروري - في هذا السياق - أن نناقش ما يثيره بعض الباحثين من شكوك حول وثيقة كتب الرسول إلى الملوك والأمراء بصفة عامة ، وقدمنا من الأدلة ما ينقض هذه الشكوك . أما فيما يتعلق بالنقطة الثانية - وهي علاقة الرسول بالقبائل العربية في الشام في تلك المرحلة - فقد أبرزنا محاولاته ﷺ لنشر الإسلام بين هذه القبائل وما أظهره بعضها من ردود أفعال حادة تجاه هذه المحاولات ، وما لذلك من دلالات تتصل بالعلاقات الإسلامية البيزنطية . ولعل سرية « ذات أطلاح » - التي ناقشناها بقدر من التفصيل في هذا الفصل - تمثل قمة ما تعرضت له محاولات الرسول في هذا الميدان من صدٍّ ومقاومة على يد بعض قبائل الشام في الفترة المشار إليها .

ويتناول **الفصل الرابع** سرية مؤتة التي تُعدُّ أول مواجهة مباشرة بين المسلمين والبيزنطيين في ميدان القتال . وقد حاولنا في هذا الفصل أن نتبع الجذور الأولى لمؤتة وأن نتعرف على ملابساتها وأهدافها الحقيقية في ضوء هذه الملابسات ، مع مناقشة ما يطرحه بعض الباحثين المحدثين من أهداف لا تتسق مع السياق الصحيح لهذه السرية . كما تناولنا أيضاً تطورات معركة مؤتة وحكم الباحثين عليها من منظور النصر والهزيمة وناقشنا أهم نتائجها فيما يتصل بمستقبل الصراع بين المسلمين والبيزنطيين ، وحللنا في هذا الإطار سرية ذات السلاسل التي حدثت في أعقاب مؤتة بقيادة عمرو بن العاص .

وفى **الفصل الخامس** الذى أفردناه لغزوة تبوك ناقشنا مقدمات هذه الغزوة والظروف التى أحاطت بها ؛ وفى ضوء ذلك حاولنا أن نتبين أهدافها الحقيقية ، وعرضنا فى الوقت نفسه ما يتردد أحياناً فى المصادر القديمة أو الدراسات الحديثة من أهداف لا تثبت أمام النقد التاريخى . ثم تحدثنا عن ترتيبات الغزوة وتطوراتها، كما ناقشنا الأسباب المحتملة التى جعلت الرسول ﷺ يعود من غزوته دون أن يواجه الروم فى الميدان ، وحاولنا أن نستخلص النتائج القريبة والبعيدة لغزوة تبوك التى تُعدُّ أضخم حملات الرسول ﷺ على الإطلاق .

أما **الفصل السادس** والأخير فيتناول تطور العلاقة بين الرسول والبيزنطيين منذ نهاية غزوة تبوك حتى وفاته ﷺ . وقد أدركنا حديثنا فى هذا الفصل حول نقطتين أساسيتين : أولاهما مدى تقدم الدعوة الإسلامية بين عرب الشام ، وموقف البيزنطيين من ذلك ؛ والثانية بحث أسامة بن زيد . وفى النقطة الأولى تحدثنا عن إسلام بعض الغساسنة وعن صدى ذلك عند قومهم ، كما تحدثنا عن إسلام فروة بن عمرو الجذامى أحد عمال الروم بالشام وعن تأثير ذلك على الامبراطور البيزنطى ، كما ناقشنا محاولات البيزنطيين لاختراق الجبهة الإسلامية وتفتيت وحدتها مستعينين فى ذلك ببعض رؤوس النفاق كأبى عامر الراهب . أما النقطة الثانية فقد اقتضت منا أن نناقش خلفيات بحث أسامة وأهدافه وأن نرصد تطوراتها . ورغم أن الرسول ﷺ توفى قبل أن ينجز أسامة مهمته ، مما جعل أسامة لا يتمكن من تحقيق هذه المهمة إلا فى خلافة أبى بكر - رغم ذلك فقد أدرجنا بحث أسامة ضمن الأنشطة الحربية للرسول ؛ فهو الذى وضع خطة البعث وحدد غايته ولم تتبق لأبى بكر إلا مهمة التنفيذ . وقد ناقشنا فى هذا السياق - بقدر من التفصيل - نتيجة هذا البعث وما تركه من صدى لدى البيزنطيين .

وأخيراً تأتى **خاتمة البحث** ، وفيها بلورنا أهم ما توصلنا إليه من نتائج .

بعد حديثنا عن أهمية موضوع البحث فى مجال الدراسات الإسلامية البيزنطية، وبعد استعراضنا لأبرز النقاط التى اشتملت عليها فصوله ، نأتى الآن لمناقشة مصادره الأساسية .

وأول ما نلاحظه فى هذا الصدد أن المصادر التى تشكل الأساس الذى يعتمد عليه الباحث فى تاريخ العلاقات الإسلامية البيزنطية فى تلك الفترة المبكرة تكاد تنحصر فى المصادر العربية . والجدير بالإشارة أن المصدرين الأساسيين لعصر هرقل وخلفائه فى التاريخ البيزنطى - وهما الحولية التى كتبها ثيوفانس Theophanes فى أوائل القرن التاسع الميلادى ، والحولية التى كتبها البطريق نقفور Nicephorus فى نفس الفترة تقريباً - لا يكادان يوجهان اهتماماً ذا بال إلى علاقات البيزنطيين بالمسلمين فى عصر النبوة .

على أن المصادر العربية - رغم تنوعها وثرائها - لا تقدم للباحث فى هذا الموضوع ما يشبع ظمأه تماماً ويجب عن كل تساؤلاته . ثم إن تضارب الروايات التى تقدمها فيما يتعلق بكثير من الحوادث التاريخية المهمة يمثل سمة بارزة من سماتها ويشكل صعوبة كبرى أمام الباحث ؛ هذا فضلاً عن أساليب التعميم التى تغلب على بعض هذه الروايات . ومن هنا فإن الاستفادة من تلك المصادر على الوجه الأمثل تحتاج إلى معاناة فى الموازنة والاستنباط ، وقد يضطر الباحث أحياناً إلى أن يتولى هو بنفسه ملء الثغرات عند إعاقته تركيب الأحداث .

ومن الطبيعى أن تأتى مصادر السيرة المتخصصة على رأس المصادر العربية المتنوعة لهذا البحث . ومع أن سيرة ابن هشام تمثل أهمية لا يمكن إنكارها لاتساعها وشمولها فإن كتاب المغارى للواقدي يأتى فى الدرجة الأولى من الأهمية . وقد تعاصر الواقدي وابن هشام وإن كان الواقدي أسبق وفاة ، فقد توفى فى سنة ٢٠٧هـ فى حين أن ابن هشام توفى فى سنة ٢١٣هـ أو ٢١٨هـ على رواية

أخرى . والمعروف أن سيرة ابن هشام تلخيص لسيرة أخرى لم تصل إلينا وهي سيرة محمد بن إسحاق المتوفى سنة ١٥٠ هـ .

أما الواقدي فقد استقى مادته العلمية من عدد من الرجال لعل أهمهم موسى ابن عقبة المتوفى سنة ١٤١ هـ ، ومعمار بن راشد المتوفى سنة ١٥٤ هـ ، وأبو معشر المتوفى سنة ١٧٠ هـ^(١) . وقد استفاد البحث كثيراً من مغازي الواقدي لما اشتملت عليه من إضافات مهمة في كثير من الحملات التي جرى تناولها ، ونخص منها بالذكر غزوة دومة الجندل في سنة ٥ هـ ، وسرية حسمى في سنة ٦ هـ ، وسرية ذات أطلاق في سنة ٨ هـ .

وإذا كانت سيرة ابن هشام ومغازي الواقدي تمثلان مصدرين من أهم وأقدم المصادر المتخصصة في السيرة فإن مصادر السيرة المتأخرة لا يمكن إغفالها نظراً لاعتمادها أحياناً على مصادر لم تصل إلينا وهو ما يعطيها قدراً من القيمة . ومن بين هذه المصادر «زاد المعاد» لابن القيم و«جوامع السيرة» لابن حزم و«الروض الأتف في شرح سيرة رسول الله» للسهيلي . ولعل هذا الأخير من أقيم المصادر المتأخرة في السيرة وأنفعها لهذا البحث . وهو في شرح سيرة ابن هشام .

وتُعدُّ موسوعات الحديث النبوي من بين مصادرنا الأساسية ، ويقف على رأسها الصحيحان : صحيح البخاري وصحيح مسلم ، لمتجهما التوثيق المتميز . وتقدم لنا مصادر الحديث مادة غنية تتصل ببعض الموضوعات الأساسية في هذه الدراسة ، مثل كتب الرسول ﷺ إلى ملوك العالم وأمرائه ، وسرية مؤتة ، وغزوة تبوك ، وغير ذلك .

وترتبط كتب الطبقات وتراجم الصحابة ارتباطاً وثيقاً بموسوعات الحديث النبوي؛ وهي بذلك تحتل مكاناً مهماً بين مصادرنا حيث تقدم لنا مادة وفيرة حول

(١) للمزيد حول ذلك راجع مقدمة مارسدن جونس لكتاب المغازي للواقدي ، ج ١ ، ص ٢٤-٢٩ .

الشخصيات التي كان لها دور في المواجهات الإسلامية البيزنطية . ويُعدّ كتاب «الطبقات الكبرى» لمحمد بن سعد ، المتوفى سنة ٢٣٠هـ ، عمدة هذه الكتب جميعاً ؛ فهو أسبقها من ناحية ، وأوثقها كذلك ، كما أنه أغزرها مادة ، هذا فضلاً عن أنه يبدأ باستعراضٍ ضافٍ لسيرة الرسول ﷺ . وقد استفاد بحثنا كثيراً من كتاب الطبقات الكبرى . وينعكس التأثير الواضح لهذا الكتاب على كل المصادر اللاحقة في تراجم الصحابة مثل «أسد الغابة» لابن الأثير ، و «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر ، و «الاستيعاب» لابن عبد البر .

نأتى بعد ذلك لنوع آخر من مصادر هذا البحث ؛ ويتمثل في الحوليات التاريخية العامة ، كتاريخ خليفة بن خياط ، وتاريخ اليعقوبى ، وتاريخ الطبرى ، وتاريخ ابن خلدون ، والكامل لابن الأثير ، والبداية والنهاية لابن كثير ، وغير ذلك مما لا ضرورة لحصره هنا . ويمثل تاريخ الطبرى ، المتوفى سنة ٣١٠هـ ، أهمية خاصة بين المصادر التاريخية العامة ، نظراً لثراء مادته العلمية وتعدد مصادره . ورغم اتفاق الطبرى مع ابن إسحاق والواقدي في الكثير فإنه يضيف جديداً إلى ما قدّمه . وتجدر الإشارة هنا أيضاً إلى تاريخ خليفة بن خياط المتوفى سنة ٢٤٠هـ ، وتاريخ اليعقوبى المتوفى حوالى سنة ٢٧٨هـ ، فكلاهما - رغم اختصاره - يقدم في كثير من الأحيان مادة مستقلة جديرة بالاعتبار .

ومن المصادر الأساسية أيضاً كتب الفتوح وما يتصل بها من تاريخ البلدان وجغرافيتها . ويرد في هذا الإطار كتاب «فتوح البلدان» للبلاذرى المتوفى سنة ٢٧٩هـ ، وكتاب «فتوح مصر وأخبارها» لابن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٥٧هـ . وهذا الأخير يقدم لنا أو في مادة عن كتاب رسول الله ﷺ إلى المقوقس وردود أفعاله . على أننا ينبغي ألا نغفل في هذا السياق موسوعتين جليلتين هما «معجم البلدان» لياقوت الحموى المتوفى سنة ٦٢٦هـ ، و «تاريخ مدينة دمشق» لابن عساكر المتوفى سنة ٥٧١هـ . أما معجم البلدان فلعله أكثر الكتب في باب شمولاً

واستيعاباً ، وهو يقدم لنا نبذة جغرافية تاريخية عن معظم المدن والأماكن التي تعاملنا معها خلال هذا البحث . وأما تاريخ مدينة دمشق فإن ابن عساكر يتحدث في المجلد الأول منه حديثاً مسهباً عن فتوح الشام ، وهو يتناول في ثنايا ذلك بتفصيل قد لا يوجد في سواه بداية احتكاك المسلمين بالشام في عصر الرسول ﷺ . فمن بين المباحث المفصلة في هذا المجلد الأول باب عنوانه : « سرايا رسول الله ﷺ إلى الشام وبعوثة الأوائل وهي غزوة دومة الجندل وذات أطلاق وغزوة مؤتة وذات السلاسل » ، ويقع في ثلاث وعشرين صفحة ؛ وباب آخر عنوانه : « غزاة النبي ﷺ بنفسه تبوك وذكر مكاتبه ومراسلته منها الملوك » ، ويقع في خمس عشرة صفحة ؛ وباب ثالث عنوانه : « ذكر بعث النبي ﷺ أسامة بن زيد قبل الموت وأمره إياه أن يشن الغارة على مؤتة ويبنى وأبل الزيت » ، ويقع في خمس صفحات . ولكن إذا كان تاريخ ابن عساكر ينطوي على منجم غني بالمادة التاريخية فإن على الباحث أن يقوم بمهمة الفحص الدقيق لهذه المادة المتضاربة أحياناً حتى يعرف ما يأخذ منها وما يدع .

وينبغي أن نشير أيضاً في هذا السياق إلى المصادر المتخصصة في أنساب العرب حيث يقدم بعضها مادة أساسية لهذه الدراسة . ولعل كتاب «أنساب الأشراف» للبلاذري أجدر هذه المصادر بالاهتمام ؛ ذلك أن مؤلفه يقدم في ثنايا حديثه عن الأنساب إشارات مهمة تتعلق بكثير من المسائل التي أثارها في هذا البحث ، كعلاقة المسلمين بالقبائل العربية في الشام ، وكتب الرسول ﷺ إلى الملوك ، والملابس التي أحاطت بغزوة تبوك ، وسرية غمرو بن العاص إلى ذات السلاسل ، وبعث أسامة . . . وغير ذلك من الموضوعات التي يضيف فيها البلاذري أحياناً ما يجعل من كتابه المذكور مصدراً لا يسوغ تجاهله .

يبقى أخيراً أن نتحدث عما يمكن أن نسميه بالموسوعات التاريخية ؛ وهي المصادر التي تدور حول المعارف التاريخية العامة . ويبرز في هذا المجال كتاب

«المحبر» لمحمد بن حبيب المتوفى سنة ٢٤٥هـ ، وكتاب «المعارف» لابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦هـ ، وكتاب «التنبيه والإشراف» للمسعودي المتوفى سنة ٣٤٦هـ . ورغم الأهمية الكبيرة التي تمثلها هذه المصادر بالنسبة لموضوعنا فإن كتاب «المحبر» من بينها يحتل مكانة خاصة ؛ فهو أقدم هذه المصادر وأغناها بالمادة التاريخية اللازمة ، ثم إن مؤلفه محمد بن حبيب كان - كما يصفه بعض المؤرخين - «حافظا متقنا صدوقا ثقة» (١) . وقد أفدنا من كتاب «المحبر» في غير موضع ، وخصوصا عند حديثنا عن علاقة الضجاعة والغساسنة بالبيزنطيين ، وعن وضع المسيحية في قریش قبل الإسلام وعلاقة البيزنطيين بها ، وعن بعض الغزوات والسرايا في بلاد الشام كغزوة دومة الجندل وسرية ذات أطلح ، وعن كتب الرسول ﷺ إلى الملوك والأمراء .

وربما جار لنا هنا أن نشير إشارة سريعة إلى كتاب آخر لابن حبيب ليس من كتب الموسوعات ولكنه من المصادر المتخصصة . وهو كتاب «المنق في أخبار قریش» . وقد أفدنا من هذا الكتاب بصفة خاصة عند حديثنا عن علاقة عثمان ابن الحويرث بالبيزنطيين وعن محاولة هؤلاء نشر المسيحية في مكة قبل الإسلام .

* * * * *

فهذا تحليل موجز لأهم المصادر التي اعتمد عليها هذا البحث . وإنا لنأمل أن نكون قد وفّقنا - في حدود المادة المتاحة - إلى تقديم تصور صحيح عن العلاقات الإسلامية البيزنطية في مرحلة من أخطر مراحل تاريخها الطويل .

والله من وراء القصد .

د / عبد الرحمن سالم

(١) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ، ج ٢ ، ص ٣٢١ .

تقدير

يتناول - باختصار - حالة الامبراطورية البيزنطية وعلاقتها بأهم القوى الخارجية حتى الفتح الإسلامي

لم يمض على ظهور الإسلام في أوائل القرن السابع الميلادي إلا فترة وجيزة حتى أصبح الصراع بينه وبين الدولة البيزنطية (التي تعرفها مصادرها باسم دولة الروم) سلسلة متصلة الحلقات لم تصل إلى نهايتها إلا بسقوط القسطنطينية على يد محمد الفاتح في سنة ١٤٥٣ م . فقد دام الصراع - إذن - بين القوتين العظميين أكثر من ثمانية قرون كان ميزان القوى خلالها يتأرجح بين هذا الجانب أو ذاك . والحق أن هذا الصراع بين الدولة الإسلامية والامبراطورية البيزنطية أصبح جزءاً لا يتجزأ من نسيج التاريخ الإسلامي خلال تلك القرون الطويلة بحيث أصبح يتعذر على الدارس فهم كثير من جوانب تاريخنا دون إلمام كاف ببعض الجوانب الأساسية في التاريخ البيزنطي خلال نفس الفترة . وهكذا أصبحت دراسة التاريخ البيزنطي في بعض جوانبه جزءاً من دراسة التاريخ الإسلامي .

ومما يعين على فهم حقيقة هذا الصراع وأبعاده وتطوراته فهم جذوره الأولي ودوافعه الحقيقية وفهم الظروف التاريخية التي نشأ فيها . ومن هنا كان لا بد من التعرف الموجز على تطور الأوضاع السياسية للدولة البيزنطية حتى الفتح الإسلامي .

والمعروف أن التاريخ العملي للدولة البيزنطية يبدأ في سنة ٣٣٠ م وذلك حين افتتح الامبراطور قسطنطين الأكبر العاصمة الجديدة للدولة الرومانية ، وهي تلك التي بناها على ضفاف البسفور على أنقاض مدينة بيزنطة القديمة ^(١) . وقد بدأ

(١) كانت بيزنطة مستعمرة إغريقية قديمة تأسست قبل الميلاد بأكثر من ستة قرون . وقد شهدت عصوراً من الازدهار في مراحلها الأولى رغم تعرضها لهجمات الأعداء وبالذات من ملوك الفرس ، ثم =

البناء فى نوفمبر سنة ٣٢٤م وتم افتتاح العاصمة الجديدة رسميا فى الحادى عشر من مايو سنة ٣٣٠م (١) .

وهكذا حلت العاصمة الجديدة للدولة الرومانية محل العاصمة القديمة «روما» فسمها قسطنطين «روما الجديدة» . وفى هذه التسمية ما يشير إلى أن قسطنطين لم يرد بنقل العاصمة أن يضع حدا لوجود الامبراطورية الرومانية ، بل إنه أراد ، بالأحرى ، أن يجدد شبابها ويضمن استمرارها وصمودها لعوامل التحدى ؛ وذلك بأن يهين لها عاصمة أكثر تلبية لحاجات الامبراطورية من العاصمة القديمة (٢) . فلم يكن هدف قسطنطين - إذن - أن يجعل من مدينته عاصمة لامبراطورية جديدة ؛ ولكن أن يجعل منها عاصمة جديدة لامبراطورية قديمة (٣) . والجدير بالملاحظة أن الاسم الذى أطلقه قسطنطين على عاصمته وهو «روما الجديدة» لم يُقدّر له البقاء وحل محله الاسم الذى ظل يستخدم طوال حياة الامبراطورية وهو القسطنطينية (Constantinople) أى مدينة قسطنطين .

ولإذا كان إنشاء القسطنطينية يمثل حدثا من أهم الأحداث فى عهد قسطنطين الأكبر فإن هناك حدثا لا يقل أهمية عنه وهو اعتناق الامبراطور للمسيحية واتخاذها

= خضعت فى النهاية لروما ، ولكنها تعرضت للدمار أكثر من مرة نتيجة الحروب الأهلية داخل الامبراطورية الرومانية أحيانا وغارات القوط أحيانا أخرى حتى جاء قسطنطين الأكبر فأعاد بناءها وجعلها مقرا لمملكته . انظر : الامبراطورية البيزنطية ، تأليف أومان ، تعريب د/ مصطفى طه بدر . طبعة دار الفكر العربى - القاهرة ١٩٥٣م . من ص ٢ إلى ١٣ .

(1) G . Ostrogorsky , History of the Byzantine State, translated from the German by J. Hussey . Oxford, 1968, p. 44 .

تم العاصمة الجديدة عند نقطة التقاء قارة آسيا وأوروبا ، ويحيط بها من الشرق مضيق البسفور ، ومن شمال القرن الذهبى ، ومن الجنوب بحر مرمرة . وقد أضفى هذا الموقع على القسطنطينية أهمية حربية وتجارية . ويضاف إلى ذلك أن القسطنطينية بحكم قربها من المراكز الهامة للثقافة الهيلينية أتيح لها أن تحتل مكانة ثقافية متميزة . انظر :

Ostrogorsky , op . cit., p . 45; A . Vasiliev , History of the Byzantine Empire, Wisconsin , 1952, p. 60 .

(3) R.H.C. Davis, History of Medieval Europe, Longman, 1988, P.9.

دينا رسمياً للدولة^(١). ولسنا هنا بصدد مناقشة الدوافع التي أدت إلى هذا التحول ولا مدى إخلاص قسطنطين في موقفه ذلك^(٢)، ولكننا نقرر حقيقة يكاد يتفق عليها الباحثون وهي أن اعتناق قسطنطين للمسيحية وما تلاه من بناء العاصمة الجديدة كان نهاية مرحلة متميزة في تاريخ الدولة الرومانية ونقطة البداية لما أطلق عليه بعد ذلك تاريخ الدولة الرومانية الشرقية أو الدولة البيزنطية.

ويلاحظ بعض الباحثين بحق أن الفترة الممتدة من حكم الامبراطور قسطنطين الأكبر إلى حكم الامبراطور هرقل (الذي تولى في سنة ٦١٠م) تمثل مرحلة تكوينية في تاريخ الامبراطورية البيزنطية^(٣). فخلال هذه الفترة أخذت الامبراطورية تخلص نفسها تدريجياً من المصالح والارتباطات الغربية وتتجه نحو الشرق لتصبح في النهاية امبراطورية شرقية محددة الملامح^(٤).

ويمكننا تقسيم هذه الفترة، التي استمرت حوالي ثلاثة قرون، إلى مرحلتين أساسيتين: المرحلة الأولى تبدأ بحكم قسطنطين الأكبر (٣٢٤ - ٣٣٧م) وتنتهي بنهاية عهد الامبراطور زينون في سنة ٤٩١م. أما المرحلة الثانية فتبدأ بحكم الامبراطور أناستاسيوس الأول سنة ٤٩١م وتنتهي بظهور موجة الفتح الإسلامي في عهد هرقل في الربع الثاني من القرن السابع الميلادي.

والجدير بالملاحظة أن الامبراطورية الرومانية خلال المرحلة الأولى المشار إليها

(١) يختلف المؤرخون حول تاريخ اعتناق قسطنطين للمسيحية. على أن الراجح أن تنصره يرجع إلى احتلاله لروما في سنة ٣١٢م. انظر: الامبراطورية البيزنطية، تأليف نورمان بينز، ترجمة د/ حسين مؤنس والأستاذ محمود يوسف رايد. لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة ١٩٥٠، ص ٨، ٩. وانظر أيضاً: Ostrogorsky, op. cit., p. 47.

(2) Vasiliev, op. cit., pp. 45 - 50; Ostrogorsky, op. cit., p. 46.

(3) Moss, in his article, "The History of the Byzantine Empire: an outline", published in "Byzantium", ed. by N.H. Baynes and H. Moss (Oxford, 1953), pp. 3f.

(٤) وما يذكره جورج أوستروجورسكى Ostrogorsky في هذا الصدد أن عهد هرقل يمثل بداية التاريخ البيزنطي الحقيقي. انظر: History of the Byzantine State, p. 106.

ظلت تمثل امبراطورية واحدة حتى أواخر القرن الرابع الميلادي ، أو بالتحديد عند وفاة الامبراطور ثيودوسيوس الأول في سنة ٣٩٥ م ، حيث تقاسم الامبراطورية بعده ابنه أركاديوس "Arcadius" وهونوريوس "Honorius" ، فكان الجزء الشرقي من نصيب الأول ، والغربي من نصيب الأخير (١) . وقد كان ذلك خطوة مؤكدة نحو مزيد من التحديد للامح الامبراطورية الرومانية الشرقية أو الامبراطورية البيزنطية .

ولعل أهم ما يميز تلك المرحلة الأولى أنها كانت فترة مواجهات دامية بين الامبراطورية الرومانية وبين العناصر الهمجية التي كان أبرزها قبائل الجرمان والهون (٢) وقد نجحت إحدى القبائل الجرمانية ، وهم القوط ، في سنة ٤٧٦ م في

(1) Vasiliev, op . cit., p. 88 .

(٢) نزحت قبائل الجرمان من شمال أوروبا ، وبالذات اسكندناوه . ومن أهم فروعها المتعددة القوط الشرقيون Ostrogoths ، والقوط الغربيون Visigoths ، واللمبارد والوندال والبرجنديون والفرنجية والآنجلوسكسون . ولكن القوط كانوا مصدر الخطر الأول على الامبراطورية خلال تلك الفترة بالتحديد . ورغم كثرة الضربات التي سددها القوط ضد الامبراطورية في تلك المرحلة فلا شك أن أخطرها على الإطلاق تمثل في استيلائهم على روما عاصمة الجناح الغربي للامبراطورية الرومانية ، وذلك في سنة ٤٧٦ م تحت قيادة الزعيم القوطي أودوفاسكار Odovacar ، وكان ذلك بداية انهيار الجناح الغربي من الامبراطورية الرومانية .

وقد استطاع الوندال أن يسيطروا على إفريقية في سنة ٤٢٩ م . كما تمكن الفرنجية من السيطرة على الأجزاء الشمالية من بلاد الغال «فرنسا» . وكان الأنجلو - سكسون قد بدأوا يستقرون في بريطانيا . فقد مثلت العناصر الجرمانية - إذن - خطراً حقيقياً على الدولة الرومانية في القرنين الرابع والخامس بما استولت عليه من أملاكها ، وخاصة في الجانب الغربي أو الأوروبي .

أما الهون فإنهم ينتمون إلى أصل مغولي ، وقد نزحوا من وسط آسيا بحثاً عن الرزق في الأقاليم الخاضعة للدولة الرومانية بشقيها الشرقي والغربي وأخذوا يشكلون تهديداً خطيراً لأمنها . وكان أعظم قائد للهون خلال تلك المرحلة هو أتिला Attila الذي عاث فساداً في شبه جزيرة البلقان ، كما توجه بحملاته إلى بلاد الغال وإيطاليا . ولكن وفاته في سنة ٤٥٤ م أدت إلى توقف تلك الغارات نهائياً وإلى اضمحلال امبراطورية الهون .

حول الهجمات التي تعرضت لها الامبراطورية الرومانية على يد عناصر الجرمان والهون في القرنين الرابع والخامس الميلاديين ارجع إلى : الامبراطورية البيزنطية ، تأليف أومان ، ص ٣٢ وما بعدها ؛ والمسلمون والجرمان ، للدكتور إبراهيم أحمد العدوي ، ص ١٥ وما بعدها . وارجع أيضاً إلى : =

الاستيلاء على مدينة روما ، العاصمة القديمة للامبراطورية الرومانية .

أما المرحلة الثانية التى تبدأ بحكم الامبراطور أناستاسيوس الأول فى سنة ٤٩١م وتنتهى بظهور موجة الفتح الإسلامى فى عهد هرقل فقد شهدت تطوراً هائلاً فى تاريخ الدولة الرومانية . وقد أخذ الامبراطور أناستاسيوس الأول (٤٩١ - ٥١٨م) بيد بيزنطة إلى القرن السادس الميلادى ، وهو القرن الذى ألقى على عاتق الامبراطورية البيزنطية مهمة الحفاظ على التراث الرومانى والدفاع عن الحضارة الرومانية باعتبارها الوريث الذى لا ينازع للامبراطورية الرومانية التى انهار شقها الغربى فى سنة ٤٧٦م كما أشرنا .

هذا ؛ وقد مرت العلاقة بين الدولة البيزنطية ومنافستها العظمى دولة الفرس خلال عهد أناستاسيوس الأول بمرحلة من التوتر الحاد أدت إلى اشتعال حرب واسعة بين الطرفين فى سنة ٥٠٣م كان مسرحها أرمينيا وبلاد الجزيرة ، وذلك خلال حكم الامبراطور الفارسى قباد (٤٨٧ - ٥٣١م) . وهذه المواجهة التى جاءت بعد فترة سلام طويلة بين الجانبين (من سنة ٤٢٢ إلى سنة ٥٠٣م) انتهت أيضاً بعقد سلام بينهما فى سنة ٥٠٥م ، ولكنه لم يدم طويلاً ، حيث استغل أناستاسيوس فرصة انشغال قباد بمشاكله الخارجية فبدأ يشن الغارات على الحدود الفارسية ، وكان ذلك بداية لمرحلة أخرى من المواجهات بين البيزنطيين والفرس استمرت حتى الفتح الإسلامى رغم ما كان يتخللها أحياناً من فترات سلام مؤقتة بين الجانبين (١) .

H. Moss, "The Formation of the East Roman Empire 330 - 717" , an article = published in "The Cambridge Medieval History" , vol. Iv, part I, Cambridge, 1966, pp. 27 f . See also, Davis. op. cit, pp. 24 ff. ; Ostrogorsky , op. cit; pp . 55 ff .

(١) لمزيد من التفاصيل انظر : P. Sykes, A History of Persia (London, 1958), vol. I; pp. 444 ff .

كما تعرضت الامبراطورية البيزنطية فى عهد أناستاسيوس الأول أيضاً لتهديد جديد مصدره البلغار والسلاف (الصقالبية) ؛ وهو التهديد الذى سوف يتصاعد فيما بعد ، وخصوصاً من جانب الصقالبية ، ليصبح مشكلة حقيقية أمام الامبراطور جستنيان وخلفائه . وهذا ما حدا ببعض المؤرخين لأن يعتبروا عصر أناستاسيوس مجرد مقدمة لما يمكن أن يسمى بالفترة السلافية فى شبه جزيرة البلقان (١) .

وقد استطاعت العناصر الجرمانية أن تدعم وجودها داخل الامبراطورية فى عهد أناستاسيوس الأول ، وخاصة القوط فى إيطاليا ، والفرنجية فى بلاد الغال (فرنسا) (٢) .

وهكذا كان وضع الامبراطورية الرومانية فى مطلع القرن السادس الميلادى شديد الحرج ، حيث تكالبت عليها قوى مختلفة لتقتطع أجزاء رئيسية من كيائها المترامى الأطراف .

وعند وفاة أناستاسيوس الأول فى سنة ٥١٨م اعتلى العرش بعده جستين الأول المعروف باسم جستين الأكبر "Justin the Elder" . وقد ابتدأ بحكمه عصر الأسرة المعروفة فى التاريخ البيزنطى باسم «أسرة جستينيان» . وجستينيان هو ابن أخت جستين ، وكان صاحب النفوذ الأكبر فى عهد خاله ؛ فالمعروف أن جستين هذا كان جندياً أمياً لا يكاد يحسن التوقيع باسمه (٣) . وقد حدث خلال حكم جستين أن غزا الأحباش اليمن (سنة ٥٢٣م) بتشجيع من جستين نفسه . وكان الأحباش أحلاف بيزنطة . وقد كان سبب هذا الغزو ما قام به الملك اليهودى الحميرى ذو س ضد نصارى اليمن من اضطهاد وتنكيل بهدف التمكين لليهودية هناك . وقد

(1) Vasiliev, History of the Byzantine Empire, p. 115 .

(2) Ibid , pp. 110 - 111 .

نظر أيضاً : المسلمون والجرمان ، للدكتور إبراهيم العدوى ، ص ٣٧ - ٣٩ .
(الامبراطورية البيزنطية ، تأليف أومان ، ص ٥٢ .

نجح الأحباش في مهمتهم واستردوا المسيحية في اليمن (١) .

أما على الجبهة الفارسية فقد استمر جستين على سياسة سلفه العدائية ضد فارس ، فنشبت الحرب بين الجانبين في سنة ٥٢٤م واستمرت عدة سنوات بعد تولى جستينان الحكم ، وكانت تدور حول الحدود في أرمينيا وبلاد الجزيرة ، وكانت الكفة الراجحة فيها بوجه عام في جانب الفرس (٢) .

والملاحظ على أية حال أن جستين - خلال حكمه الذي استمر تسع سنوات - لم يترك بصمات واضحة في التاريخ البيزنطي سوى أنه كان « الواسطة في وضع أكبر حاكم منذ موت قسطنطين على عرش الشرق » ؛ فقد مات جستين في سنة ٥٢٧م دون أن يُعقب ، وأوصى بالعرش من بعده لابن أخته جستينان الذي كان في الخامسة والأربعين من عمره حينذاك (٣) .

وقد كان جستينان هذا ، الذي يعرف باسم جستينان الأول أو الكبير ، على قدر عال من الثقافة والذكاء والتجربة والطموح . والواضح أن شخصيته طغت على القرن السادس كله في بيزنطة ؛ فقد حكم ثمانية وثلاثين عاما (٥٢٧ - ٥٦٥م) ؛ هذا بالإضافة إلى أنه كان القوة المحركة للأحداث خلال حكم سلفه جستين (٤) .

وأبرز ما يوصف به عصر جستينان هو أنه عصر الاسترداد . ذلك أن هذا الامبراطور وجه جهده الأكبر لاستعادة الأقاليم الغربية من الامبراطورية الرومانية ،

(١) لمزيد من التفاصيل ارجع إلى : الفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ، ج ٣ ، ص ٤٥٧ وما بعدها .

وانظر أيضاً : S. Trimingham, Christianity among the Arabs in pre Islamic Times (Librairie du Liban, 1979), p. 289 f.; 294 ff.

(2) P. Sykes, A History of Persia, pp. 444 - 446 .

(3) D. M. Nicol, "Justinian I and his Successors", in "Byzantium : An Introduction", (Oxford, 1981), p. 17 .

(٤) الامبراطورية البيزنطية ، تأليف أومان ، ص ٥٢ .

وهى تلك الأقاليم التى تمثل أهمية خاصة للامبراطورية والتى استطاعت العناصر الجرمانية السيطرة عليها قبل ذلك . وقد نجح جستنيان فى مهمته نجاحاً باهراً فاستعاد إيطاليا ومعظم شمال إفريقيا وجزءاً من إسبانيا ، وأصبح البحر الأبيض المتوسط مرة أخرى بحيرة رومانية (١) .

ولكن الملاحظ أن الحروب الاستردادية التى قام بها جستنيان فى الجبهة الغربية كانت على حساب أمن الامبراطورية فى مناطق أخرى ، وخاصة فى الجبهة الشرقية والشمالية . وقد اضطر جستنيان - نتيجة هذه الحروب - أن يعقد صلحاً جددّه أكثر من مرة مع امبراطور الفرس العظيم كسرى أنوشروان (الذى حكم من سنة ٥٣١ إلى سنة ٥٧٩م) . وفى سنة ٥٦٢م اتفق الطرفان على عقد صلح مدته خمسون عاماً كان من بين شروطه أن تدفع بيزنطة مبلغاً سنوياً مقداره ثلاثون ألف قطعة ذهبية لدولة الفرس (٢) .

أما فى الجبهة الشمالية فقد مثل السلاف (الصقالبة) على وجه الخصوص خطراً حقيقياً على الامبراطورية البيزنطية فى عهد جستنيان ؛ حيث أخذوا يعبرون «الدانوب» كل عام تقريباً بأعداد ضخمة ويتوغلون داخل الأقاليم البيزنطية محطمين كل شىء فى طريقهم . بل إنهم أخذوا يهددون العاصمة ذاتها (٣) . ورغم أن قوات جستنيان حاربهم بضراوة ونجحت أحيانا فى إرغامهم على التقهقر فإنها لم تتمكن من وضع نهاية حاسمة لتهديداتهم نظراً لأن الغرب كان يحظى بالقدر الأكبر من الجهد العسكرى لجستنيان . وقد ظل الصقالبة يمثلون خطراً متصاعداً فى وجه الامبراطورية حتى نجحوا فى عصر لاحق فى أن يستقروا نهائياً فى شبه جزيرة البلقان (٤) .

(1) Ostrogorsky, op. cit, p. 71

نظر أيضاً : العالم البيزنطى ، تأليف مى ، ترجمة د/ رافت عبد الحميد ، ص ١١١ .

(2) Sykes , op . cit , pp. 451 - 454 ; cf. Bury , A History of the Later Rom Empire, vol . II, pp . 79 ff .

(3) Vasiliev, op . cit, p. 140 .

(4) Ostrogorsky , op. cit., p . 72

هكذا يمكن القول إن نجاح جستنيان في الجبهة الغربية جاء على حساب فشله في الجبهة الشرقية والشمالية . ويكاد المؤرخون المحدثون يجمعون على أن النجاح الذي أحرزه جستنيان في الغرب كان نجاحاً صورياً يحمل في طياته بذور الدمار . لقد أراد جستنيان - كما يقول «أوستروجرسكى» - « أن يجعل من حكمه بداية عصر مزدهر في دولة الروم فكان نهاية عصر مزدهر » (١) ؛ وما ذلك إلا لأنه مهد السبيل لتدهور الامبراطورية بتوريطها في حروب استنزافية أنهكت اقتصادها ولم تعد عليها بكبير جدوى فضلاً عن أنها أحدثت دماراً مروّعاً في البلاد المفتوحة (٢) .

على أن أعظم ما خلّد اسم جستنيان الأول في التاريخ أمران : أولهما عمله القانوني العظيم المتمثل في إعادة تنسيق وتنقيح القانون الروماني القديم وإخراجه في شكل موسوعي عملي يلبي حاجات العصر فأصبح يحتل عند الأجيال التالية مكانة متميزة في التشريع جعلته يوصف بأنه «أبو القانون» (٣) . أما الأمر الثاني فيتمثل في إنجازاته المعمارية الرائعة التي يُعدُّ أبرزها بلا جدال إعادة بنائه لكنيسة «آيا صوفيا Hagia Sophia» (٤) في القسطنطينية ، التي ما زالت حتى يومنا هذا تحتل مكاناً بارزاً بين روائع التحف المعمارية في العالم ، وهي الآن مسجد السلطان محمد الفاتح باستانبول (٥) .

توفي جستنيان في سنة ٥٦٥م في سن الثالثة والثمانين . وقد تعاقب على عرش الامبراطورية البيزنطية بعد وفاته حتى تولى هرقل في سنة ٦١٠م أربعة أباطرة : أولهم جستين الثاني أو الأصغر " Justin the Younger " (٥٦٥ - ٥٧٨م) الذي شهد حكمه مولد الرسول محمد ﷺ في عام ٥٧٠ (أو ٥٧١م) ، وهو

(1) Ostrogorsky, Loc. cit.

(2) Davis, History of Medieval Europe, p. 57 .

(٣) انظر : الامبراطورية البيزنطية ، تأليف أومان ، ص ٨٧ ، ٨٨ .

(٤) ومعناها : الحكمة المقدسة في اللغة اليونانية .

(5) See Philip Whitting in his article " Byzantine Art and Architecture " , published in "Byzantium : an Introduction" (Oxford, 1981), p. 146 f .

المعروف باسم «عام الفيل» ؛ كما شهد حكمه فى العام ذاته محاولة غزو الأحباش للكعبة من مستعمراتهم فى اليمن بقيادة «أبرهة» وهى المحاولة التى انتهت بالفشل والتى أشار إليها القرآن الكريم فى سورة الفيل (١) . ولم يطل حكم الأحباش لليمن بعد هذا الحادث ؛ فقد استنجد عرب اليمن - بزعامة سيف بن ذى يزن - بالفرس لمساعدتهم على التخلص من نير الأحباش الذين بدأ غزوهم لليمن فى سنة ٥٢٣م فى عهد جستين الأول وبتشجيع منه كما أسلفنا . وقد رحّب امبراطور الفرس كسرى أنوشروان بهذه الفرصة ورأى فيها خير وسيلة للقضاء على إحدى مناطق النفوذ البيزنطى بالقرب من حدوده . ومن هنا أرسل فى عام ٥٧٥م حملة إلى اليمن قضت على نفوذ الأحباش بها ومكنت للنفوذ الفارسى هناك . وقد ظلت اليمن تخضع لسلطان الفرس منذ ذلك الحين حتى الفتح الإسلامى (٢) .

أما ثانى الأباطرة الذين تولوا الحكم بعد وفاة جستينيان وقبل مجيئ هرقل فهو طيباريوس قسطنطينوس Tiberius Constantinus المعروف باسم طيباريوس الأول (٥٧٨ - ٥٨٢م) ، وقد كان يعمل رئيساً لحرس القصر فى عهد سلفه جستين الثانى ، وكان من ألصق الناس به (٣) . ثم تولى بعده موريس Maurice الذى يكاد يجمع المؤرخون على أنه كان من أعظم حكام تلك الفترة (٤) . وقد ظل موريس فى منصبه عشرين عاماً (٥٨٢ - ٦٠٢م) ، ثم ثار عليه الجند بزعامة ضابط صغير الرتبة يُدعى فوكاس Phocas ، فأمر هذا بقتل موريس ، ثم نصبه الجند امبراطوراً فى سنة ٦٠٢م . وقد استمر فوكاس فى الحكم حتى ثار عليه هرقل

(١) سورة رقم [١٠٥] . وحول محاولة أبرهة غزو مكة انظر : Hitti, History of the Arabs, p. 64 وانظر أيضاً : تاريخ الطبرى ، ج ٢ ، ص ١٣٠ - ١٣٩ . ولناقشة الآراء المختلفة حول حملة أبرهة وتاريخها انظر : المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ، ج ٣ ، ص ٥٠٧ - ٥٢١ .
(٢) تاريخ الطبرى ، ج ٢ ، ص ١٣٩ وما بعدها وانظر أيضاً : Hitti, History of the Arabs, p. 65 f .

(٣) الامبراطورية البيزنطية ، تأليف نورمان بينز ، ص ٤٨ .

(٤) انظر على سبيل المثال : Ostrogorsky, op. cit, p. 80, Nicol, op. cit., p. 29; Vasiliev, op. cit., p. 169 .

وخلعه وقتله فى سنة ٦١٠ م ، وبدأ بذلك حكم أسرة جديدة فى التاريخ البيزنطى
كان عصرها حافلاً بكبار الحوادث وهى أسرة هرقل .

وقد تكالب على الامبراطورية البيزنطية - خلال الفترة الممتدة من وفاة جستينيان
الأول حتى تولى هرقل - عدد من الخصوم الألداء الذين مثلوا تهديداً حقيقياً لأنها
وسلامتها ، وهم اللمبارد (١) ، والآفار (٢) ، والصقالبة (٣) ، والفرس . ولكن

(١) اللمبارد إحدى القبائل الجرمانية العديدة . وكانوا يقيمون فى الجزء الأوسط من حوض الدانوب فى
هنغاريا . وقد استطاعوا فى سنة ٥٦٨ م أن يكوّنوا مملكة لهم فى شمال إيطاليا بزعامة ملكهم البوين
Alboin وخلعوا اسمهم على تلك المنطقة التى عرفت باسم «لمبارديا» . وقد عجز الأباطرة البيزنطيون
عن القضاء على مملكة اللمبارد ، ولم ينجح فى ذلك إلا ملوك الفرنجة بعد قيامها بأكثر من قرن ونصف .
راجع : الامبراطورية البيزنطية ، تاليف أومان ، ص ٩٠ - ٩١ وانظر أيضاً :

Vasiliev, History of the Byzantine Empire, p. 172; Bury, A History of the
Later Roman Empire , vol . II, p. 160 ff .

(٢) الآفار سلالة بدوية تترية من آسيا الوسطى . وقد ظهروا كقوة مؤثرة فى الساحة البيزنطية فى عصر
جستينيان ، ولكن جستينيان استطاع أن يروضهم ويستخلصهم حلفاء له ضد أعدائه الكثيرين . ثم بدأ الآفار
يطمعون فى اتخاذ موطن دائم لهم فى الجزء الجنوبى من حوض الدانوب داخل الأراضى البيزنطية ،
فاضطّر الامبراطور جستين الثانى فى سنة ٥٧٤ م أن يدفع لهم فدية مقابل تخليّهم عن هذا المطلب .
ولكن خطر الآفار لم ينته تماماً بل ضمو صفوفهم إلى الصقالبة وأخذوا يعبرون الدانوب فى أعداد هائلة
قبيل نهاية القرن السادس الميلادى وفى أوائل السابغ طلباً للاستقرار فى أراضى الامبراطورية . انظر :
Vasiliev, op. cit., p. 171 f.

(٣) رغم ظهور الصقالبة فى الأراضى البيزنطية منذ أوائل القرن السادس الميلادى فى عصر الامبراطور
أناستاسيوس الأول كما أشرنا سابقاً ، ورغم تزايد خطرهم على بيزنطة بصورة واضحة فى عصر
جستينيان فلم يهتم لهم يصحبوا مشكلة تستعصى على الحل إلا بعد وفاته . وكانت شبه جزيرة البلقان هى
مطمحهم الأكبر ؛ فقد أخذوا يعبرون نهر الدانوب فى أعداد لا مثيل لها فى الجزء الأخير من القرن
السادس وأوائل السابغ واستوطنوا فيما عرف بعد ذلك باسم يوغوسلافيا واليونان . وقد خاض
الامبراطور «موريس» ضدهم بعض المعارك الناجحة ابتداء من سنة ٥٩٢ م ولكنه لم يستطع أن ينتصر
عليهم انتصاراً حاسماً . ثم انتهى صراع موريس ضد الصقالبة بقتله على يد جنده فى سنة ٦٠٢ م حين
أصدر الامبراطور أوامره بأن يقضى الجيش الشتاء القارس شمالى نهر الدانوب . وقد نصب الجيش
«فوكاس» امبراطوراً فى نوفمبر سنة ٦٠٢ م بعد مقتل موريس . ومنذ ذلك الوقت بدأ الاحتلال الصقلبى
لشبه جزيرة البلقان على نطاق واسع . ولم يفلح الامبراطور هرقل - قاهر الفرس - فى وضع حد لهذا
الغزو الذى اقتطع جزءاً من أهم أجزاء الدولة البيزنطية . راجع : =

المؤكد أن الفرس كانوا أقوى هؤلاء الخصوم شكيمة وأكثرهم تهديداً لأمن البيزنطيين . وقد ذكرنا أن جستنيان عقد معهم في سنة ٥٦٢م معاهدة سلام مدتها خمسون عاماً تعهد فيها بدفع فدية سنوية كبيرة ، وذلك حتى يستطيع توجيه جهده الأساسي للجبهة الغربية . ولكن جستنيان الثاني رفض أن يستمر في دفع الفدية التي التزم بها جستنيان ظناً منه أن كسرى أنوشروان الذي كان في حدود السبعين من العمر حينذاك سوف تقعه شيخوخته عن خوض حرب انتقامية ، «ولكن الأسد العجوز كان ما زال يمثل عدواً خطيراً» (١) ، فقد نشبت الحرب بين القوتين العظيمين في سنة ٥٧٢م وقادها أنوشروان بنفسه . ثم واصل سياسته الهجومية أيضاً ابنه وخليفته هرمز الرابع (٥٧٩ - ٥٩٠م) (٢) . وقد استمرت هذه الحرب عشرين عاماً أحرز الفرس في بداياتها بعض الانتصارات ، واستولوا على «دارا» من بلاد الجزيرة (٣) ، وتوغلوا في سوريا ووصلوا بغاراتهم حتى أبواب أنطاكية (٤) ولكن الصراع الداخلي على العرش في فارس اضطر كسرى الثاني «خسرو برويز» ، الذي تولى الحكم في سنة ٥٩٠م ، إلى عقد الصلح مع الإمبراطور البيزنطي مسوريس والتنازل له عن بعض الأراضي (٥) . وكان خسرو برويز قد استعان بموريس في ذلك الصراع الداخلي من أجل تأمين عرشه فلم يتباطأ موريس عن مساعدته (٦) ، فحفظ له خسرو هذا الصنيع . ثم تطورت الأحداث في بيزنطة

Ostrogorsky , History of the Byzantine State, pp. 82, 93 ff. ; Nicol, Justinia and his successors, p.31 ff.

(1) Sykes , A History of Persia, vol. I, p. 456 .

(2) Ibid., p. 476 .

كانت الجزيرة Mesopotamia في الفترة الرومانية البيزنطية منطقة موزعة النفوذ بين الفرس والروم ظلت كذلك حتى الفتح الإسلامي . انظر :

M. Canard, the article "Al - Djazira", in : "The Encyclopedia of Isla New Edition .

(4) Sykes, op. cit., p. 456 .

(5) Vasiliev, op. cit., p. 171 .

(١) دار هذا الصراع الداخلي بين خسرو برويز وبين قائد جيشه بهرام . وكانت الغلبة في البداية لبهرام فاضطر «خسرو» إلى اللجوء إلى الإمبراطورية البيزنطية حيث رحب به «موريس» وأمدّه بقوة بيزنطية =

بصورة شجعت خسرو برويز على التدخل ؛ ذلك أنه عندما ثار فوكاس على موريس في سنة ٦٠٢م وعزله وقتله اتخذ خسرو ذلك الحادث ذريعة للهجوم على بيزنطة حيث ادّعى أنه يريد الثأر لمقتل صديقه وحليفه «موريس»^(١). وهكذا نشبت الحرب مرة أخرى بين الطرفين في سنة ٦٠٣م بعد صلح دام عشر سنوات ، وكانت أشد عنفاً وضراوة . واقتحم الفرس دفاعات الحدود ووصلوا في زحفهم إلى ولايات آسيا الصغرى نفسها ، واستولوا على قيصرية Caesarea ، واقتربوا من القسطنطينية^(٢) . ولم يكتف «فوكاس» بوقوفه عاجزاً أمام هذا الطوفان الفارسي ، بل زاد على ذلك بأن فرض حباله من الرعب والفرع على رعاياه ، وخاصة في القسطنطينية ، ولم يكن يتورع عن القتل لأدنى شبهة^(٣) . وقد أدت هذه الظروف كلها بسكان القسطنطينية إلى الاستنجاد بنائب إفريقية ، وهو هرقل المسنّ ، الذي كان يحمل لقب إكزرك Exarch ، ليخلصهم من براثن الطاغية . وكانت ولاية إفريقية في ذلك الوقت بمنأى عن الفتن والاضطرابات . فاستجاب هرقل لهذا النداء وأرسل ابنه الشاب - واسمه هرقل أيضاً - على رأس أسطول إلى القسطنطينية لتنفيذ المهمة . ولم يجد هرقل الابن صعوبة تذكر في دخول العاصمة والإطاحة بفوكاس الذي لم يجد من يدافع عنه ، ففتك به جنود هرقل . وفي الخامس من أكتوبر سنة ٦١٠م تم تنصيب هرقل الابن امبراطوراً في كنيسة «آيا صوفيا» على يد بطريك القسطنطينية ، فبدأ بذلك حكم أسرة من أشهر الأسر في التاريخ البيزنطي كله ، وهي أسرة هرقل^(٤) .

= استطاع خسرو بمساعدتها أن يسترد عرشه وأن يقضى على الثائر . انظر : Sykes, op . cit ., p. 478 f.

(1) For more details see, A.N. Stratos, Byzantium in the Seventh Century , vol. I, pp. 57 - 59 .

وانظر أيضاً : العالم البيزنطي ، تأليف هسي ، ص ١٢١ ، ١٢٢ .

(2) Sykes, op.cit., p. 480 f. See also, Ostrogorsky, op. cit., p. 85 .

(٣) راجع : الامبراطورية البيزنطية ، تأليف أومان ، ص ١٠١ .

(4) Ostrogorsky, op. cit., p. 85 .

ولم يتوقف الفرس عن عقاب الامبراطورية البيزنطية بعد مصرع «فوكاس» الذى قتل حليفهم فيما يزعمون ؛ بل استأنفوا هجومهم المدمر على اراضى الامبراطورية بعد فترة قصيرة من تتويج هرقل . ففى سنة ٦١١م زحفوا الى شمال الشام واحتلوا أنطاكية التى كانت أهم مدينة رومانية فى آسيا وعاصمة الولايات الآسيوية. فى الامبراطورية البيزنطية (١) . وبعد ذلك بقليل احتلوا دمشق . وبعد أن أكملوا غزوهم لسوريا تقدموا نحو فلسطين واحتلوا بيت المقدس فى سنة ٦١٤م بعد حصار دام عشرين يوماً فأنزلوا بأهلها مذبحه مروعة راح ضحيتها ستون ألفاً أو يزيدون (٢) . وقد انضم يهود بيت المقدس إلى الفرس واشتركوا اشتراكاً فعلياً فى هذه المذابح (٣) . ومما زاد من هول الصدمة فى نفوس البيزنطيين أن الفرس استولوا على الصليب المقدس ، وهو الذى يعرف باسم صليب الصلبوت ، وحملوه معهم إلى المدائن Ctesiphon عاصمة امبراطوريتهم ، كما أخذوا معهم عدداً هائلاً من الأسرى وفيهم بطريرك بيت المقدس (٤) ثم توغل الفرس فى ولايات آسيا الصغرى وكانوا قاب قوسين من القسطنطينية (٥) وقد توجوا فتوحاتهم بالزحف إلى مصر والاستيلاء على الإسكندرية عاصمتها فى سنة ٦١٨ (أو سنة ٦١٩م) . وكان سقوط مصر فى يد الفرس ضربة هائلة للامبراطورية البيزنطية لأن مصر كانت تمثل مخزن غلال الامبراطورية (٦) . والجدير بالذكر أن القرآن الكريم أشار إلى هذه الأحداث فى قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا بِأَرْضِ الْيَمَنِ وَالْأَرْضِ وَمِنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ سَبْعُ مِائَةٍ فِي بَعْضِ سِنِينَ﴾ (٧) .

(1) Streck - H . A . R. Gibb, the article "Antakiya" in "The Encyclopedia of Islam", New Edition .

(٢) راجع التفاصيل فى : Sykes, op. cit., p. 482; Vasiliev, op. cit., p. 195 .

(٣) يروى أن ستة وعشرين ألفاً من اليهود (وفى رواية أخرى : ستة وثلاثين ألفاً) انضموا إلى القائد الفارسى شهر برار فى حصاره لبيت المقدس . انظر : Stratos, op. cit., p. 108; Sykes, Loc. cit .

(4) Vasiliev, Loc . cit.; Sykes, Loc. cit .

(5) Vasiliev, op . cit., p. 196 .

(6) Idem .

(٧) سورة الروم : ١ - ٤ .

ولم يستطع هرقل أن يتخذ خطوة حاسمة ضد الفرس إلا في ربيع عام ٦٢٢م، وهو العام الذي شهد هجرة محمد ﷺ من مكة إلى المدينة . فبعد أن جند هرقل أعداداً هائلة من المحاربين وأعدّهم إعداداً جيداً للقتال قاد فيما بين عام ٦٢٢ و ٦٢٨م عدة حملات مظفرة ضد الفرس ، استطاع في أولها أن يطردهم من آسيا الصغرى وأن يهزم قائدهم شهر برار Shahr - Baraz هزيمة منكرة ، ثم استطاع في حملة أخرى أن يسترد بلاد الجزيرة ، وكان الفرس قد استولوا عليها أثناء حكم فوكاس ، وألحق هزيمة ثانية بالقائد «شهر برار» . أما حملته الأخيرة والحاسمة فقد كانت في ١٢ من ديسمبر سنة ٦٢٧م واستطاع خلالها أن يسحق قوات الفرس في معركة «نينوى» Nineveh بالقرب من مدينة الموصل الحالية بالعراق ، وأن يزحف إلى الولايات الفارسية نفسها ويعود محملاً بنفيس الغنائم (١) .

وقد حدث من التطورات الداخلية في فارس في تلك الأثناء ما عجل بخضوعها الكامل لإرادة هرقل . فقد ثار على «خسرو برويز» ابنه «قباد شيرويه» Kawad Sheroe ، المعروف بقباد الثاني ، وخلعه ، وتولى مكانه في الخامس والعشرين من فبراير سنة ٦٢٨م . وبعد ذلك بعدة أيام مات «خسرو برويز» في ظروف غامضة . وأيقن «شيرويه» أنه لا جدوى من مواصلة سياسة أبيه ، فأرسل إلى هرقل يستعطفه ويعرض عليه الصلح ، فأجابه هرقل إلى طلبه بشرط أن يتخلى عن كل ما استولى عليه الفرس من الأراضي البيزنطية وأن يطلق سراح جميع الأسرى البيزنطيين وأن يدفع غرامة حربية وأن يرد جميع ما أخذه من نفائس كنائس بيت المقدس بما في ذلك الصليب المقدس ، فلم يجد شيرويه بدا من الإذعان لشروط هرقل ، وتم توقيع الصلح في ربيع سنة ٦٢٨م (٢) .

(١) لمزيد من التوسع ارجع إلى :

Sykes, op. cit; pp. 483 - 486; Vasiliev, op. cit; pp. 197 - 198 ; Ostrogorsky, op. cit., pp. 100 - 103 .

وانظر أيضاً : الدولة البيزنطية للدكتور السيد البار العربي ، ص ١٢٧ .

(٢) الامبراطورية البيزنطية ، تأليف أومان ، ص ١٠٧ ، ١٠٨ . ولمزيد من التفاصيل راجع : =

وهكذا عاد هرقل إلى القسطنطينية بين مظاهر البهجة ومواكب النصر بعد ست سنوات قضائها في ميدان القتال ^(١) وفي ربيع سنة ٦٣٠م توجه إلى بيت المقدس حيث أعاد «الصليب المقدس» الذي استرده من الفرس ، إلى مكانه في احتفال مهيب أقيم في الحادى والعشرين من مارس سنة ٦٣٠م ^(٢) . وبهذه النهاية المظفرة أسدل الستار على تلك الحرب الضروس التى بدأت فى سنة ٦٠٢م وكادت تعصف بكيان الامبراطورية البيزنطية .

وقد كانت فتوح هرقل هذه من العظمة بحيث يقارنها بعض المؤرخين بفتوحات الإسكندر الأكبر ^(٣) . وكان يبدو للعالم كله فى ذلك الوقت أن بيزنطة قد تربعت على عرش القوة والسيادة . وقد أرسل عاهل الهند مهثاً هرقل ، كما أرسل ملك الفرنج «داجو بيرت» يطلب عقد سلام دائم مع امبراطورية الروم ^(٤) . ولكن القدر كان يخفى لهرقل مفاجأة من نوع آخر ؛ فبعد حوالى عامين من إحراز نصره النهائى على الفرس فى معركة «نينوى» انطلقت الشرارة الأولى فى المواجهة الإسلامية البيزنطية عند مؤتة (سبتمبر سنة ٦٢٩م) ؛ وبدأت بذلك مرحلة جديدة ومتميزة فى التاريخ البيزنطى .

A. N. Stratos, Byzantium in the Seventh Century, vol . I, pp. 226 - 230 =

(١) الدولة البيزنطية ، للدكتور السيد العرنى ، ص ١٢٨ .

(2) Ostrogorsk, History of the Byzantine State, p. 104 .

(3) Vasiliev , History of the Byzantine Empire , p. 197 .

(4) Ibid; p. 199. See also, Stratos, op. cit ; pp. 308 - 309 .

الفصل الأول

علاقة عرب الشام والحجاز بالبيزنطيين قبل ظهور الإسلام

بدأت العلاقة بين العرب والبيزنطيين قبل ظهور الإسلام بعدة قرون . وهذا طبيعى ؛ فقد كانت حدود الجزيرة العربية تتاخم أقاليم الدولة البيزنطية فى الشام وبلاد الجزيرة ، كما أن مصر نفسها - رغم بعدها النسبى - لم تكن بمنأى عن تلك العلاقة .

وقد كان الطرف البيزنطى فى الغالب يمثل العنصر الفاعل فى هذا الاحتكاك ، سواء على المستوى السياسى أم الاقتصادى أم الدينى ... إلى آخره . وليس ذلك بمستغرب ؛ فقد كانت الامبراطورية البيزنطية فى ذلك الوقت تمثل أعظم القوى فى العالم كله ، لا نستثنى من ذلك قوة الفرس التى كانت تنافسها فى العظمة ، وربما تفوقت عليها فى أحيان قليلة . ومن هنا كان التأثير البيزنطى على العرب أكثر وضوحاً وتأكيذاً من التأثير الفارسى .

وقد أثّرنا أن نقصر حديثنا فى هذا الفصل على علاقة عرب الشام والحجاز بالبيزنطيين دون أن نتعدى ذلك إلى الحديث عن عرب اليمن والعراق والجزيرة لأن علاقة الأولين بالبيزنطيين قبل الإسلام كانت لها انعكاساتها الواضحة على مجرى العلاقة بين المسلمين والبيزنطيين فى عصر الرسول ﷺ .

أولاً : علاقة عرب الشام بالبيزنطيين :

كان من عادة البدو فى شبه الجزيرة العربية - وبالأخص فى المناطق المتاخمة لحدود الامبراطوريتين البيزنطية والفارسية - أن يقوموا بغارات سريعة على الحدود لم يكن هدفها الغزو والتوسع بل مجرد النهب والسلب . وقد كانت هذه الغارات

أشبهه شيء بحرب العصابات أو حرب عمادها الكروالفر ؛ وهو جانب لم تكن الامبراطوريتان العظميان على خبرة كبيرة فيه . وهكذا وجد البيزنطيون والفرس أن خير وسيلة لحماية حدودهما من تلك الغارات هي اصطناع بعض القبائل العربية وتوطينها في أراضى الامبراطوريتين وإسناد مهمة الدفاع عن الحدود إلى تلك القبائل التى عرفت كيف تتعامل مع هؤلاء البدو وتضع حدا لهجماتهم . ويضاف إلى ذلك أن الصراع المزمع بين البيزنطيين والفرس أغرى كل طرف بالاستعانة ببعض العناصر العربية تعزيزاً لموقفه ضد الطرف الآخر .

ولا شك أن أبرز من استعان بهم البيزنطيون من عرب الشام - تحقيقاً لتلك الأهداف - هما الضجاعة والغساسنة .

(أ) الضجاعة والبيزنطيون :

كان الضجاعة - كما يرى معظم المؤرخين - أول من عمل فى خدمة البيزنطيين من القبائل العربية (١) . والضجاعة (أو الضجاعم) عرب من قبيلة سليح التى تُعدُّ فرعاً من قضاة ، إحدى القبائل اليمنية المشهورة (٢) وقد هاجر الضجاعة من اليمن إلى الشام فى وقت مبكر لا تحدده المصادر واستقروا فى إقليم حوران (٣) . ويرى بعض المؤرخين المحدثين أن تلك الهجرة حدثت فى حدود عام ٢٣٠ م (٤) . ومن هنا يمكن القول إن وجود الضجاعة بالشام سبق الوجود البيزنطى نفسه .

والواضح أن الضجاعة اتصلوا بالرومان وتعاونوا معهم فى صد غارات البدو وفى الحرب ضد الفرس . ولا يمكن التسليم بما يرويه بعض المؤرخين ، مثل ابن

(١) انظر مثلاً : كتاب المحبر لابن حبيب ، ص ٣٧٠ ؛ ومعجم البلدان لياقوت ، ج ٢ ، ص ٢٩٦ ؛ والمختصر فى أخبار البشر لآبى الفدا ، ج ١ ، ص ٧٢ . وانظر أيضاً :

Hitti, History of Syria, p. 401 .

(٢) ويتنسب الضجاعة إلى ضجعم بن سعد بن سليح . انظر : جمهرة أنساب العرب لابن حزم ، ص ٤٥٠ .

(3) Hitti, Loc . cit .

(4) De Lacy O' Leary, Arabia before Muhammad, p. 162 .

قتيبة والمسعودى وغيرهما ، من أن الرومان ملَّكوا هؤلاء العرب الأوائل على من سواهم من عرب الشام بعد أن دخلوا فى النصرانية (١) ؛ لسبب بسيط هو أن الدولة الرومانية ذاتها فى ذلك الوقت لم تكن قد دخلت فى النصرانية (٢) .

وقد كان من الطبيعى أن يستمر الضجاعة فى أداء نفس الخدمات للدولة البيزنطية وريثة الدولة الرومانية ؛ بل إن حاجة هؤلاء إليهم قد أصبحت بكل تأكيد أكثر إلحاحا نتيجة ازدياد غارات البدو واشتداد الصراع على الجبهة الفارسية .

ولا نجد فى مصادرنا تحقيقاً وافياً عن تاريخ الضجاعة أو تفاصيل العلاقة بينهم وبين الرومان ثم البيزنطيين ، بل إن ما تقدمه لنا المصادر فى هذا الشأن يبدو مضطرباً إلى حد كبير . فيذكر ابن قتيبة مثلاً أن أول من دخل الشام من العرب سليح (الذين ينتمى إليهم الضجاعة) فملَّك عليهم ملك الروم رجلاً منهم يقال له نعمان بن عمرو بن مالك (٣) ؛ على حين يذكر المسعودى أن تنوخ من قضاة كانوا أول من نزل الشام من العرب وتحالفوا مع ملوك الروم فملَّكهم بالشام ، وكان أول من ملك منهم نعمان بن عمرو بن مالك . ثم يضيف المسعودى أن قبيلة سليح وردت الشام بعد ذلك فغلبت على تنوخ « فملَّكتها الروم على العرب لذين بالشام » (٤) . ولعل مدى الاضطراب واضح فى هاتين الروايتين ؛ فالنعمان بن عمرو بن مالك عند ابن قتيبة هو أول ملوك سليح (أو الضجاعة) ، فى حين أنه هو نفسه عند المسعودى أول ملوك تنوخ الذين أزالتهم سليح بعد ذلك عن مُلك لشام .

والذى نظمثن إليه - من خلال تضارب المصادر - أن الضجاعة بطن من سليح

(١) المعارف لابن قتيبة ، ص ٦٤٠ ؛ ومروج الذهب للمسعودى ، ج ٢ ، ص ١٠٦ ؛ والبدء والتاريخ للمقدسى ، ج ٣ ، ص ٢٠٨ .

(٢) راجع : De Lacy O' Leary, loc . cit .

(٣) المعارف لابن قتيبة ، ص ٦٤٠ ؛ والبدء والتاريخ للمقدسى ، ج ٣ ، ص ٢٠٨ .

(٤) مروج الذهب للمسعودى . ج ٢ ، ص ١٠٦ .

التي تنتمي إلى قبيلة قضاة اليمنية ، وكانوا أول من نزل الشام من العرب وتحالفوا مع الرومان ثم البيزنطيين . وأثناء اتصالهم بالرومان لم تكن المسيحية قد ظهرت بينهم لأن المسيحية لم تبدأ في الانتشار بين عرب الشام إلا في غضون القرن الرابع الميلادي (١) .

(ب) الغساسنة والبيزنطيون :

وعندما ضعف «الضجاعة» بالشام حل محلهم الغساسنة أو بنو غسان ، الذين يعرفون أيضاً ببني جفنة ، ولعبوا نفس الدور الذي لعبه الضجاعة مع البيزنطيين . ويتنمى الغساسنة إلى قبيلة الأزدي اليمنية ؛ فهم بنو مازن بن الأزدي الذي ينتهي نسبه إلى كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان . أمّا غسان الذي ينسبون إليه فهو - كما تذكر معظم مصادرها - اسم ماء نزلوا به في اليمن أو في الشام وشربوا منه فعرفوا به (٢) . ولا نعرف على وجه القطع تاريخ هجرة الغساسنة من اليمن إلى الشام ؛ وإن كانت مصادرها تربط عادة بين هذه الهجرة وبين انهيار سد مأرب باليمن . ولما كان التاريخ الدقيق لانهيار سد مأرب غير معروف فإن تاريخ هجرة الغساسنة إلى الشام غير معروف كذلك (٣) . ويرجح بعض المؤرخين المحدثين أن

(١) حول انتشار المسيحية بين عرب الشام ارجع إلى :

De Lacy O' Leary, Arabia before Muhammad, pp. 163 - 164 .

(٢) مروج الذهب للمسعودي ، ج ٢ ، ص ١٠٦ ؛ والمختصر في أخبار البشر لأبي الفدا ، ج ١ ، ص ٧٢ . والمعروف أن قبيلة كهلان بن سبأ التي ينتمي إليها الأزد هي إحدى القبيلتين المشهورتين من قبائل يعرب ابن قحطان اليمنية ؛ والأخرى هي حمير . ومن أشهر بطون الأزد - بالإضافة إلى بني غسان - الأوس والخزرج الذين عرفوا في الإسلام باسم «الأنصار» . ويفهم من كلام المسعودي (مروج ، ج ٢ ، ص ١٩١) أن الأوس والخزرج داخلان في غسان . انظر أيضاً : معجم البلدان لياقوت ج ٤ ، ص ٢٠٣ . وإلى هذا يشير حسان بن ثابت بقوله :

إِذَا سَأَلْتَ لَنَا مَعَشَرَ نُجُبٍ
الْأَزْدِ نَسَبَتَا وَالْمَاءِ غَسَانَ

انظر : العقد الفريد لابن عبد ربه ، ج ٣ ، ص ٣٠٠ . ولكن المشهور على كل حال أن الغساسنة يراد بهم بنو مازن بن الأزدي دون غيرهم .

(٣) راجع : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي ، ج ٣ ، ص ٣٨٧ - ٣٨٨ .

هذه الهجرة بدأت فى حدود عام ٢٥٠ م (١) .

وقد ظل الغساسنة زمنا فى الشام يخضعون للضجاعة ويدفعون لهم الإتاوة التى كان هؤلاء يجلبونها للرومان ثم البيزنطيين . فلما قويت شوكة الغساسنة رفضوا الإذعان للضجاعة ، وحدث بين الجانبين صراع للقوى كانت الغلبة فيه للغساسنة ، فأخرجوا الضجاعة من الشام ، ودان لهم العرب المقيمون هناك ، فعقد معهم البيزنطيون حلفا قام مقام حلفهم مع الضجاعة (٢) .

ويكتنف الغموض التاريخ المبكر للغساسنة وتضطرب مصادرنا بهذا الشأن . فنحن لا نعرف على وجه اليقين من هو أول ملوك الغساسنة ولا التاريخ الذى حكم فيه ؛ فنجد حمزة الأصفهاني مثلاً يذكر أنه جفنة بن عمرو مزيقيا بن عامر ابن ماء السماء (٣) ، فى حين أن ابن حبيب يسميه ثعلبة بن عمرو بن المجالد (٤) . أما عند ابن قتيبة والمسعودى فهو الحارث بن عمرو (٥) ؛ ولكن المسعودى يذكر نسبه كاملاً (٦) ، بينما يسميه ابن قتيبة الحارث بن عمرو بن محرق ويلقبه بالحارث الأكبر .

ومن جهة أخرى يذكر أبو الفدا أن ابتداء ملك الغساسنة كان قبل الإسلام بأكثر من أربعمئة سنة (٧) ، ولكن حمزة الأصفهاني يذكر أن الغساسنة استمروا فى ملكهم ستمائة وست عشرة سنة (٨) .

(1) J. Glubb, The Life and Times of Muhammad, pp. 46 - 48; cf., Hitti , History of the Arabs, p. 78 .

(٢) كتاب المحبر لابن حبيب ، ص ٣٧١ .

(٣) تاريخ سنن ملوك الأرض والأنبياء ، ص ٩٠ .

(٤) كتاب المحبر ، ص ٣٧١ . وانظر أيضاً : تاريخ ابن خلدون ، ج ٢ ، ص ٣٢٤ .

(٥) المعارف لابن قتيبة ، ص ٦٤٢ ؛ ومروج الذهب للمسعودى ، ج ٢ ، ص ١٠٧ .

(٦) وهو الحارث بن عمرو بن عامر بن حارثة بن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن - وهو غسان - بن الأزدي ابن الغوث .

(٧) المختصر فى أخبار البشر ، ج ١ ، ص ٧٢ .

(٨) تاريخ سنن ملوك الأرض والأنبياء ، ص ٩٦ . وانظر أيضاً : العقد الفريد لابن عبد ربه ، ج ٣ ، ص ٣٠٣ . وهذا يعنى أن ابتداء ملك الغساسنة كان قبل الإسلام بحوالى ستة قرون ؛ وهى رواية لا تبدو منسجمة مع ما يقرره الباحثون بخصوص وراثة الغساسنة للضجاعة .

وتختلف مصادرنا اختلافاً أشد في إحصاء عدد ملوك الغساسنة ؛ فهم عند ابن عبد ربه سبعة وثلاثون ملكاً (١) ، وعند حمزة الأصفهاني اثنان وثلاثون (٢) ، وعند أبي الفدا واحد وثلاثون (٣) ، وعند ابن قتيبة والمسعودي أحد عشر ملكاً (٤) .

ولعل السبب في هذا الخلاف - كما يذكر جرجي زيدان - يرجع إلى أن الغساسنة كان يتعاصر بينهم أحياناً أميران أو أكثر ، كل أمير يتولى فرعاً من القبيلة (٥) ، فكان بعض المؤرخين يأخذ في الاعتبار كل هؤلاء الأمراء ، وكان بعضهم لا يعدُّ إلا أوسعهم سلطة أو من خلع عليه البيزنطيون لقب الملك .

ورغم اختلاف مصادرنا وتضاربها فيما يتصل بالتاريخ المبكر للغساسنة ومدة حكمهم وعدد ملوكهم فإنها تجمع على أنهم هاجروا من اليمن إلى الشام في وقت لاحق لانتهاء سد مأرب وأنهم خضعوا في البداية لسلطان الضجاعة من قبيلة سليح ، الذين كانوا يمثلون التحالف العربي مع الروم في الشام ، ثم استطاع الغساسنة أن يبتزوا السلطة من الضجاعة وأن يحلوا محلهم في قيادة التحالف العربي مع الروم .

وقد قام التحالف بين الغساسنة والبيزنطيين في البداية على أساس أن يمد البيزنطيون الغساسنة بأربعين ألف مقاتل إن تعرضوا لهجوم من العرب خارج الشام ؛ وأن يمد الغساسنة البيزنطيين بعشرين ألف مقاتل إن تعرضوا لهجوم مماثل من العرب ، على ألا يتدخل الغساسنة في الصراع الدائر بين البيزنطيين والفرس (٦) . والواضح أن هذا التحالف تطور فيما بعد بحيث أصبح الغساسنة يضطلعون بمسئولية الدفاع المباشر عن الحدود السورية ضد أي هجوم عربي ، كما

(١) العقد الفريد ، ج ٣ ، ص ٣٠٣ .

(٢) تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء ، ص ٩٦ .

(٣) المختصر في أخبار البشر ، ج ١ ، ص ٧٢ - ٧٣ .

(٤) المعارف لابن قتيبة ، ص ٦٤٢ - ٦٤٤ ؛ ومروج الذهب للمسعودي ، ج ٢ ، ص ١٠٩ .

(٥) انظر حول ذلك : العرب قبل الإسلام لجرجي زيدان ، ص ٢١٢ .

(٦) كتاب المحبر لابن حبيب ، ص ٣٧١ ؛ وتاريخ ابن خلدون ، ج ٢ ، ص ٣٢٤ .

أصبحوا يشتركون اشتراكاً فعلياً مع البيزنطيين في حروبهم ضد فارس ، بل إنهم كانوا يتولون أحياناً - نيابة عن البيزنطيين - مهمة تأديب اللخمين أحلاف الفرس في العراق (١) .

وقد اعتنق الغساسنة المسيحية في غضون القرن الرابع الميلادي وقاموا بدور ملحوظ في نشرها بين العرب ، وخصوصاً في إقليم الشام ومدينة نجران باليمن (٢) ولكن الملاحظ أن المسيحية التي اعتنقها الغساسنة كانت على المذهب المونوفيزيتي Monophysitism (اليعقوبي فيما بعد) المخالف للمذهب الأرثوذكسي أو الديوفيزيتي Dyophysitism وهو المذهب الرسمي للإمبراطورية البيزنطية (٣) . وقد كان ذلك سبباً من أسباب التوتر الذي شاب العلاقة بين البيزنطيين والغساسنة فيما بعد ، وبالأخص خلال القرن السادس الميلادي ، كما سنوضح ذلك في موضعه .

ولم يكن للغساسنة موطن ثابت بالشام بل كان لهم معسكر متنقل . ومع ذلك فقد ارتبط اسمهم بعدد من الأماكن لعل أبرزها إقليم حوران وعاصمته بصرى ، وإقليم الجولان وعاصمته الجابية . كما أقاموا بالبقاء واليرموك ، ومنهم من نزل لبنان وفلسطين . وقد مثلت بصرى أهم مركز ديني للغساسنة ، بينما مثلت الجابية أهم مركز سياسي لهم ، كما كان لمدينة جلق جنوبي حوران دور سياسي ملحوظ

(١) راجع : الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم للدكتور إبراهيم أحمد العدوي ، ص ٢٠ .
(2) Irfan Shahid, in his article "Ghassan", in " The Encyclopedia of Islam ", New Edition . See also, Hitti, History of Syria, p. 401 .

(٣) تقوم العقيدة المونوفيزيتية في المسيحية على أساس أن عيسى عليه السلام ذو طبيعة واحدة هي الطبيعة الإلهية . أما طبيعته البشرية فقد تلاشت تماماً في طبيعته الإلهية . والمصطلح في أصله اليوناني يتكون من جزأين هما : (mono) بمعنى الواحد ؛ و (physis) بمعنى الطبيعة ، فمعنى المصطلح - إذن - الإيمان بمبدأ الطبيعة الواحدة . أما العقيدة الأرثوذكسية أو الديوفيزيتية فهي تقوم على أساس أن عيسى عليه السلام ذو طبيعتين لا تخلط بينهما ولا تغير فيهما ولا انقسام ؛ فهو إله كامل وإنسان كامل ، أي أنه متحد مع الله في جوهر الألوهية ، ومتحد معنا في جوهر الإنسانية . فكلمة «الديوفيزيتية» تتكون من جزأين هما : (Dyo) بمعنى «مزدوج» ؛ و (physis) بمعنى «طبيعة» . راجع :
G. Krüger, "Monophysitism", in " Encyclopedia of Religion and Ethics " , vol . 8, pp. 812 - 813; Johnson , A History of Christianity, p. 92 .

فى تاريخ الغساسنة (١) .

وقد كان نفوذ الغساسنة يتزايد بمرور الوقت ، كما كان نطاق العلاقات بينهم وبين البيزنطيين يتسع تدريجيا وتتعدد الخدمات التى يقدمونها لهم ، وكان تاريخهم أيضاً يزداد وضوحاً وتحديداً . ومن الممكن القول إن نفوذ هذه الأسرة بلغ ذروته فى غضون القرن السادس الميلادى ، وخاصة خلال إمارة الحارث بن جبلة الذى حكم من حوالى سنة ٥٢٩ إلى ٥٦٩م واتخذ من الجابية مقراً له . وهذا الحارث ، الذى يلقب بالأعرج ويعرف أيضاً بالحارث بن أبى شَمِر أو الحارث الرابع ، كان معاصراً للإمبراطور البيزنطى جستينيان الأول (٥٢٧ - ٥٦٥م) الذى أنزل الحارث بأرفع مكان حيث عينه والياً على كل القبائل العربية بالشام ، ومن هنا خلع عليه لقب : فيلارق Phylarch ، الذى يعنى رئيس الأسباط أو شيخ القبائل ، كما أنعم عليه برتبة البطريرق Patricius التى كانت تالية لرتبة الامبراطور (٢) .

إن أهمية المنصب الذى تقلده الحارث تتجلى بوضوح إذا وضعنا فى الاعتبار تزايد عدد القبائل التى كانت قد استقرت بالشام حينذاك . وقد كان الحارث مسئولاً عن الإشراف على هذه القبائل وتنسيق جهودها وتوجيه خدماتها لصالح البيزنطيين . والملاحظ أن معظم هذه القبائل كان ينتمى لعرب اليمن (القحطانيين) الذين ينتمى إليهم الغساسنة . فقد اتخذت الشام موطناً فى ذلك الوقت فروعاً من

(١) تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء لحمزة الأصفهاني ، ص ٩٠ وما بعدها ؛ معجم البلدان لياقوت ، ج١ ، ص ٤٤١ ؛ مروج الذهب للمسعودى ج ٢ ، ص ١٠٩ ؛ المختصر فى أخبار البشر لأبى الفدا ، ج ١ ، ص ٧٢ ، خطط الشام لمحمد كرد على ، ج ١ ، ص ٦٦ . وانظر أيضاً :

Hitti, History of Syria, p. 403 .

(٢) أمراء غسان لنولدكه ، ص ١٢ وما بعدها ؛ خطط الشام لمحمد كرد على ، ج ١ ، ص ٦٧ ؛ المفضل فى تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ، ج ٣ ، ص ٤٠٦ - ٤٠٧ . وانظر أيضاً :

Hitti, History of Syria, p. 402; and the same's History of the Arabs, p. 79 .

ويرى نولدكه فى المصدر السابق أن ما يزعمه مؤرخو العرب وبعض مؤرخى اليونان مثل بروكوبيوس Procopius من أن جستينيان منح الحارث لقب ملك أو Basilius غير صحيح لأن هذا اللقب كان خاصاً بالقيصرية دون سواهم :

قبائل لحْم وجُذَام وكلب وجُهيْنة والقَيْن وبهراء وبلىّ وتنوخ وسليح وعاملة وغيرها من قبائل اليمن . كما عاشت هناك - على نطاق أضيق - فروع من بعض القبائل العدنانية وبالأخص ذبيان (١) وقد استقرت هذه القبائل في مواطن مختلفة اشتهرت بها في الشام مثل أذرح ووادي القرى ودومة الجندل ومقنا ومعان وحماة وشيزر وغير ذلك من الأماكن (٢) وسوف يلعب الكثير من هذه القبائل دوراً بارزاً في المواجهة بين المسلمين والبيزنطيين في عصر الرسول ﷺ .

هكذا قام الحارث بن جبلة بدور أساسي في قيادة التحالف العربي مع البيزنطيين في الشام فاستحق التكريم الذي خصه به البيزنطيون . وقد كان من أكبر الخدمات التي أداها الحارث لبيزنطة إلحاقه الهزيمة بالمنذر الثالث بن ماء السماء ملك الحيرة اللخمي وحليف الفرس في سنة ٥٤٤ م ، ثم هزيمته للمنذر مرة أخرى والقضاء عليه في سنة ٥٥٤ م في المعركة التي يرى البعض أنها «يوم حليلة» في مصادرنا العربية (٣) كما استطاع الحارث أن يضبط زمام الأمور في إقليم الشام خلال انشغال جستنيان بحروبه الاستردادية وأن يقوّى دفاعات الشام ضد هجمات اللخمين والفرس (٤) .

(١) حول الوجود العربي في الشام قبل الإسلام ارجع إلى : خبط الشام لمحمد كرد علي ، ج ١ ، ص ٢٤ وما بعدها . وانظر أيضاً :

De Lacy O' Leary, Arabia before Muhammad, p. 162 f .

(٢) من بين الأماكن الأخرى المشهورة : حمص ودمشق وجرباء وتيماء وتدمر .

(3) Hitti, History of the Arabs, p. 79; Trimmingham, Christianity among the Arabs in Pre - Islamic Times, p. 185; Irfan Shahid, "Ghassan", in "The Encyclopedia of Islam", New Edition .

وانظر أيضاً : الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم للدكتور إبراهيم العدوي ، ص ٢٠ . وحليمة المشار إليها هنا هي بنت الحارث بن جبلة ؛ وقد وعد الحارث بتزويجها لمن يقتل ملك الحيرة وأعطاهما طيباً وأمرها أن تطيب من مرّ بها من جنده . وفي يوم حليلة ورد المثل : « ما يوم حليلة بسر » . لمزيد من التفاصيل ارجع إلى : أيام العرب في الجاهلية لمحمد أحمد جاد المولى وزميله ، ص ٥٤ وما بعدها .

(٤) أمراء غسان لنولدكه ، ص ٢٠ ، والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي ، ج ٣ ، ص ٤٠٧ - ٤٠٨ .

فليس من المستغرب - إذن - أن يُسبغ الامبراطور جستنيان على الحارث كل مظاهر الخفاوة والتكريم عندما زار الأخير القسطنطينية في سنة ٥٦٣ م^(١) ؛ وكان من بين مظاهر هذا التكريم إصدار الامبراطور أمرا بتعيين يعقوب البراذعي (مطران الرها) مطرانا للكنيسة المونوفيزيتية في سوريا ؛ وهي الكنيسة التي كان ينتمى إليها الغساسنة ومسيحيو العرب في الشام بصفة عامة . وقد أصدر الامبراطور هذا الأمر نزولا على رغبة الحارث . ومنذ ذلك الحين اكتسبت الكنيسة السورية لقب الكنيسة اليعقوبية وحمل أتباعها لقب «اليعاقبة»^(٢) .

وقد كان الحارث بن جبلة يقوم أحيانا بمهمة السفارة بين العرب المقيمين خارج الشام وبين الامبراطور البيزنطي . وكان العرب في أنحاء الجزيرة العربية يعرفون له مكانته تلك ويطلبون وساطته في جلائل الأمور . يروى المؤرخون بهذا الصدد أن امرأ القيس - أمير شعراء الجاهلية - طلب من الحارث بن جبلة أن يساعده في الوصول إلى بلاط جستنيان ليستعين به ضد أعدائه من بني أسد الذين قتلوا أباه حُجر بن الحارث ملك كندة بمنطقة نجد . وقد استجاب جستنيان لوساطة الحارث فدعا امرأ القيس إلى القسطنطينية في حدود عام ٥٣٠ م وأمدّه بجيش كثيف ليدرك به ثأره ويسترد ملك أبيه ، ولكن امرأ القيس توفي بأنقرة - أثناء عودته - دون أن يبلغ هدفه^(٣) . وإلى بعض هذا يشير في قوله في إحدى قصائده المشهورة :

(١) أمراء غسان لتولدك ص ١٨ .

(2) Trimmingham, Christianity among the Arabs in pre - Islamic Times, p. 183; Hitti, History of Syria , p. 402 .

(٣) لمزيد من التفاصيل انظر : Hitti, History of the Arabs, p. 85 . وانظر أيضاً : أيام العرب في الجاهلية لمحمد أحمد جاد المولى وزميله ، ص ١٢٢ ، ومادة «امرؤ القيس» في دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة العربية) ، بقلم إيوار Huart .

ولو شاء كان الغزو من أرض حمير ولكنه عَمداً إلى الروم أنقرا
بكى صاحبي لما رأى الدربَ دونه وأيقن أنا لاحقان بقيصرا
فقلت له : لا تبك عينك ! إنما نحاول ملكا أو نموت فنعدرا^(١)

وبعد وفاة الحارث بن جبلة في سنة ٥٦٩م تولى ابنه المنذر إمارة الغساسنة حتى سنة ٥٨١م^(٢) . وقد شهد حكم المنذر مولد محمد ﷺ في سنة ٥٧٠م (أو ٥٧١م) . ولم تكن العلاقات بين البيزنطيين والغساسنة خلال حكم المنذر بنفس المستوى الذي كانت عليه من الود والمثانة خلال حكم أبيه الحارث . وقد عاصر المنذر حكم اثنين من الأباطرة البيزنطيين هما جستين الثاني (٥٦٥ - ٥٧٨م) وطيباريوس (٥٧٨ - ٥٨٢م) . وقد كان البون شاسعا بين جستين الثاني وسلفه جستينيان الأول في بعد النظرة وحسن السياسة . فرغم أن كلا الرجلين كان من أنصار الأرثوذكسية وقرارات مجمع خلقيدونية^(٣) فإن جستين الثاني لم يعرف هوادة في مطاردة المخالفين وشن حملة اضطهاد ضدهم . ونتيجة لذلك تعرض المونوفيزيتيون أو اليعاقبة في سوريا لإجراءات قمعية شديدة . ولما كان الغساسنة

(١) ديوان امرئ القيس بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (طبعة دار المعارف) ، ص ٦٥ - ٦٦ . والشاعر في البيت الأول يقيم العذر لنفسه في استعانته بملك الروم على بنى أسد دون أن يغزوهم بقومه من اليمن «أرض حمير» ؛ فهو يريد أن يشنع عليهم ويبين شرفه وفضله لمشاركة ملك الروم له . والمقصود بالدرب في البيت الثاني هو درب طرسوس المؤدى إلى بلاد الروم ، وصاحبه هو عمرو بن قميصة الشكري الشاعر الذي رافق امرأ القيس في رحلته تلك . نفس المصدر ، هامش ٣٣ و ٣٤ من ص ٦٥ .
(2) De Lacy O' Leary, Arabia before Muhammad, p. 165 f.

(٣) عقد مجمع خلقيدونية (The Council of Chalcedon) في مدينة خلقيدونية بالقرب من القسطنطينية في سنة ٤٥١م . وقد أدان هذا المجمع العقيدة المونوفيزيتية وأكد أن المسيح عليه السلام إله كامل وإنسان كامل ، أى أن له طبيعتين لا خلط بينهما ولا تغير فيهما ولا انقسام . وقد أصبحت قرارات هذا المجمع فيما بعد هي الأساس الذي تعتمد عليه كل التعاليم الدينية للكنيسة الأرثوذكسية . راجع حول ذلك :

Vasiliev, History of the Byzantine Empire, p. 105; Johnson, A History of Christianity, p. 92; H. Grégoire, in his article " The Byzantine Church ", published in " Byzantium ", ed . by Baynes and Moss , p. 99 .

هم أكبر أنصار المذهب اليعقوبى وأخلص المدافعين عنه فقد شملتهم لعنة الاضطهاد الدينى فى بيزنطة على يد الامبراطور جستين . ولم ينجُ الأمير الغسانى المنذر بن الحارث من هذه اللعنة ، بل ولم يشفع له عند الامبراطور ما أداه له من خدمة جليلة حين سحق الهجوم الشرس الذى شنّه ملك الحيرة اللخمى قابوس بن المنذر على الحدود السورية فى سنة ٥٧٠م^(١) . لقد حاول جستين الثانى التخلص من المنذر بتدبير مؤامرة لاغتياله كان مصيرها الفشل وكان من أخطر نتائجها إعلان الغساسنة الثورة على البيزنطيين . ولكن استئناف الهجوم الفارسى على الحدود البيزنطية فى أواخر حكم الامبراطور الفارسى كسرى أنوشروان جعل البيزنطيين يستميلون الغساسنة ويخطبون ودهم ليضمنوا عونهم فى ذلك الصراع . وعندما توفى جستين الثانى فى سنة ٥٧٨م حاول خلفه « طيباريوس » أن يكسب ولاء الغساسنة تلبية لمتطلبات الصراع ضد الفرس . وفى عهد هذا الامبراطور زار المنذر ابن الحارث القسطنطينية (فى حوالى سنة ٥٨٠م) بصحبة اثنين من أبنائه، فاستقبله طيباريوس بكل مظاهر الحفاوة وألبسه التاج تكريماً له، واعترف به ملكاً على العرب كما فعل جستينيان مع الحارث الرابع . ولكن طيباريوس لم يلبث أن شك فى ولاء المنذر بعد عودته إلى الشام، متهما إياه بالتفاهم مع الفرس، فدبر مؤامرة للقبض على المنذر ونفذها بنجاح فى حفل افتتاح إحدى الكنائس فى حواريين (بين دمشق وتدمر) فى سنة ٥٨١م ، ونُحِّل المنذر أسيراً إلى القسطنطينية حيث أُدين بالخيانة ونُفِى إلى صقلية . وفى نفس الوقت أصدر طيباريوس الأمر بإيقاف المعونة

(١) يرجع كثير من المؤرخين المحدثين أن هذه المعركة بين الغساسنة واللخميين هى التى تعرف فى مصادرنا العربية باسم « يوم عين أباغ » . انظر مثلاً : خطط الشام لمحمد كرد علي ، ج١ ، ص ٦٧ ؛ أمراء غسان لنولدكه ص ٢٧ وما بعدها ؛ وانظر أيضاً : De Lacy O' Leary, op. cit; p. 165 ولكن المصادر العربية بصفة عامة تشير إلى حدوثها بين الحارث بن جبلة الغسانى والمنذر بن ماء السماء اللخمى . انظر الكامل لابن الاثير ، ج١ ، ص ٥٤٠ . وانظر التفاصيل فى : أيام العرب فى الجاهلية لمحمد أحمد جاد المولى وزميليه ، ص ٥١ وما بعدها . ومهما يكن من خلاف حول اسم المعركة فإن الذى لا خلاف حوله أن المنذر بن الحارث الغسانى أنزل هزيمة ساحقة باللخميين فى عهد الامبراطور جستين الثانى .

المادية السنوية التي كانت بيزنطة تدفعها للغساسنة (١) . وقد كان لهذا التصرف الغادر صداه البعيد المدى بين عرب الشام عموماً فضلاً عن الغساسنة الذين أسخطهم ما حل بأمرهم فأعلنوا الثورة على البيزنطيين بقيادة النعمان ، أكبر أولاد المنذر بن الحارث ؛ ولكن الامبراطور موريس الذى تولى السلطة سنة ٥٨٢م تمكن بالغدر والحيلة من أسره وإرساله إلى القسطنطينية ، فى سنة ٥٨٢ أو ٥٨٣م (٢) ، وقد أعقب ذلك حالة من الفوضى والاستياء بين عرب الشام ، ففقد البيزنطيون تقريباً ما كان لهم من ولاء عربى فى هذا الإقليم . فعند ما اجتاحت الغزو الفارسى الشام فى سنة ٦١٣ - ٦١٤م لم يقدم الغساسنة ولا العرب عموماً فى الشام عوناً للبيزنطيين ضد الفرس ، ولا نجد فى مصادرها إشارة واضحة عن دورهم خلال تلك الحرب . ويمكن القول إن الغزو الفارسى للشام وجه ضربة قاسية لإمارة الغساسنة وأفقدتها مبررات استمرارها . فقد قامت هذه الإمارة - كما سبق القول - بهدف صد غارات بدو الجزيرة العربية على حدود الشام ومساعدة البيزنطيين فى حروبهم ضد الفرس . وقد قلب الغزو الفارسى كل هذه الموازين بإخضاعه بلاد الشام لحكم آل ساسان . ومع ذلك فقد ظل الغساسنة يحظون بتأييد عرب الشام رغم زوال التأييد البيزنطى الرسمى (٣) . ولكن الواضح أن هرقل - بعد أن هزم الفرس وطردهم من الشام - حاول أن يصل مرة أخرى ما انقطع بين البيزنطيين وعرب الشام بصفة عامة ، وبينهم وبين الغساسنة بصفة خاصة . فيذكر مؤرخونا

(١) ويبدو أن هذه المعونة أعيدت مرة أخرى فى عهد هرقل فى ظروف مختلفة (انظر ما يلى ، ص ٤٦) ؛ أو لعل قطع المعونة عن الغساسنة لم يعن قطع المعونة عن بقية القبائل العربية التى كانت تدور فى تلك بيزنطة فى الشام . انظر حول ذلك :

Glubb, The Great Arab Conquests , p. 125 .

(٢) لمزيد من التفاصيل حول العلاقة بين الغساسنة والبيزنطيين فى عهد المنذر بن الحارث وابنه النعمان ارجع إلى : المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ج ٣ ، ص ٤١٢ - ٤١٧ . وانظر أيضاً :

Trimingham, Christianity among the Arabs, pp. 185 - 187; Hitti, History of Syria, p. 403 f. ; De Lacy O' Leary, Arabia before Muhammad, p. 165 f.

(3) Glubb, The Life and Times of Muhammad, p. 52; Trimingham, op. cit; p. 187 .

عددا من أمراء الغساسنة بالشام ممن كانوا نُواباً لهرقل حين أرسل الرسول ﷺ كتبه إلى الملوك والأمراء^(١). على أن المؤرخ البيزنطي «ثيوفانس» يحدّثنا أن هرقل - بعد الحملة الإسلامية في مؤتة - أمر بقطع المعونة البيزنطية عن عرب الشام مما أغراهم بالانضمام إلى المسلمين فيما بعد^(٢). ولكننا نلاحظ - مع ذلك - أن جبلة بن الأيهم، آخر ملوك الغساسنة بالشام، كان في صفوف البيزنطيين في معركة اليرموك (في خلافة عمر بن الخطاب). ثم أسلم، ولكنه ارتد بعد قليل ولحق بالروم^(٣). ومن هنا يمكننا أن نستنتج أن هرقل - حتى بعد حملة مؤتة - كان حريصاً على ألا يفقد تماماً ولاء الغساسنة ومن يلوذ بهم من عرب الشام؛ فقد كان يدرك أهمية هذا الولاء في توجيه الصراع القادم بينه وبين المسلمين.

ثانياً : علاقة عرب الحجاز بالبيزنطيين :

لعل أهم ما كان يربط عرب الحجاز بالبيزنطيين هو العلاقات التجارية؛ فقد اشتهر الحجازيون - وخاصة سكان مكة - بنشاطهم التجاري. وكان أبرز ما اتجهت إليه رحلاتهم التجارية هي أقاليم الدولة البيزنطية، وفي مقدمتها إقليم الشام، وذلك في رحلة الصيف الشهيرة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم^(٤). ولا شك أن إقليم الشام كان المصدر الأول للغلال بالنسبة لعرب الحجاز. وقد أصبحت مكة مركز النشاط التجاري في منطقة الحجاز بحكم موقعها على طريق القوافل بين اليمن والشام ولوجود بئر زمزم بها^(٥) وفي البداية كانت مكة مجرد معبر لتجارة

(١) انظر مثلاً : تاريخ الطبري، ج٢، ص ٦٤٤، ٦٥٢، تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص ٧٨؛ التنبيه والإشراف للمسعودي، ص ٢٢٦ - ٢٢٧؛ جوامع السيرة لابن حزم، ص ٢٩ - ٣٠.

(2) Theophanes, Chronographia, p. 335. See also, Stratos, Byzantium in the Seventh Century, p. 314.

(٣) حول الروايات المختلفة لقصة ارتداد جبلة ولحقه بالروم راجع : المعارف لابن قتيبة، ص ٦٤٤؛ الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني، ج١٥، ص ١٦٢ - ١٦٣؛ العقد الفريد لابن عبد ربه، ج١، ص ٢٥٩ - ٢٦٠؛ المختصر في أخبار البشر لأبي الفدا، ج١، ص ١٦١ - ١٦٢.

(٤) سورة قريش : ١ - ٤.

(5) De Lacy O' Leary, Arabia before Muhammad, p. 183.

الحبشة واليمن فى طريقها إلى أقاليم الدولة البيزنطية ، ثم لم يلبث المكيون أن ضربوا بسهم وافر فى هذا النشاط التجارى ، فكانوا يترددون على الحبشة واليمن وأقاليم الدولة البيزنطية بأصناف السلع التى تنتجها هذه البقاع . وكان طريق الحجاز التجارى ينتهى إلى حدود الدولة البيزنطية عند مدينة أيلة (العقبة حالياً) ، ثم تتجه القوافل من هناك إلى مدينة غزة على البحر الأبيض المتوسط أو إلى مدينة بصرى جنوبى دمشق . وقد أتاحت مدينة غزة للتجارة العربية طريق الاتصال بتجارة البحر الأبيض المتوسط (١) . ولا شك أن هذه الصلات التجارية بين الحجاز والدولة البيزنطية أفسحت المجال للتأثير السياسى والدينى والثقافى من جانب البيزنطيين .

ولابد من الإشارة فى هذا السياق إلى أن البيزنطيين نجحوا فى السيطرة على جنوب شبه الجزيرة العربية عن طريق أحلافهم الأحباش فى سنة ٥٢٥م وذلك حين أثار اضطهاد الملك اليهودى الحميرى ذى نواس (٢) لنصارى اليمن سخط الامبراطور البيزنطى جستين الأول فاتصل بملك الحبشة المعروف باسم «ألا أصبحت» (٣) وطلب منه التدخل لإنقاذ النصارى هناك ، فاستجاب ملك الحبشة وأرسل إلى اليمن جيشاً ضخماً نجح فى هزيمة ذى نواس وقتله والقضاء على ملك الحميريين (٤) .

(1) Ibid, p. 187 .

(٢) وهو المعروف فى النصوص النصرانية باسم " Damnus " وبصيف أخرى مشابهة . راجع : المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ، ج٣ ، ص ٤٦٢ - ٤٦٣ ، ٤٦٩ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٤٦٣ .

(٤) حين بدأت المسيحية تنتشر فى اليمن - وبالأخص فى نجران - نتيجة جهود الغساسنة والأحباش ، ثم نساطرة الحيرة أيضاً (على نطاق أضيق) أحس ملوك اليمن من الحميريين بفداحة الخطر الذى يهددهم لأن انتشار المسيحية يعنى تهمة المناخ للسيطرة الحبشية أو البيزنطية على بلادهم ، فقرروا القضاء عليها باعتناقهم اليهودية باعتبارها ديناً سماوياً يمكن أن يقاوموا به ديناً سماوياً آخر . ثم أخذوا يضطهدون النصارى ، ووصل الاضطهاد ذروته على يد ذى نواس ، وهو أشهر ملوك اليمن الحميريين . وعندما علم ذو نواس باستنجد النصارى بالبيزنطيين والأحباش واستعداد هؤلاء لغزو اليمن استشاط غضباً واقتحم نجران مركز النصرانية الأساسى فى اليمن وخيّر أهلها بين تبذ النصرانية أو الموت حرقاً فاقتار =

ورغم وجود روايات أخرى في هذا الصدد (١) فإن الذى لا جدال حوله أن غزو الأحباش لليمن كان بمباركة الامبراطور البيزنطى وتأيده ، وذلك لما فى هذا المشروع من خدمة مصالح الامبراطورية البيزنطية إذ يتيح تحويل المنطقة الجنوبية من شبه الجزيرة العربية إلى منطقة نفوذ بيزنطية بدل أن تصبح نهبا لمطامع الفرس . وقد كانت الأهمية التجارية لليمن وإشرافها على باب المندب من بين الأسباب التى جعلت البيزنطيين أكثر حرصاً على السيطرة على ذلك الإقليم . والواضح أن غزو الأحباش لليمن أتاح لهم ولأسيادهم البيزنطيين السيطرة على البحر الأحمر وعلى التجارة الأفريقية والهندية (٢) .

إن ما يمكننا أن نخلص إليه هنا أن هذا النفوذ البيزنطى فى جنوب شبه الجزيرة العربية أتاح للبيزنطيين أن يتطلعوا إلى توسيع دائرته ليحاولوا الوصول به إلى شمال شبه الجزيرة . وقد كانت مكة مركز الثقل فى هذا الإقليم أو «أم القرى» كما وصفها القرآن الكريم (٣) . ومن هنا حاول البيزنطيون السيطرة على مكة حين شجعوا أحلافهم الأحباش على غزوها وعلى محاولة هدم الكعبة لما تمثله من ثقل دنى وسياسى واقتصادى فى شمال شبه الجزيرة بل فى شبه الجزيرة كلها . وهكذا يمكننا القول إن السيطرة على مكة كانت تعنى تحويل شبه الجزيرة العربية كلها إلى منطقة نفوذ سياسى واقتصادى للدولة البيزنطية وحليفاتها دولة الحبشة وإلى السيطرة

= الكثيرون منهم الموت . ويقال إنه أهلك من أهلها حوالى عشرين ألفاً ؛ فهم أصحاب الأخدود الذين ورد ذكرهم فى القرآن الكريم [سورة البروج : ٤ - ٨] طبقاً لأشهر الروايات . راجع : تاريخ الطبرى ، جـ ٢ ، ص ١٢٣ - ١٢٥ ؛ والكامل لابن الأثير ، جـ ١ ، ص ٤٣١ - ٤٣٢ ؛ وتاريخ سنن ملوك الأرض والأنبياء لحمزة الأصفهاني ص ١٠٦ ، وجامع البيان فى تفسير القرآن للطبرى ، جـ ٣٠ ص ٨٤ - ٨٥ . وانظر أيضاً :

Trimingham, Christianity among the Arabs, pp. 289, 299, note 2 .

(١) راجع : تاريخ الطبرى ، جـ ٢ ، ص ١٢٣ - ١٢٧ .

(2) Cf. , De Lacy O' Leary, Arabia before Muhammad, p. 120 .

(٣) سورة الشورى : ٧ ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَتُبَيِّنَ لَهُمُ الْفُرْقَانَ وَمَنْ حَوَّلَهَا ﴾ . والقرية فى التعبير القرأى يراد بها المدينة .

الكاملة على الطريق التجارى من اليمن إلى مكة والشام^(١) ، وبهذا يمكنهم إحكام السيطرة على التجارة الهندية والأفريقية والعربية . وقد باءت هذه المحاولة بالفشل كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم^(٢) .

ومع ذلك لم ييأس البيزنطيون من تكرار محاولتهم من أجل السيطرة على شمال شبه الجزيرة العربية عن طريق سيطرتهم على أهم قاعدة فيه وهى مكة . يروى ابن حبيب بهذا الصدد أن عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى - من قبيلة قريش - ذهب إلى الغساسنة بالشام وطلب منهم أن يعينوه ملكا على قريش فأجابوه إلى ذلك . فلما اعترض أهل مكة على ذلك بحجة أن عثمان بن الحويرث رجل سفيه تراجع الغساسنة عن قرارهم . ولكن ذلك لم يوهن من عزم عثمان ؛ فقد ذهب إلى ملك الروم^(٣) وعرض عليه الأمر قائلا : « إني من أهل الكعبة ومن أهل بيت الله الحرام الذى تحج إليه العرب . وإنى كلمت ابن جفنة أن يجعل لى على قومى سلطانا فأفسرهم على دينك ، فبغى على رجال من قومى فرسوه فأخرجنى . وإنى جئت إليك .. فإن كتبت لى كتابا وجعلت لى عليهم سلطانا قسرت لك العرب حتى يكونوا على دينك . فكتب له قيصر عند ذلك وكساه .. وقال له : لا سلطان لابن جفنة عليك » . وتنتهى الرواية إلى أن عثمان بن الحويرث ذهب بكتاب قيصر إلى ابن جفنة فدفعه إليه ، ولكنه مات قبل أن يخرج من عنده ، « فقال كثير من الناس : سقاه سما وحسده وظن أنه غالبه على ملكه »^(٤) .

(١) مطلع النور للأستاذ عباس محمود العقاد ، ص ١١٤ .

(٢) سورة الفيل : ١ - ٥ .

(٣) لم يحدد لنا ابن حبيب من المقصود بملك الروم فى القصة المذكورة . والجدير بالملاحظة أن عثمان بن الحويرث هو ابن عم ورقة بن نوفل وكان معاصرا له . فقد حدث ذلك إذن قبل الإسلام بوقت غير طويل ؛ ربما فى عهد الامبراطور طيباريوس أو موريس .

(٤) انظر القصة بتفاصيلها فى : كتاب المنطق لابن حبيب ، ص ١٧٨ - ١٨٥ . ويذكر ابن حزم فى جمهرة أنساب العرب ص ١١٨ أن عثمان بن الحويرث أراد التملك على قريش من قبل قيصر فامتنعت قريش من ذلك ، فرجع إلى الشام وسجن من وجد بها من قريش ، فأوعزت قريش إلى عمرو بن جفنة الغساني أن يسم عثمان ، فسمه ، فمات بالشام .

نستخلص من هذه الرواية إن صحت - ولا مانع من صحتها في الجملة - عددا من النقاط الأساسية :

النقطة الأولى أن البيزنطيين وأحلافهم الغساسنة كانوا يتمتعون بين عرب مكة خصوصا ، وعرب الحجاز عموما ، بقدر من المكانة التي جعلت واحدا من هؤلاء العرب يلتبس عونهم في تعيينه حاكما على قومه .

والنقطة الثانية أن البيزنطيين كانوا حريصين على أن يحولوا الحجاز إلى منطقة نفوذ لهم ، إن لم يكن بصورة مباشرة فعن طريق من يديرها بالتفاهم معهم والتبعية لهم كما كان وضع اليمن تحت حكم الأحباش .

والنقطة الثالثة أن البيزنطيين كانوا يتخذون الدين وسيلة من الوسائل التي حاولوا عن طريقها بسط نفوذهم على شبه الجزيرة العربية . وقد كان ذلك وراء حرصهم على السيطرة على مكة التي مثلتُ بيتها الحرام أكبر رمز من رموز العرب الدينية في ذلك الوقت . فلا شك أن السيطرة على مكة كانت تعنى محاولة القضاء على ذلك الرمز . وتجدر الإشارة هنا إلى ما يرويه كثير من المؤرخين من أن الأحباش حين سيطروا على اليمن حاولوا صرف العرب عن الحج إلى الكعبة ببناء كنيسة في صنعاء سموها «القليس»^(١) ، ولعل ذلك كان بمباركة البيزنطيين وتشجيعهم . وينبغي أن نشير أيضاً في هذا المقام إلى أن عثمان بن الحويرث الذي قام بمحاولة إخضاع مكة للبيزنطيين كان من بين القلائل الذين اعتنقوا المسيحية من قبيلة قريش^(٢) .

ويبدو أن البيزنطيين كانوا حريصين على دعم أو اصر الصلة بينهم وبين قريش

(١) انظر مثلاً : تاريخ الطبري ج٢ ، ص ١٣٠ ؛ وسيرة ابن هشام ، ج١ ص ٤٣ ؛ والكامل لابن الأثير ، ج١ ، ص ٤٤٢ ؛ وتاريخ ابن خلدون ج٢ ، ص ٧١ - ٧٢ ، والقلّيس - بضم القاف وتشديد اللام المفتوحة ، أو القليّس بفتح القاف وكسر اللام المخففة - جاءت من الكلمة اليونانية ekklesia بمعنى الكنيسة . انظر : Trimingham, Christianity among the Arabs , p. 304 .

(٢) المحبر لابن حبيب ، ص ١٧١ ؛ وجمهرة أنساب العرب لابن حزم ، ص ٤٩١ .

حماية لمصالحهم في عاصمة الحجاز ؛ بل إن هناك من الروايات ما يشير إلى أن البيزنطيين كانوا عوناً لقريش في سعيها للسيطرة على مكة ؛ فمن ذلك ما يرويهِ ابن قتيبة من أن قصي بن كلاب سار إلى مكة « فحارب خزاعة بمن تبعه وأعانه قيصر عليها » (١) . والمعروف أن بطون قريش كانت تنزل في البداية حول مكة وفي شعاب جبالها ولم تكن مجتمعة تحت قيادة واحدة . وكانت مقاليد الأمور في مكة في يد خزاعة . فلما جاء قصي بن كلاب (المتوفى في حدود سنة ٤٨٠م) نجح في توحيد قريش تحت قيادته ثم سار بهم لحرب خزاعة فهزمها ، وخلت له مكة فقسمها بين قومه قريش وأنزلهم منها منازلهم التي أصبحوا عليها (٢) . وكان ذلك في سنة ٤٤٠م (٣) . والواضح أن البيزنطيين كانوا يرمون من وراء عونهم لقصي بن كلاب إلى إيجاد حليف قوى لهم في مكة يضمّنون عن طريقه تكوين منطقة نفوذ لهم في قاعدة الحجاز الكبرى وتأمين مصالحهم السياسية في شمال شبه الجزيرة العربية . ويبدو أن هذا الهدف لم يتحقق بصورة كاملة عندما تولت قريش - بقيادة قصي بن كلاب - مقاليد الأمور في مكة ؛ ومن هنا كرر البيزنطيون محاولاتهم للسيطرة عليها . وقد اتضح ذلك فيما أشرنا إليه سابقاً من وقوفهم وراء الأحباش في محاولتهم غزو الكعبة ، ثم في وقوفهم وراء عثمان بن الحويرث عندما سعى ليصبح حاكماً على مكة يدير شئونها باسمهم .

ونأتى الآن إلى مناقشة نقطة مهمة يثيرها ما سبق أن أشرنا إليه من اعتناق عثمان بن الحويرث للمسيحية ؛ وهي تلخص في هذا السؤال : ما المدى الذي وصلت إليه علاقة الحجازيين بالمسيحية قبل الإسلام ؟ وما انعكاس ذلك على علاقتهم بالبيزنطيين ؟

المعروف أن أهل مكة على الأخص كان لهم اتصال بالمسيحيين في أقاليم الدولة

(١) المعارف ، ص ٦٤٠ - ٦٤١ . وانظر أيضاً : M. Watt, Muhammad at Mecca, p. 13

(٢) تاريخ الطبري ، ج ٢ ، ص ٢٥٦ - ٢٥٨ .

(٣) تاريخ الإسلام السياسي للدكتور حسن إبراهيم حسن ، ج ١ ، ص ٤١ .

البيزنطية عن طريق التجارة . كما كان لبعضهم صلات تجارية بالحبشة التي كانت تنتشر فيها المسيحية المونوفيزيتية . وقد كان من بين الأسباب التي قدمها المؤرخون لاختيار الحبشة مهاجراً للمسلمين في عصر الرسول ﷺ أنها كانت « متجراً لقريش يتجرون فيها ، يجدون فيها رفاغاً من الرزق وأماناً ومتجراً حسناً » (١) . فمن الطبيعي أن يتصل أهل مكة والحجازيون عموماً بالمسيحية ، بل وأن يجدوا دافعاً اقتصادياً لاعتناقها لأنها كانت دين البلاد التي انصرفت إليها جملة تجارتهم . وقد عبر عن هذه الفكرة عثمان بن الحويرث عندما حاول إقناع قريش بقبول تعيين البيزنطيين له حاكماً على مكة (٢) . ولكن الواضح أن المسيحية لم يكن لها وجود ملحوظ في منطقة الحجاز قبل الإسلام ، ولم يوجد في قاعدة الحجاز ذاتها - وهي مكة - إلا عدد ضئيل جداً من المسيحيين لا نكاد نعرف منهم على وجه اليقين غير عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى الذي أشرنا إليه الآن ، وابن عمه ورقة ابن نوفل بن أسد بن عبد العزى الذي يذكر عنه المؤرخون أنه « تنصّر واستحكم في النصرانية وقرأ الكتب » (٣) . ويذكر المؤرخون أيضاً بهذا الصدد عبيد الله بن جحش . ولكن عبيد الله هذا شهد بداية الدعوة الإسلامية وأسلم ثم هاجر إلى الحبشة وتنصّر هناك (٤) . أما زيد بن عمرو بن نفيل فالثابت أنه كان أحد الخلفاء ولم يتحول إلى النصرانية (٥) . ولعل من بين أهم الأسباب التي جعلت أهل مكة لا يقبلون على المسيحية إدراكهم لأهمية الكعبة في جعل مكة مركزاً من أهم المراكز

-
- (١) تاريخ الطبري جـ ٢ ، ص ٣٢٨ - ٣٢٩ . و « رفاغاً من الرزق » أى سعة فيه .
(٢) مطلع النور للأستاذ عباس العقاد ، ص ١١٥ .
(٣) المحبر لابن حبيب ، ص ١٧١ . والملاحظ أن ابن حزم يذكر من بين مستنصرة قريش شيبة بن ربيعة بن عبد شمس . انظر : جمهرة أنساب العرب ، ص ٤٩١ . ولكن تنصر شيبة أمر مشكوك فيه ، ونحن نعرف أنه قتل مع من قتل من مشركي قريش في غزوة بدر .
(٤) المحبر لابن حبيب ، ص ٧٦ ، ٨٨ ، ١٧٢ .
(٥) نفس المصدر ، ص ١٧١ . وتجدر الإشارة هنا إلى أن اليعقوبي في تاريخه (جـ ١ ، ص ٢٥٧) يذكر أن من تنصر من قريش قوم من بنى أسد بن عبد العزى ، ولكنه حين يسميهم لا يذكر منهم غير عثمان ابن الحويرث بن أسد وابن عمه ورقة بن نوفل بن أسد .

الدينية والسياسية والاقتصادية في شبه الجزيرة العربية ؛ وهذا هو ما منَّ الله به عليهم في قوله سبحانه : ﴿أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجَبَّى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ (١) . فلم يكن من المعقول أن يتخلى أهل مكة عن هذا المركز ببساطة ليعتقدوا دينا يجعلهم يدورون في فلك الدولة التي كانت تمثل معقل المسيحية في العالم كله في ذلك الوقت وهي الدولة البيزنطية . هذا فضلا عن أن المسيحية بتفريعاتها اللاهوتية وقضاياها المتصلة بالطبيعة الإلهية والبشرية في السيد المسيح لم تمثل إغراء كبيراً للعقل العربى الميال إلى الوضوح بطبيعته ، العزوف عن أمثال هذه التعقيدات التي يتعذر عليه أن يسيغها . وفي نفس الوقت لم تكن هناك أسباب سياسية أو اجتماعية قوية تجعل عرب الحجاز يقبلون على المسيحية كما كان الأمر بالنسبة لعرب الشام مثلاً .

ومهما يكن من أمر فالواضح أن عدم تفشئ المسيحية بين عرب الحجاز لم يؤثر على علاقاتهم التجارية بالدولة البيزنطية ؛ بل إن هذه العلاقات كانت في نمو مطرد حتى جاء الإسلام . كما لم يترتب على ذلك توتر سياسى أو عسكرى ملحوظ بين الجانبين . ولكن لابد أن نلاحظ في الوقت نفسه أن الحجازيين - رغم عدم تفشئ المسيحية بينهم - كانوا على إلمام كبير بها عن طريق احتكاكهم التجارى المتصل بأقاليم الدولة البيزنطية والحبشة ، وعن طريق تأثير الغساسنة والعرب المسيحيين بالشام عموماً . ومن الأمور الدالة في هذا السياق ما يرويه المؤرخون م أن محمداً ﷺ عندما صحب عمه أبا طالب في رحلة تجارية إلى الشام وهو في سن التاسعة أو الثانية عشرة التقى في مدينة بُصْرَى براهب يقال له «بحيرى» وهو الذى تنبأ بمبعث النبى ﷺ (٢) . كما خرج في رحلة أخرى إلى الشام وهو في سن الخامسة والعشرين ، في تجارة لخديجة بصحبة غلامها ميسرة وقابل في

(١) سورة القصص : ٥٧ .

(٢) تاريخ الطبرى ، ج٢ ، ص ٢٧٧ - ٢٧٨ ؛ وسيرة ابن هشام ، ج١ ، ص ١٩٤ - ١٩٦ . وتذكر بعض المصادر أن اسم «بحيرى» هو جرجيس ، وقيل سرجيس (أى سر جيوس) ؛ وعلى هذا يكون بحيرى لقبه . انظر : إنسان العيون للحلبى ج١ ، ص ١٩٣ .

بُصِرَى أيضاً راهباً يقال له «نسطورا» صدرت عنه نبوءة مماثلة (١) . والذي يعيننا من هاتين الروايتين هنا هو ما تشيران إليه مما كان يحدث في العادة من احتكاك ديني بين الحجازيين ومسيحيي الشام عن طريق العلاقات التجارية ؛ ذلك الاحتكاك الذي شهد محمد ﷺ بعضه في طفولته وشبابه ، ولا شك أنه استمر حتى زمن الفتوحات الإسلامية .

نلخص ما مضى فنقول : إن عرب الحجاز كانت تربطهم بالبيزنطيين علاقات قوية ، وخصوصاً على المستوى التجاري . وقد حاول البيزنطيون غير مرة أن يفرضوا هيمنتهم السياسية على الحجاز ، إما بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، ولكن دون جدوى . وكانت مكة على الأخص محور محاولاتهم باعتبارها أهم مركز في الحجاز على المستوى الديني والاقتصادي والاجتماعي . ورغم أن المسيحية كانت دين البيزنطيين فإن أتباعها بين الحجازيين كانوا قلة ضئيلة ، ولعل ذلك كان راجعاً إلى ما اتسمت به المسيحية من تفريعات لاهوتية لم يكن يُسيغها العقل العربي الميال بطبيعته إلى البساطة والوضوح ؛ كما أن مكة عاصمة الحجاز كانت تتمتع بمكانة دينية متميزة بين العرب جميعاً نظراً لوجود البيت الحرام بها ، فلم يكن من السهل على الحجازيين أن يتخلوا عن تلك المكانة سعياً وراء دين كان اعتناقه سيحولهم من متبوعين إلى تابعين . ولكن الواضح أن الحجازيين كانوا على قدر من الإلمام بالمسيحية عن طريق الغساسنة ، أحلاف البيزنطيين ، الذين كانت

(١) عيون التواريخ لابن شاعر الكتبي ، ج١ ، ص ٣٧ - ٣٨ ، وإنسان العيون للحلي ، ج١ ، ص ٢١٦ . وتنتج الدراسات الاستشراقية بصفة عامة إلى الاعتقاد بأن قصة لقاء الرسول ﷺ بـ «بحيرى» و «نسطورا» ذات صبغة أسطورية . ولكن ليس هناك في الواقع سبب موضوعي يبرر التشكيك في حقيقة حدوث هذا اللقاء ، رغم أن اسم الراهبين أو تفاصيل ما دار في لقائهما بالرسول ﷺ قد يكون موضع مناقشة . انظر حول ذلك : مادة «بحيرا» في دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة العربية) ، بقلم فنسك ، ج٦ ، ص ٣٣٩ - ٣٤١ . وانظر أيضاً :

M. Watt, Muhammad, Prophet and Statesman, p. 3 .

تربطهم وشيجة قريى بأهل يشرب من الأوس والخزرج ؛ وعن طريق الرحلات التجارية المتعاقبة إلى أقاليم الدولة البيزنطية فى مصر والشام ، وإلى الحبشة حليفة بيزنطة . وقد كان البيزنطيون يحظون لدى الحجازيين بعظيم المكانة ووافر الهيبة باعتبارهم قوة كبرى على المستوى السياسى والاقتصادى والعسكرى ، وكان تأثيرهم على الحجازيين أكثر وضوحاً وقوة من تأثير الفرس نظراً إلى القرب الجغرافى وعمق الروابط التجارية . وظل الأمر على ذلك حتى جاء الإسلام وبدأت العلاقات بين الجانبين تنحو منحى جديداً .

الفصل الثاني

الرسول والبيزنطيون منذ البعثة

حتى صلح الحديبية ٦١٠م - ٦١هـ / ٦٢٨م

أولاً : المرحلة المكية :

قد لا نبالغ إذا قلنا إن الفترة الواقعة بين مبعث الرسول ﷺ في سنة ٦١٠م وبين وفاته في سنة ٦٣٢م (١١هـ) تمثل أخطر مرحلة في التاريخ الطويل للعلاقات الإسلامية البيزنطية ؛ لا من حيث حجم المواجهات التي دارت خلالها بين المسلمين والبيزنطيين ، بل من حيث تمثيلها الصحيح لجذور الصراع بين الطرفين ، ثم من حيث تأثيرها على توجيه دفعة الصراع بينهما على مدى أكثر من ثمانية قرون تالية . ومن هنا يمكننا أن نقول باطمئنان إن فهم أية مرحلة من مراحل التاريخ المتراعى للعلاقات الإسلامية البيزنطية لا يمكن أن يكتمل دون فهم صحيح لجذور تلك العلاقات وتطورها في عصر الرسول ﷺ .

ومن الطبيعي أن تكون الفترة المكية من حياة الرسول ﷺ خالية من كل ما يشير عداء دولة الروم أو يؤدي إلى المواجهة بينها وبين المجتمع الإسلامي الناشئ . فقد ظلت الدعوة الإسلامية في مكة تعيش في طي الكتمان ثلاث سنين ، ثم عندما دخلت في مرحلة العلن جاء الأمر الإلهي للرسول بأن ينذر عشيرته الأقربين . ثم أخذت الدعوة تتسع رويداً رويداً وتكتسب مزيداً من الأتباع ، ولكنهم الذين وصفهم القرآن الكريم بأنهم ﴿ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعِفُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ (١) يخافون أن يتخطفهم الناس . وقد هاجر عدد غير قليل من هؤلاء إلى الحبشة في السنة الخامسة للبعثة تحت ضغط الأذى والاضطهاد . ومع أن الحبشة كانت دولة مسيحية

(١) سورة الأنفال : ٢٦ .

وكانت موالية لامبراطورية الروم - كما أسلفنا - فقد أحسنت استقبالهم . ولم يكن هناك من المبررات ما يدعو دولة الروم إلى أن تتوجس خيفة من هؤلاء الذين فروا من أذى قومهم ولجأوا إلى دولة حليفة . وقد كانت دولة الروم فى ذلك الوقت تعيش محنة الغزو الفارسى المدمر الذى بدأ فى سنة ٦٠٣م واستمر ما يقرب من عشرين عاما ، ولم يكن يدور بخلدها على الإطلاق أن يتعرض أمنها يوما لآى تهديد مصدره شبه الجزيرة العربية .

ومما يلفت النظر أن المسلمين فى المرحلة المكية من حياة الرسول ﷺ - وهى الفترة التى شهدت ذروة الصراع الفارسى البيزنطى - كانوا يتعاطفون مع البيزنطيين باعتبارهم أهل كتاب . أما المشركون فقد كانوا يتعاطفون مع الفرس . ويروى بهذا الصدد عن ابن عباس قوله : « كان المسلمون يحبون أن يظهر الروم على فارس لأنهم أهل الكتاب ، وكان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم لأنهم أهل أوثان » (١) . وإلى ذلك تشير الآيات الكريمة من سورة الروم ، وهى من السور المكية : ﴿ اَلَمْ غَلَبَتِ الرُّومُ * فِى اَدْنٰى الْاَرْضِ وَهُمْ مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُوْنَ * فِىۤ بَضْعِ سِنِيْنَ لِلّٰهِ اَمْرٌ مِّنۢ قَبْلُ وَمِنْۢ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ۬ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُوْنَ * بَنَصْرِ اللّٰهِ يَنْصُرُ مَنۢ يَّشَآءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيْمُ ﴾ (٢) . ويروى أن أبا بكر الصديق عند نزول هذه الآيات « لقى رجالاً من المشركين فقال لهم : إن أهل الكتاب سيغلبون فارساً . قالوا : فى كم ؟ قال : فى بضع سنين » . ولكنهم طلبوا من أبى بكر أن يحدد لهم عدداً معيناً من السنين ، « فسمى أبو بكر سبع سنين . . . فلما رجع أبو بكر أخبر رسول الله ﷺ الخبر ، فقال له رسول الله ﷺ : لم فعلت ؟ فكل ما دون العشر بضع . . . ثم أظهر الله الروم على فارس زمان الحديبية . . . ففرح المؤمنون بظهور

(١) تاريخ مدينة دمشق لابن عساکر ، ج١ ، ص ٣٥٧ .

(٢) سورة الروم : ١ - ٥ وراجع التمهيد ، ص ٣٠ . وحول الآراء المختلفة فى تفسير قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَئِذٍ۬ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُوْنَ * بَنَصْرِ اللّٰهِ ﴾ ارجع إلى : تفسير الطبرى (طبعة المطبعة الاميرية ببولاق ١٣٢٩هـ) ج٢١ ، ص ١١ وما بعدها .

أهل الكتاب « (١) .

هكذا كان إحساس المسلمين في مكة نحو الروم مقارنا بإحساسهم نحو الفرس . وقد أثبتت الأحداث بعد بضع سنين صدق الإخبار القرآني ؛ ففي العام الذي هاجر فيه الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة - وهو عام ٦٢٢م - بدأ هرقل حملاته الانتقامية المظفرة ضد فارس - كما ذكرنا في التمهيد (٢) - وتوج هذه الحملات بانتصاره الساحق عليهم في معركة «نينوى» في ديسمبر سنة ٦٢٧م ، مما اضطر امبراطور الفرس الجديد « قباذ شيرويه » إلى أن يعقد صلحا مهينا مع هرقل خضع فيه لكل شروطه ، وذلك في سنة ٦٢٨م ، وهو عام الحديبية (٦هـ) .

ثانياً : بعد الهجرة حتى صلح الحديبية : ٦-١هـ (٦٢٢ - ٦٢٨م)

تمت الهجرة من مكة إلى المدينة في سبتمبر ٦٢٢م . وقد كانت المهمة الأولى أمام الرسول ﷺ والمسلمين خلال الفترة التي أعقبت الهجرة مباشرة هي توطيد قواعد الدولة الجديدة وترسيخ الأسس التي يقوم عليها بناؤها الداخلي . ولا جدال في أن مصدر التهديد الأول للدولة الإسلامية الناشئة حينذاك كان يكمن في كيد المكين لها وتربصهم بها . ومن هنا كان على المسلمين خلال تلك الفترة أن يرصدوا مخططاتهم وأن يجهضوا كل محاولاتهم لنسف بنيان الدولة الإسلامية . وقد تطور الموقف بين الجانبين بعد الهجرة بقليل فأدى إلى أخطر مواجهة بينهما في بدر ؛ وذلك في رمضان من العام الثاني للهجرة . والحق أن الانتصار الساحق للمسلمين في بدر كان له صدى كبير ، لا في شبه الجزيرة العربية وحدها ، بل خارج حدودها كذلك ؛ فقد كان القرشيون بمكة على صلة تجارية وثيقة بأقاليم الدولة البيزنطية ، وبالأخص إقليم الشام . وكان من النتائج المحققة لظهور القوة الإسلامية بعد بدر تأثر تجارة القرشيين مع الشام بصورة بالغة ؛ فقد كانت هذه

(١) تاريخ مدينة دمشق لابن عساکر ، ج١ ، ص ٣٥٦ .

(٢) راجع ما مضى ، ص ٣١ .

التجارة تمر على المدينة ذاهبة إلى الشام وقادمة منه ، فبدأ المسلمون بذلك يتحكمون في تجارة أهل مكة مع البيزنطيين ؛ وهذا أدى بالضرورة إلى أن يتسامع الناس خارج شبه الجزيرة العربية بتلك القوة الجديدة التي ضربت قريشا في الصميم وأن يضعوها في اعتبارهم . ولعل البيزنطيين كانوا أول المهتمين بتلك القوة لأنهم كانوا أكثر المتأثرين بها خارج شبه الجزيرة ؛ فلم يعد الحجاز الآن منطقة نفوذ تجارى لبيزنطة كما كان من قبل .

ورغم أن المسلمين ، بعد انتصارهم في «بدر» ، تعرضوا للهزيمة في «أحد» سنة ٣هـ فإنهم سرعان ما استعادوا مكانتهم وأكدوا هيبتهم من جديد ؛ فلم يجرؤ مشركو قريش على مواجهتهم في غزوة «حمرأ الأسد» بعد «أحد» مباشرة ؛ كما لم يجرؤا على مواجهتهم أيضاً في غزوة «بدر الموعد» (التي تعرف كذلك ببدر الآخرة) في شعبان سنة ٤هـ . ثم جاءت نكسة المشركين أو الأحزاب في غزوة الخندق في شوال سنة ٥هـ لتؤكد أمام الجميع أن الدولة الإسلامية الناشئة في المدينة قد شبت عن الطوق وأن أعداءها يتعاملون مع خصم شديد المراس .

المؤكد أن تلك الأحداث كان لها صداها العميق على حدود الامبراطورية البيزنطية بصفة خاصة ، حيث تركزت هناك القبائل العربية المنتصرة ذات الصلات العريقة ببيزنطة . فقد فوجئ هؤلاء بأن هذه الجماعة القليلة المستضعفة التي خرجت من مكة تحت ضغط القهر والاضطهاد قد أصبحت قوة مؤثرة مرهوبة الجانب . ومن هنا حاول حلفاء البيزنطيين من عرب الشام - في هذه المرحلة - تضييق الخناق على دولة المدينة وقطع أسباب الحياة عنها . وقد نتج عن ذلك عدد من المواجهات أو المناوشات بين المسلمين وعرب الشام خلال تلك الفترة ، نجملها فيما يلي ، محاولين التعرف على الملابسات التي أحاطت بها والنتائج التي أسفرت عنها :

١- غزوة دومة الجندل : ٥هـ (٦٢٦م)

دُومة الجندل - كما يذكر ياقوت - «حصن وقرى بين الشام والمدينة قرب جبل طيئ كانت به بنو كنانة من كلب» (١) . وهى تبعد عن المدينة حوالى ثمانمائة كيلو متر إلى الشمال . وسميت بهذا الاسم لأن حصنها مبنى بالجندل (٢) . وتعرف دومة الجندل الآن باسم «الجوف» (٣) .

وتُعَدُّ غزوة دُومة الجندل أولى غزوات الرسول ﷺ ضد الروم (٤) . وسبب هذه الغزوة - كما يبدو من استعراض المصادر المختلفة - هو ما كان يتعرض له التجار بين الشام والمدينة من أذى على يد العرب المقيمين بدومة الجندل من قبيلة كلب (من قضاة) . وتُطلق بعض مصادرنا على هؤلاء التجار اسم «الضايفة» (٥) وهم الأنباط الذين كانوا يقدمون المدينة من الشام بالدقيق والزيت وغير ذلك من السلع الضرورية لمجتمع المدينة (٦) . وقد كان ملك دومة فى ذلك الوقت هو أكيدير بن عبد الملك السكونى الكندى ، وكان «يدين بالنصرانية» وهو فى طاعة هرقل ملك الروم «كما يقول المسعودى» (٧) . والمعروف أن تجارة

(١) معجم البلدان ، ج٢ ، ص ٤٨٧ - ٤٨٨ . ويذكر الذهبى عن دومة الجندل أنها «أرض ذات نخل ، يزرعون الشعير وغيره ويسقون على النواضح ، وبها عين ماء» . تاريخ الإسلام ج١ ، ص ٢١٣ .

(٢) كان فى دومة الجندل قبل الإسلام حصن يسمى «المارد» كانت بقاياه موجودة حتى القرن الماضى . وقد بُنى الحصن بالحجارة وأقيم حوله سور حجرى ؛ ومن أجل هذا حملت دومة لقب «الجندل» راجع :

D. Sourdel, "Dumat al - Djandal", in The Encyclopedia of Islam, New Edition, vol. 2, p. 624.

(3) Idem .

(٤) التنبيه والإشراف للمسعودى ، ص ٢١٤ . والمقصود بالروم هنا أحلافهم من عرب الشام .

(٥) مما يذكره صاحب اللسان فى مادة «ضفط» أن الضافطة والضَّفَّاطة هى العير التى تحمل المتاع ، والضافطة والضفَّاطون أيضاً هم الذين يجلبون الميرة والمتاع إلى المدن ، «وكانوا يومئذ قوما من الأنباط يحملون إلى المدينة الدقيق والزيت وغيرهما» ؛ ومنه أن ضفَّاطين قدموا المدينة . لسان العرب لابن منظور، ج٤ ، ص ٢٥٩٦ .

(٦) تاريخ مدينة دمشق لابن عساکر ، ج١ ، ص ٤١٣ .

(٧) التنبيه والإشراف ، ص ٢١٥ .

الشام بالنسبة للحجاز كانت أحد شرايين الحياة الرئيسية لذلك الإقليم . وتجدد الإشارة هنا إلى ما ترويه بعض المصادر من أن هؤلاء العرب أحلاف البيزنطيين كانوا يريدون الزحف على المدينة (١) . بل إن البلاذري لا يذكر سببا لهذه الغزوة إلا أن جمعا من قضاة ومن غسان تجمعوا وهموا بغزو الحجاز (٢) . فقد تعدى الأمر إذن مجرد قطع الطريق على تجار المدينة ليصبح تهديدا فعليا بغزو قاعدة الدولة الإسلامية . ويبدو أن المسلمين أحسوا أن البيزنطيين كانوا مصدر هذا التهديد؛ فقد قيل للرسول ﷺ : «إن دنوت إلى الشام كان ذلك مما يُفزع قيصر» (٣) .

ويطرح بعض الباحثين المحدثين احتمالاً مؤداه أن الغاية من وراء غزوة دومة الجندل كانت الاستطلاع (٤) . ومع أنه ليس من المستبعد أن يكون الاستطلاع إحدى الغايات المحتملة لهذه الغزوة فإن الذي نرجحه أن الغاية الأساسية وراءها كانت تأكيد هيبة الدولة الإسلامية وقطع الطريق على أية محاولة عدوانية يقوم بها عرب الشام ضد الكيان الإسلامي الناشئ . وهذا ما قد يبدو واضحا من تطورات الغزوة . فقد خرج رسول الله ﷺ من المدينة على رأس ألف من أصحابه في ربيع الأول سنة ٥هـ (أغسطس ٦٢٦م) كما تذكر معظم الروايات (٥) ، وقيل في مستهل المحرم سنة ٥هـ (٦) . والجدير بالملاحظة هنا أن هذا الجيش الذي قاده الرسول إلى دومة الجندل كان أكبر جيش يخرج به غازيا حتى ذلك الوقت ، وذلك إذا استثنينا الجيش الذي خرج به لمواجهة قريش في بدر الموعد سنة ٤هـ بعد معركة أحد ،

(١) المغازي للواقدي ، ج١ ، ص ٤٠٣ ؛ والطبقات الكبرى لابن سعد ، ج٢ ، ص ٦٢ .

(٢) أنساب الإشراف ، ج١ ، ص ٣٤١ .

(٣) المغازي للواقدي ، ج١ ، ص ٤٠٣ .

(4) M. Watt, Muhammad at Medina, p. 114 - 115 .

(٥) انظر على سبيل المثال : أنساب الإشراف للبلاذري ، ج١ ، ص ٣٤١ ؛ والمغازي للواقدي ، ج١ ، ص ٤٠٣ ؛ والطبقات الكبرى لابن سعد ، ج٢ ، ص ٦٢ ؛ وزاد المعاد لابن القيم ، ج٢ ، ص ١١٢ .

(٦) المحبر لابن حبيب ، ص ١١٤ . ويروى للدهلي الرواية الشائعة أولا ، ثم يسند الثانية إلى المدائني . انظر : تاريخ الإسلام ج١ ، ص ٢١٢ .

وعده ألف وخمسمائة مقاتل (١) . فقد كان المسلمون إذن يدركون خطورة التهديد الذى بدأت تظهر بوادره على الجبهة الشمالية ويدركون أيضاً ضرورة التعامل معه فى منابه . وقد تقدم الرسول ﷺ بهذا الجيش إلى دومة الجندل فهرب أهلها عندما علموا بذلك ، وكان على رأس الهاريين ملكهم أكيدر بن عبد الملك ، «ونزل رسول الله ﷺ بساحتهم فلم يجد بها أحدا» (٢) ، فعاد إلى المدينة بعد أن أكد هيئة الدولة الإسلامية وقدرتها على التعامل الحاسم مع المتربصين بها . وقد بات من المؤكد بعد هذه الغزوة أن هناك جبهة تهديد خطيرة فُتحت أمام المسلمين وهى جبهة الشام .

وفى نهاية حديثنا عن هذه الغزوة تجدر الإشارة إلى رأى يعرضه «مونتجومرى وات» حول أخطر ما ترتب عليها ؛ وخلاصته أن ما لمس الرسول ﷺ خلالها من الظروف التى كانت سائدة فى الشمال هو ما شجعه بعد ذلك على التوسع فى اتجاه الشام (٣) . والحق أن جانب الخيال فى هذا الرأى أغلب من جانب الحقيقة ؛ ذلك أن حملات الرسول ﷺ فى اتجاه الشام - وعلى رأسها مؤتة وتبوك - أملت كلها ضرورة تأمين حدود الدولة الإسلامية لا الرغبة فى التوسع ، وهذا ما سوف نناقشه بقدر من التفصيل فى موضعه .

٢- سرية زيد بن حارثة إلى حِمْيَ : ٦هـ (٦٢٧م)

حِمْيَ أرض ببادية الشام بإقليم الأردن على مشارف الحجاز ، يصفها ياقوت بأنها «أرض غليظة ، وماؤها كذلك ، لا خير فيها» (٤) . وكانت موطناً لقبيلة جُدَام ؛ ولهذا كانت تعرف أيضاً بـ «أرض جُدَام» (٥) . ولكن يبدو أن بعض بنى

(1) Watt, op. cit., p. 105 .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ، ج ٢ ، ص ٦٢ .

(3) M. Watt, Muhammad, Prophet and Statesman, p. 162 .

(٤) معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ١١٢ .

(٥) المعبر لابن حبيب ، ص ٣٨٣ .

عمومتهم من قبيلة لخم كانوا يسكنونهم هناك (١) .

وقد وجه رسول الله ﷺ زيد بن حارثة إلى حسمى في جمادى الآخرة سنة ٦هـ (أكتوبر - نوفمبر ٦٢٧م) على رأس خمسمائة رجل من أصحابه ، وذلك بسبب ما تعرض له دحية بن خليفة الكلبي على يد رجال من جذام . فقد أرسل رسول الله دحية إلى «قيصر» - على حد تعبير مصادرتنا - فأجازه بمال وكساء ، «وعند مروره بحسمى لقيه ناس من جذام فقطعوا عليه الطريق وأصابوا كل شيء معه فلم يصل إلى المدينة إلا يسمل» (٢) . ويروى أن عدداً من قبيلة لخم اشتركوا مع جذام في تلك الجريمة (٣) . ولسنا متأكدين تماماً من طبيعة الرسالة التي كان يحملها دحية من رسول الله ﷺ إلى هرقل ، هذا لو صح أن المقصود بقيصر هنا هرقل . فالمعروف أن كتب الرسول إلى الملوك - ومنهم هرقل - كانت بعد صلح الحديبية ، أى في أواخر سنة ٦هـ أو أوائل سنة ٧هـ ؛ وكان دحية حامل كتاب رسول الله ﷺ إلى هرقل عندئذ . فلو ثبت أن سرية زيد هذه كانت في سنة سبع - كما جاء في بعض الروايات (٤) - فالأمر إذن واضح لا إشكال فيه . أما لو ثبت أنها كانت في جمادى الآخرة سنة ٦هـ - كما جاء في معظم الروايات - فهنا نتساءل: هل أرسل الرسول ﷺ كتابين إلى هرقل مع دحية في وقتين مختلفين ؟ أو هل أرسل دحية في هذه المرة بغير كتاب كما يقترح صاحب السيرة الحلبي (٥) ؟ أو هل يمكن أن يكون المقصود بقيصر في هذه الرواية هو حاكم بصرى كما يقترح

(١) أنساب الأشراف للبلاذرى ، ج١ ، ص ٣٧٧ .

(٢) المغارى للواقدي ، ج٢ ، ص ٥٥٥ - ٥٥٦ . وانظر أيضاً : تاريخ الإسلام للذهبي ، ج١ ، ص ٢٩٤ .

(٣) أنساب الأشراف للبلاذرى ، ج١ ، ص ٣٧٧ .

(٤) نفس المصدر والصفحة .

(٥) السيرة الحلبي لعل بن برهان الدين الحلبي ، ج٣ ، ص ١٧٩ . وتجدر الإشارة إلى أن اسم «دحية» سوف يتردد في بعض مصادرتنا أيضاً بعد ذلك . بمناسبة الحديث عن بعثة رسول الله ﷺ إلى هرقل في غزوة تبوك . انظر ما يلي ، ص ١١٨ - ١١٩ .

«مونتجومى وات» ؟ (١) . . لا نجد فى مصادرنا ما يجيب عن هذه التساؤلات بوضوح ، وإن كنا نميل إلى قبول اقتراح «وات» . والأمر الواضح على كل حال أن قبيلتى جذام ولخم - وهما من أحلاف الروم - صدر منهما فى ذلك الوقت ما يكشف عن سوء النية تجاه المسلمين وما يؤمى إلى مخططاتهما التآمرية التى سوف تتضح بصورة أكثر تحديدا فى المستقبل القريب . وقد كانت سرية زيد بن حارثة ناجحة فى حدود الغرض الذى أرسلت من أجله ، وهو تأديب هؤلاء القوم من جذام ولخم ؛ فقد أغار المسلمون عليهم صباحا «فأصابوا ما وجدوا وقتلوا فيهم فأوجعوا» (٢) . ولكن العناصر العربية من نصارى الشام كانت من الكثرة والخطورة بحيث احتاجت من الرسول ﷺ إلى مزيد من المواجهات التى قُدِّر لها أن تستمر حتى انتقله إلى الرفيق الأعلى .

٣- سرية زيد بن حارثة إلى وادى القرى : ٦هـ (٦٢٧م)

ومن الملاحظ هنا أن بعض المصادر تذكر سرية أخرى لزيد بن حارثة إلى وادى القرى (شمالي خير) (٣) فى الشهر التالى من نفس العام ، أى فى رجب سنة ٦هـ (نوفمبر - ديسمبر ٦٢٧م) ؛ حيث تَجَمَّع هناك قوم من مذحج وقضاعة ، «ويقال بل تجمع بها قوم من أفناء مضر» (٤) . على أن التفاصيل القليلة التى تقدمها لنا مصادرنا عن هذه السرية لا تتيح لنا الحكم على أسبابها ونتائجها . ولكن يبدو أن

(1) Watt, Muhammad : Prophet and Statesman, p. 179 .

(٢) مغازى الواقدي ، ج٢ ، ص ٥٥٧ - ٥٥٨ . ويُعَدُّ تقرير الواقدي عن هذه السرية (من ص ٥٥٥ إلى ٥٦٠) من أوفى التقارير التى تقدمها مصادرنا .

(٣) يذكر «ياقوت» أن وادى القرى هو وادٍ بين الشام والمدينة ، وهو بين تيماء وخيبر ، فيه قرى كثيرة ، وبها سُمى وادى القرى . انظر معجم البلدان ، ج٤ ، ص ٣٨٤ (مادة : القرى) ، وجه ، ص ٣٩٧ (مادة : وادى القرى) .

(٤) أنساب الأشراف للبلاذرى ، ج١ ، ص ٣٧٧ - ٣٧٨ . ومعنى «أفناء» : أخلاط . ويقال : قوم من أفناء القبائل ؛ أى لا يُعرفون من أى القبائل هم . راجع مادة «فنى» فى لسان العرب لابن منظور ، ج٥ ، ص ٣٤٧٨ .

نتيجتها الإجمالية لم تكن فى صالح المسلمين^(١) . ويرى «وات» أن سرية زيد هذه كانت فى حقيقتها رحلة تجارية إلى الشام وأنها أول رحلة تجارية إسلامية تنطلق من المدينة^(٢) . ورغم أننا لا نستطيع القطع فى هذا الأمر فإن ما يبدو أكثر انسجاماً مع السياق العام للأحداث خلال تلك الفترة أن هذه السرية كانت تهدف إلى كسب ولاء العرب المقيمين هناك : إما بنشر الإسلام بينهم ، أو بعقد تحالف معهم . وقد كانت الرحلات التجارية فى ذلك الجو المشحون بالعداوة مغامرة محفوفة بالمخاطر وكان من المتعذر القيام بها قبل تأمين الطريق المؤدى إلى الشام .

٤- سرية عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل : ٦هـ (٦٢٧م)

هذه هى ثانى حملة إسلامية إلى دومة الجندل فى تلك المرحلة الأولى من حياة الرسول ﷺ بالمدينة . وقد ذكرنا أن قوماً من قبيلة كلب من قضاة كانوا ينزلون دومة الجندل ، وكانوا على النصرانية . وكانت قبيلة كلب شديدة العناد للإسلام والكيد لأهله . ويبدو أن هذا هو سر الاهتمام البالغ من الرسول ﷺ بتأمين هذه الجهة . ففى شعبان سنة ٦هـ (ديسمبر ٦٢٧م) وجه عليه السلام عبد الرحمن بن عوف على رأس سرية من سبعمائة إلى قبيلة كلب بدومة الجندل وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام . فسار عبد الرحمن بمن معه حتى قدم دومة الجندل «فمكث بها ثلاثة أيام يدعوهم إلى الإسلام ، وقد كانوا أبوا أول ما قدم يعطونه إلا السيف»^(٣) . وفى اليوم الثالث أسلم زعيمهم الأصبغ بن عمرو الكلبى^(٤) ، وكان نصرانياً ،

(١) يذكر خليفة بن خياط فى تاريخه (ج١ ، ص ٣٩) أن الرسول أرسل زيد بن حارثة فى سنة ٥هـ إلى وادى القرى إلى فزارة فقتل عامة أصحابه . والغالب أن هذا إشارة إلى السرية التى نتحدث عنها رغم الاختلاف فى تاريخها وفى بعض التفاصيل الأخرى .

(2) M. Watt, op. cit., p. 180 .

(٣) المغازى للواقدي ، ج٢ ، ص ٥٦١ .

(٤) نلاحظ هنا أن زعيم قبيلة كلب بدومة الجندل (أو ملكهم) يذكر على أنه الأصبغ بن عمرو الكلبى . وفى غزوة الرسول ﷺ لدومة الجندل سنة ٥هـ ، ثم فى غزوة خالد لها سنة ٩هـ نلاحظ أن ملك دومة هو أكيدر بن عبد الملك الكندى . وقد اثار اختلاف اسمى الزعيمين وأصليهما شكوك بعض الباحثين . ولكن حل هذا الإشكال يتلخص فى أن أكيدر كان ملك السكان الحضريين المستقرين فى واحة دومة =

فكتب عبد الرحمن إلى النبي ﷺ يخبره بذلك ، فأمره النبي أن يتزوج «تماضر بنت الأصبغ» ففعل عبد الرحمن ، فهي أم ولده أبي سلمة (١) . وقد أسلم مع الأصبغ ناس من قومه (من قبيلة كلب) ، وأذعن الباقر بأداء الجزية (٢) .

يتضح من هذا أن الهدف الأول لسرية عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل كان الدعوة إلى الإسلام ؛ وأن ما اشتملت عليه هذه السرية من عدد كبير نسبياً كان يهدف إلى توفير الحماية الكافية للدعاة المسلمين في تلك المناطق الحافلة بالخطر على الإسلام والدائرة في فلك بيزنطة . ولم تكن تجربة زيد بن حارثة وصحبه في وادي القرى ببعيدة . والواقع أن عبد الرحمن تعرض في البداية لتحدٍ سافر من أهل دومة الجندل حين قالوا له : لا نعطيك إلا السيف ! وليس من منهج الدعوة الإسلامية إرغام أحد على اعتناق الإسلام ، ولكن المبدأ الإسلامي أن من لا يقبل الإسلام لا يصح أن يكون حرباً عليه أو يضع العراقيل في طريق انتشاره ؛ ومن هنا جاء مبدأ الجزية . فعندما أسلم الأصبغ بن عمرو زعيم قبيلة كلب وتبعه ناس من قومه اكتفى عبد الرحمن بقبول الجزية ممن رفض الدخول في الإسلام . وإقرار هؤلاء بالجزية يعنى قبولهم أن يكونوا ذمة للمسلمين وألا يُعينوا عليهم عدواً داخل شبه الجزيرة العربية أو خارجها .

وهكذا يمكننا القول إن سرية عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل حققت أهدافها ؛ فقد ترتب عليها أولاً إسلام الكثير من أهل دومة وعلى رأسهم زعيمهم

= الجندل ؛ أما الأصبغ فكان زعيم هؤلاء البدو من قبيلة كلب الذين كانوا يقطنون منطقة واسعة حول دومة ولهم رؤساؤهم . انظر حول ذلك :

D. Sourdel , " Dumat al - Djandal " , in The Encyclopedia of Islam, New Edition, vol. II, p, 625 .

(١) المغارى للواقدي ، ج٢ ، ص ٥٦١ . وهناك رواية أخرى تذكر أن النبي ﷺ قال لعبد الرحمن عندما بعثه : « إن أطاعوك فتزوج ابنة ملكهم » . نفس المصدر ، ص ٥٦١ - ٥٦٢ . وانظر أيضاً :

الطبقات الكبرى لابن سعد ، ج٢ ، ص ٨٩ ؛ وأنساب الأشراف للبلاذري ، ج١ ، ص ٣٧٨ .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ، ج٢ ، ص ٨٩ .

الأصبغ ؛ كما ترتب عليها ثانيا إقرار الباقيين بالجزية . ومن أجل توثيق الروابط بين المسلمين الجدد من أهل دومة وبين مسلمي المدينة أمر الرسول ﷺ عبد الرحمن ابن عوف أن يتزوج بنت الأصبغ بن عمرو . وقد كانت المصاهرة - وما زالت - إحدى وسائل الترابط السياسى والاجتماعى والعرقى أيضاً .

ويجدر بنا فى هذا السياق أن نشير إلى ما يراه بعض الباحثين المحدثين من أن سرية عبد الرحمن بن عوف جاءت انعكاسا لسياسة الرسول ﷺ تجاه القبائل العربية بالشام . فقد اهتم الرسول بهذه القبائل - طبقا لهذا رأى - لا لأنهم أبدوا اهتماما بالإسلام أو رغبة فيه ، بل لما مثلته التجارة مع الشام من أهمية بالنسبة لاقتصاد مكة . فقد استطاع الرسول عن طريق هجومه على القوافل التجارية لمكة أن يحاصر طريق المكيين إلى الشمال ، كما قصد بتحالفه مع القبائل الشمالية أن يحكم حلقة هذا الحصار (١) .

وقد يسوغ لنا أن نقبل هذا رأى لو أن اهتمام الرسول ﷺ بالقبائل الشمالية توقف بعد فتح مكة وانضوائها تحت راية الدولة الإسلامية . فالواضح أنه لم يعد هناك مبرر بعد فتح مكة لفرض حصار اقتصادى على المكيين . ورغم ذلك فقد استمر اهتمام الرسول بالقبائل الشمالية بل تزايد . وسوف نرى أنه قبيل وفاته جرّد بعضا بقيادة أسامة بن زيد ضد بعض هذه القبائل الشمالية ، وقد حالت وفاته دون إنفاذ هذا البعث فتكفل أبو بكر بهذه المهمة .

لا مفر إذن من البحث عن سبب آخر غير فرض الحصار الاقتصادى على المكيين لنشرح به سر اهتمام الرسول ﷺ بالقبائل العربية فى الشام . والسبب المقبول - فيما نتصور - هو نشر كلمة الإسلام خارج الجزيرة العربية ومن ثم تأمين حدود الدولة الإسلامية ضد كل المترصبين بها . ولا شك أن الاضطلاع بمسئولية

(1) M. Watt , Muhammad : Prophet and Statesman, p. 180; cf., H. Kennedy, The Prophet and the Age of the Caliphates, p. 41 .

الدعوة سبب قوائم ودائم . ومن هنا كان اهتمام الرسول ﷺ بالقبائل العربية في الشام يتزايد بمرور الوقت ، ولم يحدث أبداً أنه تناقص .

ملاحظات أساسية حول علاقة المسلمين

بالروم قبل الحديبية (١ - ٦هـ)

أولاً : لا يبدو أن الروم وأحلافهم من عرب الشام أظهروا اهتماماً عملياً بالدولة الإسلامية الناشئة خلال السنين الأربعة التالية لهجرة الرسول ﷺ إلى المدينة . صحيح أن انتصار المسلمين في بدر بدأ يلفت أنظار القوى الخارجية إلى تلك القوة الوليدة ، ولكن الواضح أنه لم تكن هناك خطوة عملية من أى طرف خارجي لمقاومة تلك القوة خلال هذه الفترة المبكرة .

ثانياً : عندما بدأت الدولة الإسلامية تؤكد ذاتها وتصبح واقعاً لا يمكن تجاهله لجأ أحلاف الروم من عرب الشام إلى سلاح الحرب الاقتصادية ضد المدينة ، وذلك عندما حاول أهل دومة الجندل وغيرهم إنزال الأذى بالتجار الأنباط الذين كانوا يحملون إلى المدينة سلع الشام الضرورية كالذيق والزيت وغير ذلك . وقد ردّ الرسول ﷺ على ذلك بشن أول حملة إسلامية ضد بلاد الشام في سنة ٥هـ ؛ وهي المعروفة باسم «غزوة دومة الجندل» ، والتي تعتبرها بعض مصادرنا أولى غزوات الرسول ضد الروم . ولا شك أن في ذلك دلالة على أن المسلمين لم يكونوا يفصلون كثيراً بين عرب الشام وأسيادهم البيزنطيين ، فقد ربط بينهم رباط العداء للإسلام .

ثالثاً : بعد انتصار المسلمين في غزوة الخندق (في شوال سنة ٥هـ) وتشيت شمل الأحزاب الذين تواطأوا على نفس بنيان الدولة الإسلامية بدأ الرسول ﷺ يوجه بعوثة إلى عرب الشام بهدف الدعوة إلى الإسلام وليس بهدف الحرب أو التجارة . وقد استطاع عبد الرحمن بن عوف أن يحرز أول نصر في

ميدان الدعوة فى تلك البقاع عندما أسلم على يديه عدد كبير من قبيلة كلب بدومة الجندل وعلى رأسهم زعيمهم الأصمغ بن عمرو . وسوف يواصل الرسول ﷺ محاولاته الناجحة فى هذا الاتجاه خلال المرحلة التالية لصلح الحديبية .

رابعاً : لم تكن هناك مواجهات مباشرة بين المسلمين والروم خلال المرحلة التى نتحدث عنها ، بل كانت المواجهات بينهم وبين عرب الشام ، وخاصة قبائل كلب وجذام ولخم . ولكن الأمور سوف تختلف اختلافاً كبيراً فى المراحل اللاحقة .

الْفَقِيْهَةُ السَّالِكَةُ

الرسول والبيزنطيون من صلح الحديبية

حتى سوية مؤتة : ٦هـ - (٦٢٨م) - ٨هـ - (٦٢٩م)

مقدمة :

عقد الرسول ﷺ صلح الحديبية مع مشركى قريش فى ذى القعدة من سنة ٦هـ (مارس ٦٢٨م) ؛ وكان من بين بنود هذا الصلح أن تتوقف الحرب بين قريش والمسلمين عشر سنين . وقد نقضت قريش هذا الصلح بعد أقل من عامين حين أعانت حلفاءها من قبيلة بنى بكر على خزاعة حلفاء المسلمين ، فترتب على ذلك فتح مكة وانضواؤها تحت راية الإسلام فى رمضان سنة ٨هـ .

أتاحت هدنة الحديبية للدعوة الإسلامية أن تشق طريقها بعيدا عن كيد قريش ودسائسها . فليس غريبا أن تحرز من التقدم خلال عامين اثنين ما لم تحرزه خلال عمرها الطويل قبل ذلك . وقد رأى الرسول ﷺ أثناء هذه الهدنة أن الظروف مواتية لنشر كلمة الإسلام ؛ ليس داخل الجزيرة العربية فحسب ، بل خارجها أيضاً ، وذلك بين من يتسنى له الاتصال بهم من ملوك العالم وأمرائه ، ثم بين القبائل العربية فى الشام .

ومن هنا سندير حديثنا فى هذا الفصل حول نقطتين أساسيتين هما :

أولاً : كتب الرسول ﷺ إلى الملوك والأمراء .

وثانياً : علاقته بالقبائل العربية فى الشام .

فلنبداً بمناقشة النقطة الأولى :

أولاً : كتب الرسول إلى الملوك والأمراء :

يكاد يجمع المؤرخون على أن الرسول ﷺ أرسل كتبه إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى الإسلام بعد صلح الحديبية (١) ، ولكنهم يختلفون حول التاريخ الدقيق الذى أرسلت فيه هذه الكتب . فيذكر الطبرى أنها أرسلت فى ذى الحجة سنة ٦هـ (٢) فى حين أن البلاذرى يرى أن إرسالها كان فى سنة ٧هـ ، وهو عنده « أثبت من قول من قال فى سنة ست » (٣) . ثم إن أصحاب رأى القائل بأن هذه الكتب أرسلت فى العام السابع للهجرة لا يتفقون على الشهر : فهو شهر ربيع الأول عند البعض (٤) ، أو شهر المحرم عند البعض الآخر (٥) . والملاحظ أن الطبرى فى رواية أخرى يذكر أن رسول الله ﷺ كان « قد فرق رجالاً من أصحابه إلى ملوك العرب والعجم دعاءً إلى الله عز وجل فيما بين الحديبية ووفاته » (٦) .

والرأى الذى نرجحه أن الرسول بدأ بإرسال هذه الكتب فى أوائل العام السابع للهجرة (٦٢٨م) ؛ فقد عاد عليه السلام من الحديبية إلى المدينة فى شهر ذى الحجة (٧) . وقد كان بحاجة إلى بعض الوقت لإعداد الكتب واختيار السفراء . وإذا كان إرسال هذه الكتب قد بدأ فى العام السابع فإن المنطقى أنه لم يتوقف فى

(١) يذكر « مونجمورى وات » أن بعض هذه الكتب أرسل بالتاكيد قبل صلح الحديبية ، ولكنه لا يدعم رأيه بدليل تاريخى مقنع . انظر كتابه : Muhammad, Prophet and Statesman, p. 194

(٢) تاريخ الطبرى ، ج٢ ، ص ٦٤٤ .

(٣) أنساب الأشراف للبلاذرى ، ج١ ، ص ٥٣١ . وانظر أيضاً : المختصر فى أخبار البشر لأبى الفداء ، ج١ ، ص ١٤١ ؛ وتاريخ ابن السورى ، ج١ ، ص ١٩٤ . والملاحظ أن الذهبى (فى كتابه : تاريخ الإسلام ، ج١ ، ص ٤١٧) يذكر أن هذه الكتب أرسلت فى العام الثامن للهجرة . ونحن لا ننكر أن يكون العام الثامن قد شهد إرسال بعض هذه الكتب ؛ ولكن الذى ننكره أن يكون قد شهد بداية إرسالها . والأقرب إلى المنطق أن يكون الرسول قد بدأ بإرسال هذه الكتب بعد عقد الحديبية بوقت غير طويل ، وهو ما تؤكد المصادر المبكرة .

(٤) التنبيه والإشراف للمسعودى ، ص ٢٢٥ .

(٥) راد المعاد لابن القيم ، ج١ ، ص ٣٠ .

(٦) تاريخ الطبرى ، ج٢ ، ص ٦٤٤ .

(٧) المحبر لابن حبيب ، ص ١١٥ ؛ وسيرة ابن هشام ، ج٣ ، ص ٣٧٨ .

الأعوام التالية (١) .

والذى يعيننا من هذه الكتب هو ما أرسله الرسول ﷺ إلى هرقل والمقوقس وأمراء الغساسنة . فقد أرسل مع دحية بن خليفة الكلبي كتاباً إلى هرقل وأمره أن يدفعه إلى عظيم بُصْرَى ليدفعه إلى هرقل . وهذا نص الكتاب كما جاء فى صحيح البخارى :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم ؛ سلام على من اتبع الهدى . أما بعد : فإنى أدعوك بدعاية الإسلام . أَسْلِمَ تَسْلِمٌ . وَأَسْلِمَ يُوْتِكَ الله أجرك مرتين ؛ فإن توليت فعليك إثم الأريسيين ، ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سَوَاءٍ بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » (٢) .

كما أرسل إلى المقوقس - حاكم مصر بالنيابة عن هرقل - كتاباً مع حاطب بن أبى بلتعة (٣) ، وأرسل أيضاً إلى أمراء الغساسنة بالشام .

ولكن مصادرنا تضطرب اضطراباً شديداً فى حديثها عن كتب الرسول ﷺ إلى أمراء الغساسنة . على أن الرواية الشائعة تقرر أن الرسول أرسل شجاع بن وهب الأسدى إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى (٤) ، وكان - كما يذكر المسعودى -

(١) أرسل الرسول ﷺ عمرو بن العاص فى العام الثامن للهجرة - وهو نفس العام الذى أسلم فيه - إلى جَيْفَر بن جُلَنْدَى وعَبَاد بن جُلَنْدَى صاحبى عمان . كما أرسل فى نفس العام العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى صاحب البحرين . انظر : تاريخ الطبرى ، جـ ٣ ، ص ٢٩ .

(٢) صحيح البخارى ، جـ ٤ ، ص ٥٧ ، (باب دعوة اليهودى والنصراني . وما كتب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر .) . ومن معانى كلمة الأريسيين الخدم ؛ وقد تعنى الرعية كما يشير إلى ذلك السياق هنا .

(٣) فتوح مصر واختيارها لابن عبد الحكم ، ص ٤٥ وما بعدها ؛ وتاريخ يعقوبى ، جـ ٢ ، ص ٧٨ ؛ وتاريخ خليفة بن خياط ، جـ ١ ، ص ٤١ .

(٤) تاريخ الطبرى ، جـ ٢ ، ص ٦٤٤ ؛ والمكامل لابن الأثير ، جـ ٢ ، ص ٢١٠ ؛ والبلد والخصاير للمقدسى ، جـ ٤ ، ص ٢٢٩ . ويسميه المقدسى «الطوالت الأصغر» .

«عامل هرقل ملك الروم على دمشق وأعمالها ، وكان ينزل الجولان ومرج الصُّفْر» (١) . ويذكر الطبرى فى إحدى رواياته أن شجاع بن وهب ذهب رسولا إلى المنذر بن الحارث بن أبى شمر (٢) . وهناك من مصادرنا ما يضيف أنه عليه السلام أرسل أيضاً عمار بن ياسر إلى الأيهم بن النعمان الغسانى ، وذلك دون تحديد الوجهة التى اتجهت إليها هذه السفارة (٣) .

على أن المشكلة الأكثر تعقيداً تتمثل فى سفارة الحارث بن عمير الأزدي ، مبعوث النبی ﷺ إلى ملك بصرى . فمعظم مصادرنا تذكر أن الحارث بن عمير الأزدي لما نزل مؤتة - فى طريقه إلى ملك بصرى - عرض له شرحبيل بن عمرو الغسانى فقتله (٤) ، وكان هذا من بين أسباب غزوة مؤتة كما سيأتى . ولكن سبق أن ذكرنا أن الرسول ﷺ أرسل إلى هرقل كتاباً مع دحية بن خليفة الكلبي وأمره أن يدفعه إلى عظيم بصرى فدفعه عظيم بصرى إلى هرقل . فمن هو عظيم بصرى ؟ هل هو الحارث بن أبى شمر الغسانى كما جاء فى بعض الروايات (٥) . ولكن حامل كتاب رسول الله إلى الحارث بن أبى شمر - كما ذكرنا منذ قليل - كان شجاع بن وهب الأسدى . ثم لماذا لم يُحمل الرسول ﷺ دحية كتاباً آخر إلى عظيم بصرى بدل أن يوجه إليه رسولاً خاصاً هو الحارث بن عمير ؟ لا نكاد نجد

(١) التنبيه والإشراف للمعزى ، ص ٢٢٦ - ٢٢٧ .

(٢) تاريخ الطبرى ، ج٢ ، ص ٦٥٢ . وهناك من مصادرنا ما يذكر أن الرسول ﷺ بعث شجاع بن وهب الأسدى إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى أو إلى جبلة بن الأيهم الغسانى . سيرة ابن هشام ، ج٤ ، ص ٢٧٩ . وانظر أيضاً : تاريخ خليفة بن خياط ، ج١ ، ص ٦٣ . وهناك ما يذكر أن شجاع بن وهب ذهب إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى وابن عمه جبلة بن الأيهم ملكى البلقاء من أعمال دمشق . جوامع السيرة لابن حزم ، ص ٢٩ - ٣٠ . ثم إن هناك رواية تذكر أن شجاع بن وهب توجه إلى هرقل مع دحية بن خليفة . زاد المعاد لابن القيم ، ج١ ، ص ٣٣ .

(٣) تاريخ يعقوبى ، ج٢ ، ص ٧٨ .

(٤) انظر على سبيل المثال : المغارى للواقدي ، ج٢ ، ص ٧٥٥ وما بعدها ؛ والطبقات الكبرى لابن سعد ، ج٢ ، ص ١٢٨ ، و ج٤ ، ص ٣٤٣ ؛ والإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر ، ج١ ، ص ٢٨٥ - ٢٨٦ ؛ والاستيعاب لابن عبد البر ، ج١ ، ص ٢٩٧ - ٢٩٨ .

(٥) السيرة الحلبية لعلى بن برهان الدين الحلبي ، ج٢ ، ص ٢٨٤ .

فى مصادرنا إجابات شافية عن هذه الأسئلة .

ومهما يكن من خلاف حول بعض التفاصيل المتعلقة بكتب رسول الله ﷺ إلى ملوك العالم وأمرائه - ومنهم ملوك وأمراء الامبراطورية البيزنطية - فإن الذى تُجمع عليه مصادرنا أن هذه الكتب تضمنت دعوة هؤلاء بالحسنى إلى دين الله . وهذا هو ما تشير إليه الآية الكريمة التى استشهد بها رسول الله ﷺ فى كتابه إلى هرقل : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (١) .

ونأتى الآن لمناقشة ردود الفعل لدى من أشرنا إليهم من الملوك والأمراء لكتب الرسول ﷺ ؛ وهم هرقل والمقوقس وأمراء الغساسنة . ولنبدأ بأهم شخصية فيهم وهو هرقل .

ورغم اختلاف المؤرخين حول بعض التفاصيل المتعلقة بسفارة دحية إلى هرقل فإنهم يُجمعون على أن هرقل استقبل كتاب رسول الله ﷺ استقبالا حسنا (٢) . وقد كان الامبراطور فى ذلك الوقت مقيما بحمص استعدادا للذهاب إلى بيت المقدس لرد الصليب الأعظم إلى مكانه بعد استرداده من الفرس (٣) . وقيل إنه كان قد وصل فعلا إلى بيت المقدس (٤) ، وهناك رواية طويلة يرددها معظم المؤرخين حول

(١) سورة آل عمران : ٦٤ .

(٢) وهذا يجعلنا نختلف مع ما يراه الدكتور جوزيف نسيم يوسف حين يتحدث عن الرسالة التى وجهها الرسول ﷺ إلى هرقل حيث يذكر أن هرقل « لم يُعِنَ بالرسالة الموجهة إليه ، فكان هذا بداية الحرب بين العرب والروم » . انظر كتابه : تاريخ الدولة البيزنطية ، ص ١١٠ . والحق أن الحرب بين المسلمين والروم لم تكن نتيجة سوء استقبال هرقل لرسالة الرسول عليه السلام ، بل كانت نتيجة تطورات أخرى ناقشناها بالتفصيل فى غير موضع من هذا البحث .

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ، ج٤ ، ص ٢٥١ ؛ والإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر ، ج١ ، ص ٢٦٣ .

(٤) تاريخ الطبرى ، ج٢ ، ص ٦٤٦ ؛ والأموال لأبى عبيد ، ص ٢٦ - ٢٧ ؛ وزاد المعاد لابن القيم ، ج١ ، ص ٣٠ . والمعروف أن هرقل رد الصليب الأعظم إلى مكانه ببيت المقدس فى ربيع سنة =

استدعاء هرقل لبعض التجار العرب بالشام لسؤالهم عن حال هذا النبي العربي الذي ظهر بالحجاز ، وذلك بعد أن وصله كتابه . ونحن نحجم عن سرد هذه الرواية لطولها ؛ ولكن مؤداها أن عيون هرقل جاؤوه بأبي سفيان الذي كان قد ذهب إلى غزة للتجارة ، وكان معه جماعة من أصحابه . فقال هرقل عن طريق مترجمه : « إني سأسأله ؛ فإن كذب فردوا عليه » . ثم شرع يسأل أبا سفيان عددا من الأسئلة التي دارت حول نسب الرسول ﷺ وتاريخه وأخلاقه وحال أتباعه ، فتحرى أبو سفيان الصدق في كل ما أجاب به . وهنا قال هرقل : « لئن كنت صدقتني ليغلبتني على ما تحت قدمي هاتين ! » ويعلق أبو سفيان قائلاً : « فقمتم من عنده وأنا أضرب إحدى يدي بالأخرى وأقول : أئى عباد الله ، لقد أمر أمر ابن أبي كبشة ! أصبح ملوك بني الأصفر يهابونه في سلطانهم بالشام » (١) .

وتمضى هذه الرواية فتذكر أن هرقل قال لدحية : « والله إني لأعلم أن صاحبك نبي مرسل وأنه الذي كنا ننتظره ونجده في كتابنا ، ولكنى أخاف الروم على نفسى » . وقد عرض هرقل على الروم - كما يروى الطبرى وغيره - أن يتبعوا محمدا فأبوا ، فعرض عليهم أن يوافقوا على إعطائه الجزية كل عام كسراً لشوكته فأبوا ، فعرض عليهم أن يوافقوا على إعطائه أرض سورية فأبوا كذلك (٢) .

بل إن اليعقوبى يمضى إلى أبعد من ذلك حين يقرر أن هرقل كتب إلى محمد

= ٦٣٠م (انظر التمهيد ، ص ٣٢) ؛ أما كتاب الرسول ﷺ فقد أرسل سنة ٦٢٨م (أوائل سنة ٦٧هـ) . ومع الأخذ في الاعتبار أنه استغرق في وصوله بعض الوقت فإننا نرجح أنه وصل إلى هرقل وهو ما زال بخميص .

(١) انظر القصة بأكملها في تاريخ الطبرى ، ج٢ ، ص ٦٤٦ - ٦٤٨ ؛ والأغاني للأصفهاني ، ج٦ ، ص ٣٤٥ وما بعدها . و «ابن أبي كبشة» تسمية كانت تطلقها قریش على رسول الله ؛ فيقال إن وهب ابن عبد مناف بن زهرة ، أبا أمية (أم الرسول عليه السلام) ، كان يكنى أبا كبشة ؛ وعمرو بن زيد بن ليث النجاري ، أبا سلمى أم عبد المطلب ، كان يكنى أبا كبشة ؛ والحارث بن عبد العزى حاضن رسول الله وروح حليلة السعدية كان يكنى أيضاً أبا كبشة . انظر المعبر لابن حبيب ، ص ١٢٩ - ١٣٠ . وأمر أمره أى تعاطف شأنه .

(٢) تاريخ الطبرى ، ج٢ ، ص ٦٥٠ - ٦٥١ ؛ والكامل لابن الأثير ، ج٢ ، ص ٢١١ .

ﷺ يشهد أنه رسول الله (١) .

والذى نستطيع أن نقرره بعد فحص هذه الروايات أن هرقل لم يسيء إلى مبعوث النبي ﷺ بل أكرمه وأحسن وفادته . أما ما عدا ذلك فنحن نتردد في قبوله ؛ فليس من اليسير أن نصدق أن هرقل عرض على الروم أن يتبعوا محمداً ﷺ أو يعطوه الجزية أو يتنازلوا له عن أرض سورية نتيجة أول خطاب يتسلمه منه ! فهذه الرواية التى تُروى عن أبى سفيان ينقض أولها آخرها ؛ فهى فى بدايتها توحى أن هرقل لم يكن يعلم عن النبي ﷺ شيئاً عندما وصله خطابه ، ثم هى فى النهاية تشير إلى أن هرقل طلب من أتباعه أن يوافقوا على واحد من تلك الأمور الثلاثة التى لا يمكن أن تقدم بمثل هذه البساطة !!

أما رواية اليعقوبى التى تذكر أن هرقل كتب إلى النبي ﷺ كتاباً يعلن فيه إيمانه برسائله فهى لا تثبت أمام المناقشة . فكيف يعلن هرقل ذلك وقد قضى حياته كلها حرباً على الإسلام؟ ومما يشكك فى رواية اليعقوبى وأمثالها أن هرقل غضب على نائبه المقوقس حاكم مصر ونفاه متهما إياه بالجن والكفر والخيانة نتيجة صلحه مع العرب فى خلافة عمر بن الخطاب (٢) . فمن العسير - إذن - أن نتصور أن هرقل أعلن استجابته لدعوة النبي ﷺ ؛ فهذا ولا شك من شطحات خيال بعض المؤرخين المسلمين . ولعل الذى أوحى إليهم بذلك هو حسن استقبال هرقل لمبعوث النبي ﷺ . ولكن هذا لم يكن إلا تصرفاً أملاًه بُعد النظر من سياسى معنك . فأى مكسب كان سيجنيه هرقل لو أنه قتل مبعوث رسول الله أو أساء استقباله ؟!

(١) تاريخ اليعقوبى ، ج ٢ ، ص ٧٨ . ونص كتاب هرقل إلى النبي ﷺ كما يرويه اليعقوبى : « إلى أحمد رسول الله الذى بشر به عيسى ، من قيصر ملك الروم : إنه قد جاءنى كتابك مع رسولك ، وإنى أشهد أنك رسول الله نجّدتك عندنا فى الإنجيل ، بشرنا بك عيسى بن مريم . وإنى دعوت الروم إلى أن يؤمنوا بك فأبوا ، ولو أطاعونى لكان خيراً لهم . ولوددت أنى عندك فأخدمك وأغسل قدميك » . وانظر أيضاً : الاستيعاب لابن عبد البر ، ج ٢ ، ص ٤٦١ ؛ وهو يقول : « آمن ! قيصر ، وأبت بطارفته أن تؤمن » .

(٢) تاريخ الإسلام للسياسى حسن إبراهيم حسن ، ج ١ ، ص ١٦٤ .

ولم يكن المقوقس أقل سياسة من هرقل في استقباله لمبعوث النبي ﷺ (حاطب ابن أبى بلتعة) . يروى ابن عبد الحكم بهذا الشأن أن المقوقس «أكرم حاطباً وأحسن نزلهُ ثم سَرَّحَهُ إلى رسول الله ﷺ وأهدى له مع حاطب كسوة وبغلة بسرجهما وجاريتين» (١) . وتجمع مصادرنا على فحوى هذه الرواية مع اختلاف بينها فى بعض التفاصيل (٢) .

ولكن الملاحظ أن الغساسنة لم يحسنوا استقبال سفراء رسول الله ﷺ . فقد سبق أن ذكرنا أن الحارث بن عمير الأزدي الذى أرسله الرسول ﷺ إلى حاكم بُصْرَى قُتِلَ عند مؤتة على يد شرحبيل بن عمرو الغسانى . كما أن الحارث بن أبى شَمِر الغسانى حاكم دمشق - أو المنذر بن الحارث على إحدى الروايات - أساء استقبال شجاع بن وهب مبعوث رسول الله ﷺ إليه ؛ ويروى أنه قال بعد أن قرأ كتابه إليه : « مَنْ يَنْزِعُ مِنِّى مُلْكِي ؟ أنا سائر إليه » (٣) وقد أخذ المسلمون تهديد الحارث مأخذ الجدل ؛ فيروى بهذا الصدد أن الصحابى أوس بن خولى - وكان مؤاخياً لعمر ابن الخطاب - طرق الباب ذات مساء على عمر طرْقاً شديداً ، وعندما خرج إليه عمر فرِعاً يسأله ما الخبر قال له أوس : « قد حدث اليوم أمر عظيم ! » فقال عمر : « ما هو ؟ أجاءت غسان ؟ » (٤) . ويرى أنه قال : « لعل الحارث بن أبى شمر قد سار إلينا فإنه بلغنا أنه قد أنْعَلَ الخيل » (٥) .

(١) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم ، ص ٤٧ . وإحدى الجاريتين هى مارية التى دخل بها رسول الله ﷺ ، فهى أم ولده إبراهيم ؛ والثانية هى سيرين التى يقال إن النبى أهداها لحسان بن ثابت ، فهى أم ولده عبد الرحمن . وهناك أقوال أخرى يرويها ابن عبد الحكم بهذا الصدد لا موضع لذكرها هنا . نفس المصدر ، ص ٤٧ وما بعدها .

(٢) انظر مثلاً : البدء والتاريخ للمقدسى ، ج٤ ، ص ٢٢٩ ؛ وزاد المعاد لابن القيم ، ج١ ، ص ٣٠ - ٣١ ؛ وعيون التواريخ لابن شاعر الكتبى ، ج١ ، ص ٢٥٤ .

(٣) تاريخ الطبرى ، ج٢ ، ص ٦٥٢ . ونص كتاب رسول الله ﷺ إلى الحارث كما جاء فى الطبرى : «سلام على من اتبع الهدى وآمن به . إني أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له يبقى لك ملكك» .

(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد ، ج٨ ، ص ١٨٢ - ١٨٣ وص ١٩٠ . ويروى البخارى جوهر هذه القصة فى مواضع مختلفة من صحيحه مع تعديلات طفيفة . انظر مثلاً : ج٣ ، ص ١٧٥ ؛ وج٦ ص ١٩٥ - ١٩٦ ، و ج٧ ، ص ٣٦ - ٣٧ و ص ١٩٦ .

(٥) الطبقات الكبرى لابن سعد ، ج٨ ، ص ١٩٠ .

ملاحظات يستدعيها استعراضنا السابق لكتب الرسول إلى الملوك والأمراء :

أولاً : أتاحت الفترة التي تلت صلح الحديبية أمثل الظروف أمام الرسول ﷺ لإرسال هذه الكتب ؛ فقد انتشر بعد هذا الصلح جو من الأمن والسلام كان مناساً صالحاً لنشاط الدعوة الإسلامية وتقدمها بعيداً عن كيد المتآمرين .

ثانياً : كانت هذه الكتب تطبيقاً عملياً لقوله تعالى : ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (١) . فلم تنطو هذه الكتب على أى لون من التهديد أو الإثارة ، وإنما كانت بالأحرى دعوة إلى التوصل إلى «كلمة سواء» .

ثالثاً : كان رد الفعل الذى أظهره كلٌّ من هرقل والمقوقس إزاء هذه الكتب طيباً بعيداً عن العدوانية ؛ فقد أحسن كلاهما استقبال مبعوث رسول الله ، ولم يصدر منهما أذى أو تهديد بالأذى . ومن هنا لم يجد المسلمون مبرراً فى ذلك الوقت لأن يصطدموا بهرقل أو نائبه المقوقس . على أن هذا الاستقبال الطيب لا يبيح لنا أن نذهب إلى المدى الذى ذهب إليه بعض المؤرخين المسلمين حين ذكروا أن هرقل استجاب لدعوة النبي ﷺ أو أبدى استعداداً لدفع الجزية له أو عَقْدِ الصلح معه مع التنازل له عن بعض أراضيه ، فهذا أقرب إلى الخيال منه إلى الحقيقة .

رابعاً : كان الغساسنة عُذُوَانِيَّينَ فى استقبالهم لكتب الرسول ﷺ وسفرائه ؛ فقد قتلوا مبعوثاً للرسول ، وهو الحارث بن عمير الأزدي ، عندلما كان فى طريقه إلى حاكم بصرى . ولا شك أن قتل السفراء يعتبر انتهاكاً لكل الأعراف والقوانين الدولية (٢) ، بل هو نوع من إعلان الحرب . كما أن الحارث بن أبى شمر حاكم دمشق وإقليم البلقاء أساء استقبال مبعوث

(١) سورة النحل : ١٢٥ .

(2) J. Glubb, The Life and Times of Muhammad, p. 289 .

الرسول ﷺ «وأمر بالخیل أن تُنْعَل» (١) ؛ أى هدد بالزحف على المدينة .
وسوف نرى بعد قليل كيف أسهم الغساسنة بموقفهم هذا فى إشعال فتيل
الصراع بين المسلمين والبيزنطيين .

* * * *

مدى وجاهة التشكيك فى وثيقة كتب الرسول إلى الملوك والأمراء :

فى حديثنا عن كتب الرسول ﷺ إلى الملوك والأمراء - ومن بينهم هرقل
والمقوقس وأمراء الغساسنة - تناولنا تحقيق التاريخ الذى كُتبت فيه ، والمضمون
الذى اشتملت عليه ، وردود الفعل التى أبدتها من ذكرنا تجاه هذه الكتب وحاملها
من سفراء الرسول . ولم نجد سبباً من المنطق أو التاريخ يدعونا للتشكيك فى
الوثيقة التاريخية لهذه الكتب .

ومع ذلك فقد وجدنا من الباحثين الغربيين من يلقى ظلالاً من الشك حول
هذه القضية . ومن هؤلاء «جرونيوم» الذى يقول : «إن الوثيقة التاريخية لهذه
السفارات لا يمكن أخذها مأخذ الجد» . ثم يزعم بعد ذلك أن خلفاء محمد هم
الذين صاغوا هذه الرسائل وأنهم أرادوا بذلك «أن يقدموا دليلاً وثائقياً على أن
محمداً أرسل إلى الناس كافة ولم يُرسل إلى العرب فحسب» (٢) . ومن هؤلاء
أيضاً «فاريلىف» الذى يقول : «أما ما يقال من أن محمداً كتب إلى حكام البلاد
الأخرى - وفيهم هرقل - يدعوهم إلى الإسلام وأن هرقل أجاب إجابة رقيقة فهو
الآن أمر يُنظر إليه على أنه من اختراع المتأخرين . ومع ذلك فهناك باحثون - حتى
فى عصرنا هذا - يقبلون هذه المراسلات على أنها حقيقة تاريخية» (٣) .

(١) السيرة الحلبية لعلى بن برهان الدين الحلبي ، ج٣ ، ص ٣٠٥ .

(2) G. E. Von Grunebaum, Classical Islam, p. 42 .

(3) A. A. Vasiliev, History of the Byzantine Empire, p. 211 .

ويتردد هذا الرأي لدى مؤرخين آخرين مثل «جلوب»^(١) و «أميلنو»^(٢) و «ديلاسى أوليرى»^(٣) و «رانسمان»^(٤) وغيرهم .

ورغم أن «مونتجومرى وات» لم يشكك صراحة فى قضية إرسال هذه الرسائل فإنه يعتقد أنها لم تتضمن دعوة الملوك والأمراء إلى اعتناق الإسلام ، وأن ذلك كان من اختراع المتأخرين^(٥) . كما يطرح المستشرق «سوندرو» احتمال أن محمدا حين أرسل كتبه إلى الملوك والأمراء بدأ يفكر فى جعل رسالته عالمية لا محلية^(٦) .
فلنختبر الآن مدى صحة هذه الآراء :

إن الزعم بأن خلفاء الرسول ﷺ هم الذين كتبوا هذه الرسائل رغبة منهم فى إثبات عالمية الدعوة الإسلامية لهو زعم لا يستند إلى أى أساس علمى صحيح ، وذلك للأسباب التالية :

أولاً : أن عالمية الدعوة الإسلامية أمر أثبتته القرآن الكريم بأقوى بيان ، فلم يكن المسلمون بعد وفاة الرسول ﷺ بحاجة إلى إثباته . وقد كانت عالمية الدعوة الإسلامية قضية ثابتة ومقررة منذ ظهور الإسلام بمكة ولم تكن أمراً جَدَّ على الساحة مع ارتفاع شأن الإسلام بالمدينة . فهناك من الآيات المكية فى القرآن الكريم ما يؤكد هذه الحقيقة بما لا يدع مجالاً لأدنى شبهة . فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾^(٧) ، وقوله سبحانه : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾^(٨) ، وقوله جل شأنه : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾^(٩) ، إلى غير ذلك . ولا

(1) J. Glubb, The Great Arab Conquests, p., 89 f.

(٢) انظر حول ذلك : فتح العرب لمصر : لبتلر ، ص ٤٥٧ .

(٣) مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب ، ترجمة د. تمام حسان ، ص ٢٠٤ .

(4) S. Runciman, History of the Crusades, vol. I, p. 13 .

(5) M. Watt, Muhammad at Medina, p. 113 .

(6) J. J. Saunders, A History of Medieval Islam, p. 32 .

(٧) سورة الفرقان : ١ .

(٨) سورة سبا : ٢٨ .

(٩) سورة الانبياء : ١٠٧ .

يستطيع أن يزعم زاعم ، بالطبع ، أن المسلمين هم الذين كتبوا هذه الآيات ونظائرها بعد وفاة الرسول ﷺ سعياً منهم لإثبات عالمية الدعوة الإسلامية .

ثانياً : أن هذه الكتب لم تُجمع على صحتها مصادرنا التاريخية الأساسية فقط مثل تاريخ الطبري واليعقوبي وسيرة ابن هشام وتاريخ ابن عبد الحكم وغير ذلك من المصادر ، بل روى بعضها أكبر حجة في الحديث النبوي وهو البخاري في صحيحه (١) . وإذا كان إجماع المؤرخين والمحققين أمراً لا يدخل في الاعتبار عند تناول القضايا التاريخية فسوف يصبح من الصعب حقا إثبات كثير من حقائق التاريخ .

ثالثاً : ارتبط بعض هذه الكتب بأمر واقعية محسوسة لا مجال لإنكارها تاريخياً . فالمعروف أن المقوقس في رده على رسالة الرسول ﷺ أرسل عدداً من الهدايا من بينها جارتان إحداهما مارية التي أصبحت أم ولده إبراهيم (٢) . ومن الصعب أن ينكر مؤرخ هذه الحقيقة ، كما أنه من المستحيل الزعم بأن المسلمين هم الذين اخترعوا قصة مارية وإبراهيم بعد وفاة الرسول ﷺ !

رابعاً : لا يبدو أن هناك أمراً غير منطقي في إرسال الرسول لهذه الكتب . بل إن تاريخ الرسول ليؤكد أن إرسال هذه الكتب يتسجم تماماً مع واقع حياته بعد البعثة ومقتضيات رسالته . فقد قامت رسالته على الدعوة منذ بعثته حتى مماته . فلم يكن مستغرباً منه أن يرسل تلك الرسائل إلى الملوك والأمراء ليبلغهم دين الله بالحكمة والموعظة الحسنة دون أن يذهب إلى أبعد من ذلك تطبيقاً لقوله تعالى : ﴿ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾ (٣) ولعل المنكرين لهذه الكتب استعظموا أن يرسل رسول الله إلى ملوك مثل هرقل أو خسرو برويز أو المقوقس في صولجانهم وعزتهم يرغبهم في الإسلام . وهؤلاء لم يفهموا أساساً طبيعة الدعوة الإسلامية .

(١) انظر مثلاً ص ٧٥ من الجزء الرابع من صحيح البخاري (باب دعاء النبي ﷺ إلى الإسلام والنبوة) .

(٢) فتوح مصر وإخبارها لابن عبد الحكم ، ص ٤٨ - ٤٩ .

(٣) سورة المائدة : ٩٩ .

ولعل ما مضى يصلح رداً على «سُونْدَرز» الذى يزعم أن محمداً حين أرسل كتبه إلى الملوك والأمراء بدأ يفكر فى جعل رسالته عالمية لا محلية . فالآيات المكية التى أشرنا إليها سابقاً كافية للرد عليه .

أما رأى الذى يعرضه «مونتجومرى وات» ، وهو أن هذه الكتب لم تتضمن دعوة إلى الإسلام ، فهو رأى غريب حقاً ؛ لأننا لا يمكن أن نتصور أن مثل هذه الكتب فى الوقت الذى أرسلت فيه كان يمكن أن تتضمن شيئاً آخر غير الدعوة إلى الإسلام^(١) . فلم يكن هناك احتكاك مباشر بين الرسول ﷺ وهؤلاء الملوك والأمراء قبل إرسال هذه الكتب ، ولم تكن هناك حروب بين المسلمين وبين هؤلاء الملوك . فبالإمكان أن تترتب عليها سفارات بغرض عقد الصلح أو تبادل الأسرى . فالأمر الوحيد الذى كان يمكن أن يدخل فى اعتبار الرسول عند اتصاله بهؤلاء هو دعوتهم إلى الإسلام .

* * * *

أطلنا الحديث عن قضية كتب رسول الله إلى الملوك والأمراء لما لهذه الكتب من أهمية فى إلقاء الضوء على جذور الصراع بين المسلمين والروم فى عصر الرسول عليه السلام ، ولما لها من دلالة بالنسبة لتطور ذلك الصراع فيما بعد .

لقد مثل كتاب رسول الله إلى هرقل أول اتصال مباشر بين المسلمين والروم . وقد كان ذلك فى العام السابع للهجرة كما ذكرنا . ورغم أن هرقل لم يظهر عداءً للدولة الإسلامية بالمدينة - وهو ما وضحه آنفاً - فقد تدهور الموقف تدهوراً واضحاً على الجبهة الشمالية خلال الأعوام الأربعة التالية حتى وفاة رسول الله ﷺ . وقد لعب عرب الشام دوراً أساسياً فى إحداث ذلك التدهور .

(١) يقترح «وات» مضامين غريبة لهذه الكتب ؛ فهو يرى أنه من المحتمل أن يكون الرسول قد عرض على بعض الملوك فيها عقد اتفاق سياسى معهم حتى يفوت على قریش فرصة طلب المعونة من هؤلاء ، وذلك بعد التطورات الخطيرة التى حدثت بالحجاز والتى أحاط الرسول هؤلاء الملوك بها علماً . لمزيد من التفاصيل ارجع إلى : Muhammad, prophet and Statesman , p. 194 - 195 والملاحظ أن «وات» لا يقدم دليلاً على ما يقول؛ فهو يضحى بالحقيقة فى سبيل أوهم لا برهان عليها.

ثانياً ، علاقة الرسول بالقبائل العربية فى الشام ، ودور عرب الشام

فى إشعال فتيل الصراع بين المسلمين والبيزنطيين ،

قد لا نتجاوز الحقيقة إذا قلنا إن الغساسنة - وعرب الشام بصفة عامة - كانوا هم المسئولين فى المقام الأول عن إشعال الشرارة الأولى فى أتون ذلك الصراع الطويل بين المسلمين والبيزنطيين ، وهو الصراع الذى بدأ فى القرن السابع الميلادى ولم ينته إلا فى القرن الخامس عشر .

لقد ذكرنا فى حديثنا عن كتب الرسول ﷺ إلى أمراء الغساسنة أن الحارث بن عمير الأزدي مبعوث رسول الله إلى أمير بصرى لقى مصرعه على يد شرحبيل بن عمرو الغسانى . وقد كانت مهمة الحارث مهمة سلمية وهى مجرد الدعوة إلى الإسلام . ومن هذه الزاوية يُعدّ قتل الحارث جريمة بكل المقاييس . وهى لم تكن جريمة ضد الحارث بقدر ما كانت جريمة ضد الدولة التى ذهب ممثلاً لها وهى الدولة الإسلامية الناشئة بالمدينة . وقد كانت هذه الجريمة بحاجة إلى عقاب يناسب حجمها ولا يتجاوز الغرض منه ليصبح نوعاً من العدوان . ولابد أن نؤكد هنا أن جريمة شرحبيل بن عمرو كانت تعكس موقف الغساسنة بصفة عامة تجاه الدعوة الإسلامية ولم تكن جريمة فردية يتحمل تبعاتها شرحبيل وحده . ويؤكد هذا الموقف العام من الغساسنة ردُّ فعل الحارث بن أبى شمر الغسانى لكتاب الرسول ﷺ إليه ؛ فقد ذكرنا أنه هدد بإعلان الحرب على المدينة وكان جاداً فى تهديده إلى الحد الذى جعل المسلمين يصدقون ما أشيع فيما بعد من أنه أخذ أهبته للهجوم أو «أنعل الخيل» .

وبعد أن مضى على تلك الحادثة ما يزيد قليلاً عن العام حدث أمر آخر جعل المسلمين يتيقنون أن عرب الشام قد أسقطوا من حسابهم مبدأ التعايش السلمى مع الدولة الإسلامية واختاروا أسلوب المواجهة المسلحة ما أمكنهم ذلك . ففى شهر

ربيع الأول من العام الثامن للهجرة^(١) (يوليو سنة ٦٢٩م) بعث الرسول ﷺ كعب ابن عمير الغفاري في خمسة عشر رجلاً إلى موضع يقال له «ذات أطلاق» بأرض الشام^(٢) للدعوة إلى الإسلام ، فخرجت عليهم قضاة بجموعها وهم في هذا العدد القليل فأحاطوا بهم وقتلوه ، فدافع المسلمون عن أنفسهم دفاعاً مستميتاً ، ولكن هذه المعركة غير المتكافئة أسفرت عن استشهادهم جميعاً إلا واحداً أفلت بجراحه وتحامل حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر . وقد شق ذلك على الرسول ، ولكنه لم يستطع أن يثار لأصحابه من قضاة في ذلك الوقت ، حيث علم أنها تركت موضعها إلى موضع آخر^(٣) .

من الواضح أن بعثة كعب بن عمير هذه - وهي التي تدرجها مصادرنا تحت سرايا رسول الله - لم تكن سرية للقتال بل كانت بعثة للدعوة . فمن العسير حقاً أن نتصور أن فريقاً من خمسة عشر رجلاً يمكن أن يذهبوا إلى أرض أجنبية بهدف القتال . ولم يكن الرسول ﷺ بكل خبرته العسكرية ليُقدِّم على خطوة كهذه . وسوف نشير قريباً إلى أنه عندما أراد أن يقاتل عرب الشام بعد أن تكررت جرائمهم ضد الدولة الإسلامية أرسل ثلاثة آلاف مقاتل ليواجهوا العدو على أرض مؤتة .

وإذا كان الهدف من سرية ذات أطلاق - كما قررنا - هو الدعوة فمن الصعب في ضوء ذلك أن نقبل ما يقوله «مونتجومري وات» تعليقا على هذه السرية : «إننا لا نعلم ما هي المهمة التي أناطها محمد بكعب الغفاري وصحبه الأربعة عشر

(١) هذا هو التاريخ الذي نطمئن إليه والذي تذكره معظم مصادرنا . انظر مثلاً : أنساب الأشراف للبلاذري ، ج١ ، ص ٣٨٠ ؛ والمغازي للواقدي ، ج٢ ، ص ٧٥٢ ؛ والطبقات الكبرى لابن سعد ، ج٢ ، ص ١٢٧ ؛ والتنبيه والإشراف للمسعودي ، ص ٢٣٠ . ولكن القليل من المصادر يضع تاريخ هذا الحادث في العام السادس للهجرة . انظر : تاريخ خليفة بن خياط ، ج١ ، ص ٤١ ؛ والمجبر لابن حبيب ، ص ١٢٠ .

(٢) تقع ذات أطلاق - كما يقول المسعودي - «وراء وادي القرى بين تبوك وأذرعات من بلاد دمشق من أرض الشام» . التنبيه والإشراف ، ص ٢٣٠ .

(٣) المغازي للواقدي ، ج٢ ، ص ٧٥٢ - ٧٥٣ ؛ وتاريخ خليفة بن خياط ، ج١ ، ص ٤١ .

عندما أرسلهم إلى حدود الشام . ولكننا مع ذلك نكاد نحزم أنهم لم يكونوا مجرد غزاة بل كانوا منفذين لجزء من خطة بعيدة المدى ^(١) . ونحن نقول إنهم لم يكونوا غزاة على الإطلاق ، ونتفق مع «وات» فى قوله إنهم كانوا منفذين لجزء من خطة بعيدة المدى ، ولكن هذه الخطة البعيدة المدى لم تكن فى رأينا إلا نشر الإسلام بين عرب الشام .

ولم يكذب يمشى شهران على بعثة كعب بن عمير إلى ذات أطلاح حتى حدثت أخطر مواجهة بين المسلمين والبيزنطيين فى مؤتة . وهذا هو موضوع الفصل التالى .

(1) M. Watt, Muhammad at Medina, p. 53 .

الفصل الثاني

سرية مؤتة ٨هـ (٦٢٩م)

ملايساتها - أهدافها - تطوراتها - نتائجها

خلفيات مؤتة وملايساتها :

ذكرنا أن عرب الشام كانوا هم المسئولين في المقام الأول عن إشعال فتيل الصراع بين المسلمين والبيزنطيين . والواقع أن هذه المسئولية لا تنحصر في مرحلة ما بعد الحديبية (أى بعد سنة ٦هـ) ، ولكنها تمتد بجذورها إلى المرحلة السابقة عليها . فلعلنا نتذكر أن قبيلة كلب (من قضاة) - وقد كانت تنزل دومة الجندل - دأبت على مضايقة المسلمين وحاولت أن تفرض عليهم نوعاً من الحصار الاقتصادي عن طريق إيدائها للتجار الذين كانوا يحملون السلع الضرورية من الشام إلى المدينة ، وهم الذين يُعرفون في مصادرنا باسم «الضاافة» . وقد غزا رسول الله ﷺ قبيلة كلب بدومة الجندل سنة ٥هـ ولكنه وجدهم قد تفرقوا . كما أن رجالاً من جذام ولَحْم قطعوا الطريق على دحية بن خليفة الكلبي عند مروره بِحِمْيَ بعد إنجازه لمهمة أناطها به رسول الله ﷺ واستلبوا كل ما معه ، فكانت سرية زيد ابن حارثة إلى حِمْيَ في سنة ٦هـ . ويضاف إلى ذلك أيضاً ما قامت به قبيلتنا مذحج وقضاة من اعتداء على زيد بن حارثة وصحبه في العام المذكور (٦هـ) ، وذلك عندما ذهبوا إلى وادي القرى في بعثة لم تكن على أرجح الاحتمالات إلا بغرض الدعوة .

فإذا جئنا إلى مرحلة ما بعد الحديبية وجدنا هذا المسلك العدواني يأخذ منحى أكثر خطورة . فقد قَتَلَ أحدُ زعماء الغساسنة مبعوث الرسول ﷺ إلى ملك بصرى دون أدنى اعتبار لما تواضعت عليه الدول والمجتمعات من احترام السفراء . كما أن

الحارث بن أبى شمر الغسانى حاكم دمشق أساء استقبال مبعوث رسول الله ﷺ وهدد بإعلان الحرب على المدينة . ثم حدث بعد ذلك بما يزيد قليلا عن العام أن بعث الرسول ﷺ خمسة عشر رجلا من أصحابه إلى «ذات أطلاق» للدعوة إلى الإسلام فأحاطت بهم جموع قضاة وقتلتهم جميعا إلا واحدا أفلت بجراحه وتوجه إلى رسول الله ﷺ بالمدينة حيث أخبره الخبر .

فهذه هى خلفيات مؤتة .

والملاحظ أن معظم مصادرنا تذكر أن السبب فى سرية مؤتة هو مقتل الحارث ابن عمير الأزدى - مبعوث الرسول ﷺ - على يد شرحبيل بن عمرو الغسانى (١) . وهذا بكل تأكيد من بين الأسباب ؛ ولكننا لا نعتقد أنه هو السبب الوحيد أو حتى المباشر لسرية مؤتة . فقد كان مقتل الحارث - على أرجح الاحتمالات - فى أوائل العام السابع للهجرة ؛ وكانت سرية مؤتة فى جمادى الأولى سنة ٨ هـ ، أى بعد ذلك الحادث بأكثر من عام . فهذا الحادث إذن لا يصلح أن يكون سببا مباشرا لسرية مؤتة . وإذا كان لنا أن نبحث عن سبب مباشر لهذه السرية فهو فى الغالب مقتل الدعاة المسلمين بزعماء كعب الغفارى فى «ذات أطلاق» ؛ فقد حدث ذلك فى شهر ربيع الأول سنة ٨ هـ ، أى قبل حدوث سرية مؤتة بحوالى شهرين . ومع ذلك فإننا نرجح أن الأسباب الحقيقية لسرية مؤتة تكمن أساسا فى كل الانتهاكات والاستفزازات التى ارتكبتها عرب الشام ضد المسلمين ابتداء من العام الخامس للهجرة . وكان استشهاد الدعاة المسلمين فى «ذات أطلاق» بمثابة القشة التى قصمت ظهر البعير .

(١) انظر على سبيل المثال : المغارى للواقدي ، ج٢ ، ص ٧٥٥ - ٧٥٦ ؛ والطبقات الكبرى لابن سعد ، ج٢ ، ص ١٢٨ ؛ وأسد الغلبة لابن الأثير (ترجمة الحارث بن عمير) ، ج١ ، ص ٤٠٨ ؛ وتاريخ الإسلام للذهمي ، ج١ ، ص ٤٠١ ؛ والاستيعاب لابن عبد البر ، ج١ ، ص ٢٩٨ .

أهداف مؤتة :

فى ضوء ما ذكرنا عن خلفيات مؤتة وملابساتها نستطيع أن نستنتج أن الهدف الأساسى أمام الرسول ﷺ من وراء هذه السرية كان هو تأديب عرب الشام الذين دأبوا على استفزاز المسلمين وتحديهم وارتكاب الجرائم ضد دعائهم . وتحقيق هذا الهدف معناه فرض هبة الدولة الإسلامية فى تلك المناطق بحيث لا تتكرر مثل هذه الجرائم فى المستقبل وبحيث يأمن الدعاة المسلمون على أنفسهم ويأمن التجار المترددون بين الشام والمدينة من كل أذى يحول دون وصول السلع الضرورية إلى المدينة .

ولابد أن نؤكد فى هذا السياق أن هذه السرية لم تهدف بحال إلى مواجهة البيزنطيين فى الميدان أو فتح صفحة عداء معهم . وقد كان عدد المشتركين فى هذه الحملة من هذه الزاوية - وهو ثلاثة آلاف كما سنشير بعد قليل (١) - كافياً تماماً لتحقيق هذا الغرض المحدود وهو تأديب عرب الشام . ولو كان الروم داخلين فى الحساب عند الإعداد لهذه السرية لما اكتفى الرسول بثلاثة آلاف ؛ بل لهيأ لها كل ما استطاع من عدد وعدة . وسوف نرى عند حديثنا عن غزوة تبوك أن الرسول عندما أراد أن يواجه الروم قاد جيشاً تعداده ثلاثون ألف مقاتل .

وإذا كانت أهداف سرية مؤتة واضحة فى تصورنا فإن بعض الباحثين المحدثين يقترحون أهدافاً أخرى قد تجدر مناقشتها هنا . ومن هؤلاء «فيليب حَتَّى» الذى يذكر أن الهدف الظاهري لسرية مؤتة كان الانتقام لمقتل مبعوث رسول الله إلى أمير بصرى الغسانى ؛ أما الهدف الحقيقى فكان هو الحصول على السيوف المشرفة التى كانت تصنع فى مؤتة والمدن المجاورة لها ، وذلك لاستخدامها فى فتح مكة (٢) . ويضيف «حتى» قائلاً : « إن سياسة الهجوم على الأقطار المجاورة - تلك السياسة

(١) انظر ص ٩٢ فيما يلى ، وهامش ٣ .

(2) Philip Hitti, History of the Arabs , p. 147 . See also the same's History of Syria, p. 403 .

التي بدأها محمد (أى بغزو مؤتة) - كان الهدف منها جعل الدين الجديد مقبولا لدى معتنقيه ^(١) . ومن هؤلاء أيضاً «جلوب» الذى يرى أن محمدا كان يهدف من سرية مؤتة إلى صرف أنظار العرب عن أن يحارب بعضهم بعضا وإلى توجيه اهتمامهم لحرب عدو خارجي ^(٢) .

أما ما يزعمه «فيليب حتى» من أن هدف سرية مؤتة كان هو الحصول على السيوف المشرفية لاستخدامها فى فتح مكة فهو رأى لا يقوم على منطق صحيح . فإذا كان المسلمون قادرين على غزو بلاد الشام - وقد كانت تضم تلك القبائل العربية القوية المتحالفة مع الروم - فى الوقت الذى لم يكن لديهم فيه سيوف مشرفية يستخدمونها فى هذا الغزو . . أفلم يكن بإمكانهم غزو مكة دون السيوف المشرفية ؟ وقد كانت مكة فى ذلك الوقت هدفا سهلا أمام المسلمين ؛ فقد قتل فيها صناديد الكفر أو أسلموا ، ولم تبق فيها بقية صالحة للمقاومة . . أفياخذ المسلمون كل هذا العناء ويتحملون كل هذه المخاطرة من أجل الحصول على السيوف المشرفية لاستخدامها فى فتح مكة لم يكن يبدو أنه يمثل خطرا أو مخاطرة ؟ فهذا رأى إذن ينهدم من داخله . أما الزعم بأن سياسة الهجوم على الأقطار المجاورة - وهى السياسة التى بدأها الرسول بغزو مؤتة - كانت تهدف إلى جعل الدين الجديد مقبولا لدى معتنقيه فهو رأى لا يقل تهافتا عن سابقه . ذلك أن الإسلام لم يكن قط مقبولا لدى معتنقيه بسياسة الهجوم التى لا مبرر لها ولا ضرورة . وقد وضع القرآن الكريم مبدأ الإسلام هنا غاية التوضيح فى آيات عدة ؛ ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ﴾ ^(٣) .

ونأتى الآن إلى رأى «جلوب» الذى يذهب إلى أن سرية مؤتة كانت تهدف إلى

(1) Hitti, History of Syria, 410 .

(2) J. Glubb, The Life and Times of Muhammad, p. 367 .

(3) سورة البقرة : ١٩٤ .

صرف أنظار العرب عن أن يحارب بعضهم بعضا وإلى توجيه اهتمامهم لحرب عدو خارجي .

ولابد لنا أن نتساءل : ماذا يقصد بالعرب هنا ؟ هل هم المسلمون أو جميع العرب ؟ لا يبدو أن المقصود بالعرب هنا هم المسلمون لأن المسلمين في حياة الرسول ﷺ لم يكن بعضهم يحارب بعضا . فالغالب أن «جلوب» يقصد جميع العرب : مسلمين وغير مسلمين . ولا يمكن في ضوء هذا التفسير أن يكون الهدف من سرية مؤتة هو صرف أنظار العرب عن أن يحارب بعضهم بعضا وتوجيه اهتمامهم إلى حرب عدو خارجي ؛ وذلك لعدة أسباب : أولها أن العدو الخارجي الذي توجهت لحربه سرية مؤتة لم يكن في الأساس إلا من العرب ، وهم عرب الشام ^(١) . فقد ذكرنا في حديثنا عن خلفيات مؤتة وملابساتها أن هذه السرية جاءت رداً على الاعتداءات المتكررة من عرب الشام ضد المسلمين ومصالح الدولة الإسلامية في المدينة . أما السبب الثاني - ولعله أهم من سابقه - فهو أن الذين كانوا يشنون الحرب على الدولة الإسلامية من عرب شبه الجزيرة كانوا في نظر الرسول والمسلمين أخطر على الإسلام من العدو الخارجي من أهل الكتاب ، أي من الروم وأحلافهم . فقد كان المسلمون على استعداد كامل لمهادنة أهل الكتاب إذا لم يهددوا أمن الدولة الإسلامية ، ولكنهم لم يكونوا على استعداد لمهادنة المشركين من عرب شبه الجزيرة . والسبب الثالث أن الحرب من الوجهة الإسلامية الصحيحة لم تقم يوما على أساس عرقى ، بل قامت على أسس أيديولوجية ، وذلك عندما تقع العقيدة الإسلامية أو أمن الدولة الإسلامية التي تصونها تحت التهديد .

من كل ما سبق يتضح أن سرية مؤتة كانت ذات طابع دفاعي في الأساس؛ فلم تكن تهدف إلا إلى كفض أذى هؤلاء الذين أخذوا يتحرشون بالمسلمين ، بل ويهددونهم في عقر دارهم .

(١) صحيح أن الروم اشتركوا بعد ذلك في المعركة مساندين لعرب الشام ، ولكن العدو الأساسي الذي توجه المسلمون لحربه لم يكن الروم بل عرب الشام .

جيش المسلمين وجيش العدو في مؤتة وتطورات المعركة :

أسند الرسول ﷺ قيادة سرية مؤتة إلى موله زيد بن حارثة ، فإن استشهد فالقائد جعفر بن أبي طالب ، فإن استشهد فعبد الله بن رواحة ، فإن استشهد فليرتض المسلمون بينهم رجلا فيجعلوه عليهم» (١) .

وقد أوصى الرسول زيد بن حارثة ورجاله «أن يأتوا مقتل الحارث بن عمير وأن يدعوا من هناك إلى الإسلام ، فإن أجابوا وإلا استعانوا عليهم بالله وقاتلوهم» (٢) .

تحرك زيد بن حارثة من المدينة في اتجاه الشام على رأس جيش تعداده ثلاثة آلاف مقاتل طبقا لمعظم الروايات (٣) ، وكان ذلك في جمادى الأولى سنة ٨هـ (سبتمبر ٦٢٩م) . وقد عسكر المسلمون أولا بالجُرْف (على بعد حوالي خمسة كيلو مترات إلى الشمال من المدينة) ، ثم انطلقوا في غزوهم ، وخرج الرسول ﷺ مشيعا لهم حتى بلغ ثنية الوداع (٤) ، ثم أوصاهم وودعهم (٥) .

سمع العدو بتحرك المسلمين قبل أن يصلوا إلى وجهتهم . ويبدو أن عرب الشام تملكهم الفزع عندما جاءتهم أنباء هذا الزحف فاستغاثوا بهرقل . وقد كان

(١) المغارى للواقدي ، جـ ٢ ، ص ٧٥٦ .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ، جـ ٢ ، ص ١٢٨ . ومقتل الحارث بن عمير - كما سبق أن ذكرنا - هو أرض مؤتة . انظر ص ٧٤ من هذا البحث .

(٣) انظر مثلا : المغارى للواقدي ، جـ ٢ ، ص ٧٥٦ ؛ وتاريخ الطبري ، جـ ٣ ، ص ٣٦ ؛ وسيرة ابن هشام ، جـ ٣ ، ص ٤٢٧ ؛ والطبقات الكبرى لابن سعد ، جـ ٢ ، ص ١٢٨ . والملاحظ أن ابن عساكر يذكر في إحدى رواياته أن عدد المسلمين في غزوة مؤتة كان ستة آلاف ، ولكن هذه الرواية تكاد تخرج على إجماع المؤرخين . انظر : تاريخ مدينة دمشق ، جـ ١ ، ص ٣٩٠ . ومن ناحية أخرى يروى السهيلي أنه : «قد قيل إن المسلمين لم يبلغ عددهم في ذلك اليوم ثلاثة آلاف» . وهي رواية لا سند لها . الروض الأنف ، جـ ٧ ، ص ٤١ .

(٤) يربط اليعقوبي بين هذه التسمية وبين غزوة تبوك حيث يذكر في معرض حديثه عن هذه الغزوة أن النساء والصبيان خرجوا يودعون رسول الله ﷺ عند الثنية فسموها «ثنية الوداع» . تاريخ اليعقوبي ، جـ ٢ ، ص ٦٨ . ومع ذلك فإن المؤرخين يستخدمون في العادة هذه التسمية - حتى فيما يتصل بالأحداث السابقة لغزوة تبوك - نظرا لشدة الارتباط بين طرفيها .

(٥) المغارى للواقدي ، جـ ٢ ، ص ٧٥٦ وما بعدها ؛ والطبقات الكبرى لابن سعد ، جـ ٢ ، ص ١٢٨ .

هذا بداية لأن يأخذ اتجاه الحملة منعطفاً خطيراً ؛ فلم يكن المسلمون يضعون فى اعتبارهم أنهم ذاهبون لحرب الروم بل لتأديب عرب الشام . وقد تقدم المسلمون فى مسيرهم حتى وصلوا إلى وادى القرى^(١) ، فأقاموا بها أياماً ، ثم تقدموا حتى نزلوا «معان» التى تقع إلى الشمال الشرقى من مدينة أيلة (العقبة) . وفى «معان» علموا أن هرقل قد نزل «مآب» من أرض البلقاء (انظر الخريطة رقم ٢ ص ١٤٠) .

وتختلف مصادرنا فى تقديرها لعدد جيش العدو . فيروى ابن هشام - ويتابعه فى روايته معظم المؤرخين - أن هرقل كان «فى مائة ألف من الروم ، وانضم إليهم من لخم وجذام وبلقين وبهراء ويلي مائة ألف منهم ، عليهم رجل من بلى . . يقال له مالك بن رافلة»^(٢) . ويروى الواقدي أن هرقل كان على رأس مائة ألف من قبائل بهراء ووائل وبكر ولخم وجذام^(٣) . ويذكر المسعودى أن الروم زحفوا للمسلمين وهم «فى مائة ألف أنفقدتهم هرقل للقائهم وهو يومئذ مقيم بأنطاكية ، وعلى الروم تبادوقس البطريق ، وعلى متصرة العرب من غسان وقضاة وغيرهم شرحبيل بن عمرو الغسانى»^(٤) . ويقول ابن الوردي : «وكانت الروم والعرب المتنصرة فى نحو مائة ألف»^(٥) وهناك رواية تذكر أن الروم كانوا مائتى ألف والعرب المتنصرة خمسين ألفاً^(٦) .

(١) كان الرسول قد فتح «وادى القرى» فى جمادى الآخرة من العام السابع للهجرة عقب فتحه لخير ، وعامل أهلها على نحو ما عامل عليه أهل خيبر ، فترك فى أيديهم الأرض والنخل ، وكان معظمهم من اليهود . انظر : فتوح البلدان للبلاذرى ، ص ٤٧ . ومعجم البلدان لياقوت ، ج ٥ ، ص ٣٩٧ .

(٢) سيرة ابن هشام ، ج ٣ ، ص ٤٢٩ - ٤٣٠ . وانظر أيضاً : تاريخ الطبرى ، ج ٣ ، ص ٣٧ ؛ والكامل لابن الأثير ، ج ٢ ، ص ٢٣٥ ؛ وعيون التواريخ لابن شاعر الكتبى ، ج ١ ، ص ٢٨٠ ؛ وجوامع السيرة لابن حزم ، ص ٢٢٠ - ٢٢١ ؛ وزاد المعاد لابن القيم ، ج ٢ ، ص ١٥٦ ؛ وتاريخ الإسلام للذهبي ، ج ١ - ، ص ٤٠٢ .

(٣) المغارى للواقدي ، ج ٢ ، ص ٧٦٠ .

(٤) التنبيه والإشراف ، ص ٢٣٠ .

(٥) تاريخ ابن الوردي ، ج ١ ، ص ١٩٧ .

(٦) السيرة الحلبية لعل بن برهان الدين الحلبى ج ٢ ، ص ٧٨٧ ؛ والروض للأنف للسهيلى ، ج ٧ ، ص ٤١ .

إن هذه الأعداد الهائلة التى تقدرها مصادرنا لجيش العدو ، والتى تبلغ على أقل التقديرات مائة ألف ، جعلت بعض المؤرخين المحدثين يترددون بحق فى أخذها مأخذ الجدل . ومن هؤلاء الشيخ محمد الخضرى الذى يقول : «وعندنا أن تلك الأعداد التى يذكرها المؤرخون لجنود الروم والعرب الذين معهم مبالغ فيها لأن غاية ما رآه المسلمون أنهم رأوا عدداً كثيراً أمامهم ، ولا يمكن بحال أن يعطوه قدره الحقيقى له» (١) . ويرى بعض الدارسين أن عدد قوات الروم وأتباعهم من العرب كانوا فى حدود عشرين ألفاً ، نصفهم من الروم ، ونصفهم من العرب المواليين لهم (٢) . وهذا التقدير يبدو معقولاً وممكناً . ولكننا نتردد كثيراً فى قبول التقدير الذى يقدمه «جلوب» حيث يذكر أن «جيش الأعداء كان يتكون غالباً من حوالى أربعة آلاف أو خمسة آلاف من رجال القبائل العربية . ومن المحتمل أن يكون هذا العدد قد عُزِّزَ بفوج من الجند أو من المساعدين المحليين» (٣) . فلو صح تقدير «جلوب» لكان الفرق بين جيش المسلمين وجيش العدو محدوداً ولم يكن هناك مبرر أمام المسلمين للتردد فى خوض المعركة بالصورة التى سنها بعد قليل . وقد كانت نسبة الفارق بين المسلمين والمشرىكين فى بدر أكثر من ذلك مع أن المسلمين خاضوا المعركة وانتصروا .

ورغم أن الكثير من مصادرنا - كما تقدم - تشير إلى أن هرقل كان على رأس جيش الروم فى مؤتة فإن الأقرب إلى القبول ما يرويه المسعودى من أن الروم كانوا تحت قيادة أحد البطارقة ؛ وهو الذى يسميه المسعودى «تيادوقس» ، وهو تحريف لاسم ثيودوروس البطريق (Theodorus) كما ذكر بروكلمان (٤) . وتشهد بصحة رواية المسعودى رواية المؤرخ البيزنطى «ثيوفانس» الذى يذكر أن «ثيودوروس» ، الحاكم البيزنطى لتلك المنطقة ، خرج على رأس جيشه حين علم بتحركات الجيش

(١) محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية لمحمد الخضرى ، ج١ ، ص ١٩٤ .

(٢) سيف الله خالد بن الوليد لمصطفى طلاس ، ص ٩٠ .

(٣) J. Glubb, The Life and Times of Muhammad, p. 290 .

(٤) C. Brockelmann, History of The Islamic Peoples, p . 30 .

العربى وفاجأ العرب بهجومه فبدد شملهم عند مؤتة (١) . أما القوات العربية المتحالفة مع الروم فإن الكثير من المصادر - كما سبق - تذكر أنها كانت تحت قيادة رجل من «بلى» اسمه «مالك بن رافلة» . ويذكر البعض أنها كانت تحت قيادة «شرحبيل بن عمرو الغساني» ، فى حين أن بعض التقارير تشير إلى أنها كانت تحت قيادة «ابن أبى سبرة الغساني» (٢) ولعلنا نستطيع أن نستنتج أن القيادة العليا للقوات العربية كانت فى يد شرحبيل بن عمرو ، وكان هناك عدد من القادة الآخرين يعملون تحت توجيهه ، من أبرزهم مالك بن رافلة وابن أبى سبرة .

بعد أن فوجئ المسلمون - وهم بمعان - بما لم يكونوا يتوقعونه من ضخامة جيش العدو أقاموا هناك ليلتين يتشاورون فى أمرهم : هل يتقدمون للقاء هذا الحشد الهائل من الروم والعرب على غير استعداد ؛ أم يعودون إلى المدينة ؟ وقد كان الرأى الذى اطمأن إليه المسلمون فى البداية هو العودة إلى المدينة حيث قالوا لقائدهم زيد ابن حارثة : « قد وَطِئْتَ الْبِلَادَ وَأَخَفْتَ أَهْلَهَا ، فأنصرف ؛ فإنه لا يَعْدِلُ الْعَافِيَةَ شَيْءٌ » (٣) . ولكن عبد الله بن رواحة حسم الموقف بقوله : « يا قوم ، والله إن الذى تكرهون للذى خرجتم تطلبون : الشهادة ! وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ؛ ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به ؛ فانطلقوا ؛ فإنما هى إحدى الْحُسَيْنَيْنِ : إما ظهور ، وإما شهادة » . فتابعه الناس على رأيه قائلين : « قد - والله - صدق ابن رواحة ! ومضوا للقتال » (٤) .

وقد انحاز المسلمون إلى قرية مؤتة (٥) حيث التقوا هناك بجموع هزلة من

(1) Theophanes, Chronographia, p. 335 . See also, Stratos. Byzantium in the Seventh Century, pp. 313 - 314 .

(٢) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ، ج١ ، ص ٣٩٢ . وانظر أيضاً : البداية والنهاية لابن كثير ، ج٤ ، ص ٢٤٧ .

(٣) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ، ج١ ، ص ٣٩٦ .

(٤) تاريخ الطبرى ، ج٣ ، ص ٣٧ - ٣٨ ؛ وسيرة ابن هشام ، ج٣ ، ص ٤٣٠ .

(٥) تقع مؤتة بمنطقة الأردن جنوبى الكرك ، وما زالت تحمل نفس الاسم حتى اليوم .

الروم والمستعربة . ويبدو أن المسلمين اختاروا منطقة مؤتة مسرحاً للقتال لوجود الحواجز الطبيعية التي يستطيعون التحصن بها إزاء التفوق العددي للعدو (١) . وقد التحم الجيشان ، «فقاتل زيد بن حارثة براية رسول الله ﷺ حتى شاط في رماح القوم» (٢) ، ثم أخذها جعفر بن أبي طالب فقاتل مستبسلاً حتى خر شهيداً ، ثم أخذها عبد الله بن رواحة فكان مصيره مصير صاحبيه ، ثم اتفق رأى المسلمين على تسليم الراية لخالد بن الوليد ، وقد كانت مؤتة أول مشاهدته في الإسلام (٣) . ولم تكن المهمة أمامه سهلة ؛ فقد كان عليه أن ينقذ المسلمين من ذلك المأزق الصعب الذي وضعهم فيه تفوق عدوهم في العدد والعتاد . وكان ذلك أول اختبار حقيقى له بعد إسلامه ، وقد أظهر فيه عبقريته العسكرية التي لم تَحُدْ يوماً ؛ فقد عدلَّ في نظام جيشه بأن «جعل مقدمته ساقته وساقته مقدمته وميمته ميسرته وميسرته ميمته فأذكروا (أى الأعداء) ما كانوا يعرفون من راياتهم وهيأتهم وقالوا : قد جاءهم مدد !» (٤) وكانت نتيجة ذلك أن تمكن المسلمون من الانسحاب إلى المدينة دون أن يجرؤ العدو على تعقبهم . ومن هنا أثنى الرسول على خالد بن الوليد حيث قال : «اللهم هو سيف من سيوفك فانتصر به» ، فمنذ ذلك اليوم سمي خالد «سيف الله» (٥) .

وتجدر الإشارة إلى أن عدد شهداء المسلمين في مؤتة يتراوح في مصادرنا بين ثمانية (٦) واثنى عشر (٧) .

-
- (١) سيف الله خالد بن الوليد لمصطفى طلاس ، ص ٩٠ .
 - (٢) تاريخ الطبرى ، ج٣ ، ٣٩ .
 - (٣) العبر للذهبي ، ج١ ، ص ٩ .
 - (٤) المغازى للواقدي ، ج٢ ، ص ٧٦٤ .
 - (٥) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ، ج١ ، ص ٣٩٨ . ويروى : «اللهم إنه سيف من سيوفك فانت تنصره» . تاريخ الطبرى ، ج٣ ، ص ٤١ .
 - (٦) المغازى للواقدي ، ج٢ ، ص ٧٦٩ ؛ وتاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ، ج١ ، ص ٣٩٢ ؛ وتاريخ الإسلام للذهبي ، ج١ ، ص ٤١٦ .
 - (٧) سيرة ابن هشام ، ج٣ ، ص ٤٤٧ ؛ وجوامع السيرة لابن حزم ، ص ٢٢٢ .

مؤتة بين النصر والهزيمة :

إن السؤال الذى يطرح نفسه هنا ، والذى ناقشه كثير من الباحثين المحدثين ، هو : هل كانت معركة مؤتة نصراً للمسلمين أو هزيمة ؟

والناظر فى مصادر السيرة يلفت نظره وجود اتجاهات أساسية ثلاثة حول هذه القضية :

الاتجاه الأول : أن هذه المعركة كانت نصراً للمسلمين رغم أن بدايتها لم تكن فى صالحهم . يذكر الواقدي فى إحدى رواياته أن خالداً لما عدل فى نظام جيشه تصور الأعداء أن المسلمين قد جاءهم مدد «فرعوا فانكشفوا منهزمين فقتلوا مقتلة لم يُقتلها قوم» (١) . ويروى ابن سعد بسنده عن أحد شهود العيان أن خالداً لما أخذ اللواء «حمل على القوم فهزمهم الله أسوأ هزيمة . . حتى وضع المسلمون أسياهم حيث شاءوا» (٢) . وهذا هو ما أثبتته البخارى فى صحيحه حيث روى عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ بعد أن تحدث عن استشهاد الأمراء الثلاثة قال : «حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم» (٣) . ويتبنى ابن كثير هذا الاتجاه ويدافع عنه بقوة (٤) .

الاتجاه الثانى : أن هذه المعركة كانت هزيمة للمسلمين . يروى ابن هشام والطبرى وغيرهما عن ابن إسحاق أن جيش مؤتة لما دنا من المدينة خرج رسول الله ﷺ والمسلمون لاستقباله ، «وجعل الناس يحشون على الجيش التراب ويقولون : يا فراراً فررتم فى سبيل الله ! » ولكن الرسول ﷺ أراد أن يشد من أزهم ويرفع من معنوياتهم فقال : « ليسوا بالفرار ، ولكنهم الكرار إن شاء

(١) المغازى للواقدي ، ج٢ ، ص ٧٦٤ .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ، ج٢ ، ص ١٢٩ - ١٣٠ .

(٣) صحيح البخارى ، ج٥ ، ص ١٨٢ (باب غزوة مؤتة من أرض الشام) .

(٤) البداية والنهاية لابن كثير ، ج٤ ، ص ٢٤٧ - ٢٥٠ . وانظر أيضاً : شذرات الذهب لابن العماد الحنبلى ج١ ، ص ١٢ : «وفتح الله فيها (أى فى مؤتة) على يد خالد بن الوليد» .

الله» (١) . وتروى بعض مصادرنا عن أبى هريرة - وكان ممن شهدوا مؤتة - أنه قال بعد عودته إلى المدينة : «كنا نخرج ونسمع ما نكره من الناس . لقد كان بينى وبين ابن عم لى كلام ، فقال : إلا فرارك يوم مؤتة! فما دريت أى شىء أقول له!» (٢) . ومما يروى أيضاً فى هذا السياق أن سلمة بن هشام بن المغيرة كان فى بعث مؤتة ، ولزم بيته بعد عودته ، «فدخلت امرأته على أم سلمة زوج النبی ﷺ فقالت أم سلمة : مالى لا أرى سلمة بن هشام ؟ أشتكى شيئاً ؟ قالت امرأته : لا والله ، ولكنه لا يستطيع الخروج ؛ إذا خرج صاحوا به وبأصحابه : يا فرار ، أفررت فى سبيل الله ! حتى قعد فى البيت . فذكرت ذلك أم سلمة لرسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « بل هم الكُرار فى سبيل الله ، فليخرج ! فخرج » (٣) .

الاتجاه الثالث : أن هذه المعركة لم تكن بالنسبة للمسلمين نصراً ولا هزيمة ، بل «إن كل فئة انحازت عن الأخرى» كما يقول ابن القيم (٤) ، واستطاع خالد أن يحاشى بالناس (٥) . ويروى ابن عساکر «أن خالداً لما أخذ الراية قاتلهم قتالاً شديداً ، ثم انحاز الفريقان كلٌّ عن كلٍّ قافلاً عن غير هزيمة» (٦) . هذا ؛ وقد أصاب المسلمون من العدو وأصاب العدو منهم ، وغنموا بعض أمتعة المشركين (٧) .

وقد وجدت هذه الاتجاهات الثلاثة صداها عند الباحثين المحدثين . فهناك من يرى أن معركة مؤتة كانت نصراً للمسلمين وذلك مثل «إرفنج Irving» الذى يذكر

(١) سيرة ابن هشام ، ج٣ ، ص ٤٣٨ ؛ وتاريخ الطبرى ، ج٣ ، ص ٤٢ ؛ والكامل لابن الأثير ، ج٢ ، ص ٢٣٨ .

(٢) المغارى للواقدي ، ج٢ ، ص ٧٦٥ .

(٣) نفس المصدر والصفحة .

(٤) راد المعاد ، ج١ ، ص ١٥٦ .

(٥) المعارف لابن قتيبة ، ص ١٦٣ .

(٦) تاريخ مدينة دمشق ، ج١ ، ص ٣٩٧ .

(٧) المغارى للواقدي ، ج٢ ، ص ٧٦٨ . والجدير بالملاحظة أن المصدر الواحد أحياناً قد يقدم روايات متعارضة عن نتيجة معركة مؤتة ، وذلك كما نجد فى الواقدي وابن عساکر ..

أن الروم وأحلافهم تقهقروا أمام هجمات خالد ثم لاذوا بالفرار . وقد تعقبهم المسلمون وأعملوا فيهم السيف وحازوا معسكرهم ورجعوا إلى المدينة بوافر الغنائم (١) . ورغم أن «مونتجومرى وات» يذكر أن المواجهة الإسلامية البيزنطية فى مؤتة كانت أقرب فى طبيعتها إلى المناوشات فإنه يرى أن هذه المناوشات انتهت فى الأرجح لصالح المسلمين ، وإلا لكنت خسائر المسلمين أكثر فداحة (٢) .

ثم إن هناك من الباحثين المحدثين من يرى أن معركة مؤتة كانت هزيمة للمسلمين (٣) . وهناك من يرى أنها لم تكن نصرا ولا هزيمة . يقول مصطفى طلاس بهذا الشأن : « يصف بعض المؤرخين معركة مؤتة بأنها نصر للمسلمين ، ويراهها بعض آخر هزيمة ؛ وفى الحقيقة لم تكن نصرا ولا هزيمة بل كانت معركة اختبار قوة الطرفين » (٤) .

إننا - قبل أن نستطيع أن ندلى برأى فى هذا الشأن - يتعين علينا أن نجيب عن عدة تساؤلات تفرض نفسها هنا . وأول هذه التساؤلات يتصل بعدد شهداء المسلمين فى مؤتة . فمصادرها - كما ذكرنا - تجعل هذا العدد يتراوح بين ثمانية واثنى عشر . إن من حقنا هنا أن نتساءل : كيف يمكننا أن نفسر قلة هذا العدد فى ضوء هزيمة المسلمين وتقهرهم ؛ وهى هزيمة لا يمكن أن تحدث إلا بعد مواجهة دموية بين الطرفين ؟ إن الذى كان يتوقع فى مثل هذا الموقف أن يسقط من المسلمين مئات القتلى ، وذلك قبل أن يتولى خالد القيادة ويُعدّل فى نظام جيشه ليوهم العدو بوصول مدد من المدينة . فتقرير الهزيمة - إذن - لابد أن يراجع فى ضوء هذا التساؤل . وثانى التساؤلات خاص برأى القائلين بأن المسلمين انتصروا.

(1) Washington Irving, Mahomet and his Successors, vol. I, p. 241 .

(2) Watt , Muhammad at Medina, p . 55 .

(٣) انظر مثلا : فتح العرب لمصر ، لبتلر ، ص ١٢٨ - ١٢٩ ؛ والدولة الإسلامية وامبراطورية الروم للدكتور إبراهيم أحمد العدوى ، ص ٤٥ - ٤٦ ؛ وتاريخ الدولة البيزنطية للدكتور جوريف نسيم يوسف ، ص ١١١ .

(٤) سيف الله خالد بن الوليد لمصطفى طلاس ، ص ٩٢ - ٩٣ .

فى مؤتة . فإذا صح ذلك فلماذا اضطروا إلى الانسحاب بهذه الصورة المفاجئة دون أن يؤدبوا تلك القبائل العربية المتحالفة مع الروم ويفرضوا عليها سيادتهم بإلزامها بدفع الجزية كما سوف يحدث فى غزوة تبوك ؟ فتقرير النصر - إذن - لابد أن يراجع فى ضوء هذا التساؤل . ويبقى تساؤل ثالث متصل بالتساولين السابقين وهو أن المسلمين إذا لم يكونوا قد انتصروا أو انهزموا فكيف نفسر تقارير النصر وتقارير الهزيمة ؟

إن الذى نظمثن إليه من خلال تشابك الروايات واختلاطها أن المسلمين فى مؤتة إن لم يكونوا قد حققوا انتصاراً ظاهراً على عدوهم فإنهم كانوا أقرب إلى النصر منهم إلى الهزيمة . ولكننا نميل فى نفس الوقت إلى الموافقة على ما يقترحه «مونتجومرى وات» وهو أن المواجهة الإسلامية البيزنطية فى مؤتة كانت أقرب ما تكون إلى المناوشة . وقد استطاع المسلمون خلال ذلك - بفضل أسلوبهم البارع فى المناورة وقدرتهم على الكر والفر - أن يصيبوا من عدوهم أكثر مما أصاب عدوهم منهم ، كما تمكن قُطبة بن قتادة العُذرى قائد ميمنة المسلمين أن يقتل قائداً بارزاً من قواد العرب المنتصرة وهو مالك بن رافلة ^(١) . ويروى البخارى فى صحيحه عن خالد بن الوليد أنه قال : «لقد دُقَّ فى يدى يوم مؤتة تسعة أسياف وصَبَرْتُ فى يدى صفيحة لى يمانية» ^(٢) . يقول ابن كثير تعليقا على حديث خالد : «ماذا ترى قد قتل بهذه الأسياف كلها؟! دع غيره من الأبطال والشجعان» ^(٣) . فالواضح من فحص الروايات المختلفة أن المسلمين صمدوا أمام جموع الروم والعرب المنتصرة واستطاعوا بالمناورة والمداورة أن يتجنبوا إحاطة العدو بهم وسَحَقَهُ لهم وأن يُنْزِلُوا به فى الوقت نفسه أذى بالغاً . ولا يمكن فهم قلة عدد شهداء المسلمين فى مؤتة إلا فى ضوء ما ذكرنا الآن من أن المواجهة الإسلامية البيزنطية هناك كانت إلى

(١) تاريخ الطبرى ، جـ ٣ ، ص ٤١ .

(٢) صحيح البخارى ، جـ ٥ ، ص ١٨٣ . وانظر أيضاً : أسد الغابة لابن الأثير ، جـ ٢ ، ص ١١٠ (ترجمة خالد بن الوليد) .

(٣) البداية والنهاية ، جـ ٤ ، ص ٢٥٩ .

طبيعة المناوشة أقرب منها إلى طبيعة الحرب الشاملة ، وأن المسلمين في هذه المواجهة كانوا أصحاب الكفة الراجحة .

أما قرار المسلمين بالانسحاب فهو يرجع - في أغلب الظن - إلى إدراكهم بأن تحقيق النصر الحاسم أمر متعذر في ظل الظروف التي كانت تحيط بهم . لقد كانوا يحاربون في أرض بعيدة ويواجهون عدواً أكثر منهم عدداً وعدة ، وكانوا في الوقت نفسه مهددين بنفاد ما معهم من مؤن . ومن هنا كان قرارهم بالانسحاب قراراً حكيماً أملت تلك الظروف كلها ، ولم يكن قراراً ناجماً عن هزيمة بحال من الأحوال .

وبهذه الصورة يمكننا أن نفهم التقارير التي تتحدث عن نصر المسلمين في مؤتة أو هزيمتهم وأن نضعها في موضعها الصحيح . لقد أظهر المسلمون كثيراً من صور البطولة في مؤتة وأحرزوا بعض النجاح ، ولكن هذا لا يدفعنا إلى القول بأنهم حققوا انتصاراً كاملاً ، وذلك في ضوء الظروف التي ذكرناها . كما أنهم آثروا الانسحاب في ظل نفس الظروف ، ومن ثم لا يمكن أن نأخذ انسحابهم على أنه هزيمة .

أخطر نتائج مؤتة : بروز الروم على ساحة الصراع المباشر ضد المسلمين :

وإذا كان هناك خلاف حول نتيجة معركة مؤتة من منظور النصر والهزيمة فإن النتيجة التي لا خلاف حولها - والتي تُعدُّ أخطر نتائج مؤتة على الإطلاق - أن هذه المعركة لفتت أنظار المسلمين إلى أن هناك عدواً شرساً في الشمال يترصد بهم الدوائر ويتحين الفرص للانقضاض عليهم وذلك هو الدولة البيزنطية . فالنتيجة المحققة لمعركة مؤتة هي بروز العدو البيزنطي على الساحة الإسلامية بكل جبروته وعنفواته . لقد أراد المسلمون أن يواجهوا عرب الشام في مؤتة فإذا بهم يواجهون عدواً أشدَّ خطراً وأحدَّ نأباً وهو امبراطورية الروم . ومن هنا كان على المسلمين أن

يعيدوا حساباتهم ويراجعوا خططهم .

والواقع أن كل العداوات المستقبلية بين المسلمين والبيزنطيين يمكن رد جذورها إلى تلك المواجهة القاسية في مؤتة ؛ فقد كانت مؤتة - كما يذكر العديد من المؤرخين - هي الشرارة الأولى في ذلك الصراع الإسلامي البيزنطي الذي قُدِّر له أن يستمر أكثر من ثمانية قرون (١) .

في أعقاب مؤتة :

أدرك المسلمون بعد سرية مؤتة أن الصدام بينهم وبين البيزنطيين قادم لا محالة وأن إعداد أنفسهم لاحتمالات ذلك الصدام أصبح من أهم الواجبات التي تمليها عليهم ضرورة تأمين دولتهم . وقد حدثت في الفترة الواقعة بين مؤتة وتبوك سرية ينبغي أن يُنظر إليها في هذا الإطار ، وهي المعروفة باسم :

سرية ذات السلاسل :

وقد رأينا أن سرية مؤتة برهنت على أن التجمع العربي القبلي المعادي للمسلمين بالشام كان خطيراً ؛ ولم يستطع المسلمون قص أجنته هناك . وقد أراد الرسول ﷺ أن يتألف بعض القبائل العربية المهمة على حدود الشام وأن يكسب ولاءها عن طريق محاولة نشر الإسلام بينها ؛ ففي ذلك - أولاً - امتداد للإسلام ورفعته لشأنه ؛ وفيه - ثانياً - تأمين لجبهة خطيرة معادية مركزها الشام . ومن هنا جاءت سرية ذات السلاسل .

ففي الشهر التالي لسرية مؤتة ، أي في جمادى الثانية سنة ٨ هـ (أكتوبر ٦٢٩م)، أرسل النبي ﷺ حملة إلى مكان يعرف بذات السلاسل بمشارف الشام .

(1) J. Saunders, A History of Medieval Islam, p. 32 ; philip Hitti, History of the Arabs , p. 147, W. Irving, Mahomet and his Successors, vol . I, p. 338 f.

وانظر أيضاً : فتح العرب لمصر ، لبتلر ، ص ١٢٨ .

والسلاسل ماء بأرض جذام (حِمْيَ) ، وبه عرفت هذه السرية (١) . وقد أسند الرسول ﷺ قيادة هذه الحملة إلى عمرو بن العاص الذى كان قد أسلم قبل ذلك بقليل (صفر من نفس العام) (٢) . وكانت الحملة فى البداية تتكون من ثلاثمائة من «سراة المهاجرين والأنصار» (٣) . وبعد أن تقدم عمرو فى مسيره علم أن هناك تجمعاً كبيراً فى المنطقة التى كان يقصد لها ، فاستمد الرسول فأمده بمائتين من أعيان المهاجرين والأنصار بإمارة أبى عبيدة بن الجراح - وكان فيهم أبو بكر وعمر - فلما لحق أبو عبيدة بعمرو صار الأول تحت إمرة الأخير (٤) .

ونجد الإشارة هنا إلى أن مصادرنا تختلف فى تناولها لأسباب سرية ذات السلاسل . فيروى الواقدي أن سبب هذه السرية هو ما علمه رسول الله ﷺ من أن «جمعا من بلى وقضاة قد تجمعوا يريدون أن يدنوا إلى أطراف رسول الله ﷺ» (٥) ، أى يريدون الهجوم على الدولة الإسلامية . وهناك رواية أخرى تذكر أن الرسول أرسل عمرو بن العاص «إلى أرض بلى وعذرة يدعو الناس إلى الإسلام، فسار حتى إذا كان على ماء بأرض جذام يقال له السلاسل خاف فأمده رسول الله ﷺ بأبى عبيدة فى المهاجرين الأولين» (٦) . فهذه الرواية الثانية لا تجعل السبب فى سرية ذات السلاسل ما أشيع من عزم بعض القبائل العربية على الهجوم على أطراف المدينة بل تربط بين سبب هذه السرية وبين دعوة بعض قبائل الشام إلى الإسلام .

إن الرواية الثانية - فى تصورنا - أكثر اتساقاً مع ظروف هذه السرية من الرواية

(١) معجم البلدان لياقوت ، ج٢ ، ص ٢٣٣ ، ٢٥٨ ؛ وعيون التواريخ لابن شاکر الکتبی ، ج١ ، ص ٢٨٥ .

(٢) أنساب الأشراف للبلاذرى ، ج١ ، ص ٣٨٠ - ٣٨١ . ويروى أنه أسلم عام خيبر (٧هـ) . انظر حول ذلك : أسد الغابة لابن الأثير ، ج٤ ، ص ٢٤٤ - ٢٤٥ .

(٣) المغارى للواقدي ، ج٢ ، ص ٧٧٠ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٧٧٠ - ٧٧١ . (٥) نفس المصدر ، ص ٧٧٠ .

(٦) عيون التواريخ لابن شاکر الکتبی ، ج١ ، ص ٢٨٥ .

الأولى . وفى ضوء مناقشتنا لأسباب هذه السرية نستطيع أن نحدد أهدافها . إننا لا نعتقد أن سرية عمرو بن العاص هذه كانت تهدف إلى القتال أساساً ، وإن كان احتمال القتال وارداً دفاعاً عن النفس . ولو كان الهدف من هذه السرية القتال - كما كان الهدف فى مؤتة - لجهاز الرسول مع عمرو جيشاً إن لم يتفوق عدداً على جيش المسلمين فى مؤتة فلا يمكن أن يقل عنه ، خصوصاً بعدما فوجئ به المسلمون فى مؤتة من أعداد هائلة وبعد اضطرابهم إلى الانسحاب نتيجة عدم توازن القوى . فلا يبقى هنالك من هدف واضح لهذه السرية إلا محاولة كسب ولاء أهم القبائل العربية بالشام عن طريق دعوتها إلى الإسلام ، فإن لم يتسَن ذلك فلا أقل من تخييدها فى الصراع الدائر بين المسلمين والبيزنطيين . ولعل التقرير التالى عن ابن إسحاق يلقى مزيداً من الضوء على هذه النقطة :

« بعث رسول الله ﷺ عمرو بن العاص ليستنفر العرب إلى الإسلام ؛ وذلك أن أم العاص بن وائل كانت امرأة من بلى ، فبعثه رسول الله ﷺ إليهم يستألفهم بذلك ، حتى إذا كان على ماء بأرض جذام يقال له السلاسل - وبذلك سميت تلك الغزوة ذات السلاسل - فلما كان عليه خاف فبعث إلى رسول الله ﷺ يستمده فبعث إليه أبا عبيدة بن الجراح فى المهاجرين الأولين فيهم أبو بكر وعمر » (١) .

يلفت نظرنا فى هذا التقرير أمران : أولهما أن هدف هذا البعث كان استنفر العرب إلى الإسلام ؛ وثانيهما أن اختيار عمرو بن العاص قائداً لهذا البعث كان محققاً تماماً لهذا الهدف ؛ فعمر بن العاص - رغم حداثة فى الإسلام ورغم وجود من هو أرسخ منه قدماً فيه من أعضاء بعثته - تولى القيادة ليتألف به رسول الله ﷺ قلوب «بلى» ومن عاصدها ؛ ذلك أن عمرو بن العاص كان ذا رحم فيهم ؛ فإن أم العاص بن وائل - وهى جدة عمرو - كانت من «بلى» (٢) .

(١) انظر هذه الرواية عن ابن إسحاق فى تاريخ مدينة دمشق لابن عساکر ، ج١ ، ص ٤٠٤ ، وقارن بما فى سيرة ابن هشام ، ج٤ ، ص ٢٩٨ - ٢٩٩ .

(٢) أسد الغابة لابن الأثير ، ج٤ ، ص ٢٤٥ .

وقد ذكرنا أن عمرا بعد أن تقدم وعلم بتجمعات لم يكن يتوقعها أخبر رسول الله ﷺ فأمدّه بمائتين . فهذا المدد كان نوعا من التأمين ، لأن السرية - كما قررنا - لم تكن أصلا بهدف القتال . وقد أوصى رسول الله ﷺ أبا عبيدة حين أرسله مددا لعمر بن الخطاب ألا يختلف معه ^(١) . فالرسول بحصافته وفطنته السياسية أدرك أن بعض قدامى المهاجرين والأنصار قد لا يرضون بإمارة عمرو مع وجود رجل كأبي عبيدة أو أبي بكر أو سواهما ممن هم أعرق منه ماضيا في الإسلام . ولكن تعيين أبي عبيدة أو أبي بكر مثلا قد يلغى الهدف الأساسى من هذا البعث وهو استنفار هؤلاء العرب إلى الإسلام - وهو الهدف الذى يمكن تحقيقه بتعيين عمرو صاحب الرحم بلى . وقد عمل أبو عبيدة بتوجيه الرسول ﷺ ، وسلّم لعمر بالإمارة ^(٢) .

وقد نجحت حملة عمرو نجاحا هائلا ؛ فقد انضم إليه بعض تلك القبائل العربية . وكان الرسول ﷺ قد «أمره أن يستعين بمن مر به من العرب وهى بلاد بلى وعُدرة وبلقين» ^(٣) .

وإذا ثبت لنا أن سرية عمرو بن العاص إلى ذات السلاسل كانت بهدف تأليف قلوب عرب الشام وكسب ولائهم ونشر الإسلام بينهم إن أمكن فإن لنا أن نراجع ما تذكره بعض مصادرنا من أن عمرا «وطئ بلاد بلى ودوخها» ^(٤) . ولعل المقصود بذلك أنه لم يجد هناك مقاومة تذكر أثناء أدائه لمهمته . وربما تكون قد حدثت بعض المناوشات الخفيفة من بعض العناصر التى لم تكن ترحب ببعث يهدف إلى كسب ولاء عرب الشام . وما يلقى مزيدا من الضوء على ذلك ما

(١) هناك رواية تقول إن الرسول ﷺ بعث بعثين إلى كلب وغسان وكفار العرب بالشام وأمر على أحد البعثين أبا عبيدة وعلى الآخر عمرو بن العاص . انظر : تاريخ مدينة دمشق ، ج ١ ، ص ٤٠٥ . ولكن الذى تردده معظم مصادرنا أن ذلك كان بعثا واحدا بقيادة عمرو بن العاص وأن بعث أبي عبيدة كان مددا لعمر ؛ وهو ما يبدو متسقا مع سياق الأحداث .

(٢) المغازى للواقدي ، ج ٢ ، ص ٧٧١ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٧٧٠ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٧٧١ . وانظر أيضا الطبقات الكبرى لابن سعد ، ج ٢ ، ص ١٣١ .

يرويه الواقدي من أن عمرو بن العاص «كلما انتهى إلى موضع بلغه أنه كان بهذا الموضع جمع فلما سمعوا به تفرقوا حتى انتهى إلى أقصى بلاد عذرة وبلقين ولقي في آخر ذلك جمعا ليس بالكثير فقاتلوا ساعة وتراموا بالنبل . . وحمل المسلمون عليهم فهربوا وأعجزوا هربا في البلاد وتفرقوا ، ودوخ عمرو ما هناك» (١) . إن ذلك كله يدل على أنه لم يكن هناك قتال حقيقي وأن سرية عمرو كانت ناجحة في كسب ولاء الكثيرين من عرب الشام . أما هذه المناوشات القليلة فقد كانت أمرا ثانوياً لا يمكن أن يؤثر على مستوى النجاح العام لسرية عمرو من منظور الدبلوماسية . إننا - في ضوء ذلك - لا بد أن نتردد في قبول ما يرويه البلاذري من أن عمرا «لقى العدو من قضاة وعاملة ولخم وجذام وكانوا مجتمعين ففضهم وقتل منهم مقتلة عظيمة وغنم» (٢) . فكيف يلقي عمرو ، وهو في خمسمائة من أصحابه ، جموع العدو من قضاة وعاملة ولخم وجذام فيفرقهم ويقتل منهم مقتلة عظيمة ويغنم ؟ إن كل الملابس التي أحاطت بسرية عمرو بن العاص إلى ذات السلاسل تجعلنا نعتقد أنه لم يكن هناك قتال حقيقي وبالتالي لم تكن هناك غنيمة . وعلى أساس نفس المنطق الذي جعلنا نتردد في قبول رواية البلاذري يمكننا أن نتردد أيضاً في قبول رواية المسعودي وفحواها أن عمرو بن العاص لقيته جموع الروم ومنتصرة العرب (٣) . فكيف نستطيع أن نصدق أن جموع الروم ومنتصرة العرب لقيت عمراً وهو في هذا العدد القليل دون أن تنزل بأصحابه أفدح الخسائر ؟

* * * *

(١) المغاري ، جـ ٢ ، ص ٧٧١ .

(٢) أنساب الأشراف ، ج ١ ، ص ٣٨١ .

(٣) التنبيه والإشراف ، ص ٢٣١ .

نأتى إلى خلاصة هذا الفصل وهى أن العام الثامن للهجرة شهد ثلاث سرايا فى بلاد الشام كان أخطرها بكل تأكيد سرية مؤتة ، وهى التى فتحت صفحة الصراع الإسلامى ضد الروم كما ذكرنا . أما السريتان الأخرى فكانت إحداهما بعثاً خالصاً للدعوة وهى سرية ذات أطلاق ؛ وكانت الأخرى بعثاً هدفه الأساسى محاولة اكتساب ولاء القبائل العربية فى الشام أو تحييدها على الأقل فى الصراع الذى بدأ منذ قليل بين المسلمين والبيزنطيين وهى سرية ذات السلاسل .

وقد سبق أن ذكرنا أن تجربة المسلمين فى مؤتة وما عاينوه من عدد الروم وعدتهم جعلتهم يحسبون لهم حساباً ويعتقدون أن الصدام بهم قادم لا محالة ؛ ومن هذه الزاوية يمكن النظر إلى غزوة تبوك ، وهى موضوع الفصل التالى .

* * * *

الفصل الخامس

غزوة تبوك بين الفعل

ورد الفعل ٩ هـ (٦٣٠م)

خلفيات الغزوة وملابساتها :

يذكر الواقدي في تناوله لسبب غزوة تبوك أن المسلمين علموا « أن الروم قد جمعت جموعاً كثيرة بالشام وأن هرقل قد رزق أصحابه لسنة ، وأجلبت معه لحم وجذام وغسان وعاملة وزحفوا وقدموا مقدماتهم إلى اللقاء » (١) . وكان هذا الخبر مصدره الأنباط الذين كانوا يُعرفون باسم الضافطة ، وكانوا يأتون من الشام إلى المدينة بالسلع الضرورية مثل الدقيق والزيت ؛ « فلما كانت أخبار الشام عند المسلمين كل يوم لكثرة من يقدم عليهم من الأنباط » (٢) .

ويذكر البلاذري في تناوله لسبب هذه الغزوة « أن هرقل ومن اجتمع إليه من لحم وجذام وعاملة وغيرهم أظهروا أنهم يريدون غزو رسول الله ﷺ » (٣) ؛ أى يريدون الهجوم على المدينة .

فالواضح إذن أن المسلمين أحسوا أنهم أمام تهديد خطير من البيزنطيين وأحلافهم من عرب الشام ، وأن المدينة ذاتها كانت واقعة تحت طائلة هذا التهديد؛ ومن هنا قرر الرسول ﷺ أن يفوت الفرصة على العدو فأعد جيشاً قوامه ثلاثون ألف مقاتل وتقدم به إلى الشام ، « وذلك في زمن عُسرة من الناس وشدة من الحر وجذب من البلاد ، وحين طابت الثمار وأحببت ، فالناس يحبون المقام في ثمارهم

(١) المغازي ، ج٣ ، ص ٩٩٠ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

(٣) أنساب الأشراف ، ج١ ، ص ٣٦٨ .

وظلالهم ويكرهون الشخوص عنها على الحال من الزمان الذى هم عليه» (١) .
وكان خروج الرسول ﷺ إلى الشام فى رجب سنة ٩ هـ (أكتوبر ٦٣٠ م) (٢) .

هذا هو التفسير الذى نطمئن إليه فى مناقشة سبب هذه الغزوة . أما ما يقال من أن التجربة القاسية التى تعرض لها المسلمون فى مؤتة كانت وراء قرار الرسول بالخروج إلى غزوة تبوك فهذا رأى لا يبدو متسقاً مع منطق الأحداث . ويتردد هذا الرأى فى بعض مصادرنا (٣) ، ويأخذ به بعض المؤرخين المحدثين (٤) ، ولكنه رأى ظاهر البطلان كما سيتضح لنا عند مناقشتنا لأهداف غزوة تبوك .

والجدير بالملاحظة فى هذا السياق أن الروم كانت لهم مهابة خاصة بين المسلمين؛ فقد خرجوا منتصرين على الفرس وأزاحوهم من الشام ومن آسيا الصغرى ، بل وهددوا عاصمتهم المدائن ؛ كما كانت تجربة مؤتة ماثلة فى الأذهان . وفى نفس الوقت كان كثير من المسلمين على إدراك كامل لقوة الروم وشوكتهم وذلك من خلال ما رأوه منهم أثناء رحلاتهم التجارية إلى إقليم الشام فى الجاهلية . يقول الواقدي : « ولم يكن عدو أخوف عند المسلمين منهم [أى من الروم] وذلك لما عاينوا منهم - إذ كانوا يقدمون عليهم تجاراً - من العدد والعدة والكرام » (٥) .

ويذكر الواقدي أن ما بلغ المسلمين عن استعدادات الروم للهجوم عليهم كان خبيراً لا أساس له من الصحة . ولكن الذى نرجحه - فى ضوء ما سنراه بعد

(١) تاريخ الطبرى ، ج٣ ، ص ١٠١ . وانظر أيضاً : صحيح البخارى (باب غزوة تبوك) ، ج٦ ، ص ٤ (مع اختلاف فى العبارة) .

(٢) أنساب الأشراف للبلاذرى ، ج١ ، ص ٣٦٨ ؛ والمعارف لابن قتيبة ، ص ١٦٥ .

(٣) تاريخ اليعقوبى ، ج٢ ، ص ٦٧ . ونص كلامه : « سار رسول الله فى جمع كثير إلى تبوك من أرض الشام يطلب بدم جعفر بن أبى طالب » .

(٤) C. Brockelmann, History of the Islamic Peoples, p. 34 ; J. Saunders, A History of Medieval Islam, p. 33 ; J. Glubb , The Great Arab Conquests, p. 99 .

(٥) المغازى ، ج٣ ، ص ٩٩٠ .

قليل - (١) أن هذه الإشاعة قد اعتمدت على أساس صحيح وأن الروم وحلفاءهم قد فكروا فعلاً في غزو المدينة واتخذوا بعض الاستعدادات في هذا السبيل ثم تراجعوا مؤقتاً حتى يأخذوا لذلك الغزو مزيداً من الأهبة .

مناقشة أهداف الغزوة :

في ضوء ما ذكرنا عن خلفيات غزوة تبوك وملابساتها نستطيع أن نحدد الهدف الواضح لهذه الغزوة وهو إجهاض مخطط الروم وأتباعهم في الهجوم على قاعدة الدولة الإسلامية . ويتضح هذا الهدف تماماً إذا أخذنا في الاعتبار ما أحاط بهذه الغزوة من ظروف صعبة جعلت الكثيرين لا يسارعون إلى الاشتراك فيها ويرغبون في البقاء في المدينة . فلولا ضرورة التصدي للهجوم الوشيك على الدولة الإسلامية لما حمل الرسول ﷺ أتباعه عنتنا ولا اختار من الأوقات ما لا يشق عليهم .

هذا هو الهدف الذي نحس أنه يتسق تماماً مع الملابس التي أحاطت بهذه الغزوة . ولكن اليعقوبي يروى ما يفيد أن الرسول كان يهدف من وراء خروجه إلى تبوك إلى الانتقام لمقتل القادة المسلمين في مؤتة (٢) . ونجد هذا الرأي يتردد لدى بعض المؤرخين المحدثين (٣) . وهناك أيضاً من هؤلاء من يذكر أن هدف الرسول من هذه الغزوة كان هو شغل أهل المدينة بحرب تقضى على حالة السخط التي أصابتهم نتيجة تقسيمه لغنائم حنين (٤) ؛ أو أن هدفه كان إخضاع عرب الشام الذين كانوا يتمتعون بتأييد الروم (٥) .

إن الرد على هذا كله يكمن في حقيقة تاريخية سبقت الإشارة إليها وهي أن

(١) انظر ص ١١٣ - ١١٤ من هذا الفصل .

(٢) انظر هامش [٣] من صفحة ١١٠ .

(٣) انظر هامش [٤] من صفحة ١١٠ .

(4) Brockelmann, History of the Islamic Peoples, p. 34 .

(5) Idem . See also, Von Grunebaum, Classical Islam, p. 45 .

الرسول ﷺ قام بالإعداد لهذه الغزوة في زمان عسرة ؛ ولهذا سمي جيش ت «جيش العسرة» (١) . وقد كان خروج المسلمين لهذه الغزوة أمراً لا مندوحة عنه وضرورة اقتضاها تهديد الروم لأمن الدولة الإسلامية ؛ وهذا ما يعنيه قول به المؤرخين : « فتجهزوا على كره » (٢) . ولو كان الهدف من غزوة تبوك هو لشهداء مؤنة أو إخضاع عرب الشام أو الحصول على الغنائم لما اختار الرسول أ الأوقات على المسلمين وأبعدها عن ملائمة ظروفهم . فلا يبقى هناك من ه واضح لغزوة تبوك إلا ما ذكرنا من صد هجوم متوقع لو لم يجد من يتصدى لهدد الدولة الإسلامية في صميم وجودها .

ترتيبات الغزوة وتطوراتها :

أعد الرسول ﷺ لغزوة تبوك ما لم يعده قبلها لأية غزوة ، سواء من - العدد أم العتاد . وقد كان من عادة الرسول إذا توجه للغزو ألا يصرح بحقه وجهته من أجل التمويه على العدو ، لكنه لم يفعل ذلك في غزوة تبوك ؛ أخبر الناس بالوجه الذي يريد نظراً لخطورة هذه الغزوة وحتى يأخذ الناس الأهمية اللازمة (٣) .

لقد استنفر الرسول قبائل العرب في كل بقعة ظهر فيها الإسلام في ش الجزيرة العربية وحض المسلمين على الصدقات ؛ فيروى أن أبا بكر الصديق تص بكل ماله وأن عثمان بن عفان جهز ثلث الجيش في تلك الغزوة (٤) .

ولم تكن مهمة الإعداد لهذه الغزوة سهلة أمام الرسول ﷺ ؛ فقد است-

(١) أنساب الأشراف للبلاذري ، ج١ ، ص ٣٦٨ ؛ والتهني والإشراف للمسعودي ، ص ٢٣٥ .

تسمى الغزوة أيضاً : « غزوة العسرة » . صحيح البخاري ج٦ ، ص ٢ .

(٢) عيون السوارى لابن شاكركتسبى ، ج١ ، ص ٣٤٥ . وراجع أيضاً : تاريخ الطبرى ، ج١ ص ١٠١ .

(٣) المغارى للواقدي ، ج٣ ، ص ٩٩٠ . وانظر أيضاً : صحيح البخاري ، ج٦ ، ص ٤ : « ف للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم » .

(٤) المغارى للواقدي ، ج٣ ، ص ٩٩١ .

الخوف ببعض من عرض عليهم الاشتراك فى الغزوة مما جعلهم يتثاقلون ولا يخفون لداعى الجهاد . بل إن الخوف من الروم وصل ببعض المنافقين درجة جعلتهم يخشونهم وهم فى منازلهم . ومما يرى فى هذا السياق أن الجلد بن قيس - وكان منافقاً - لم يستجب لدعوة الرسول له للمشاركة فى تبوك ، فجاءه ابنه عبد الله - وكان صحيح الإيمان بدرىاً - يؤنبه على القعود مع كثرة ماله ، فقال له الجلد : «يا بنى ، مالى وللخروج فى الريح والحر والعسرة إلى بنى الأصفر ؟ والله ما آمن خوفاً من بنى الأصفر وإنى فى منزلى . . فأذهب إليهم فأغزوهم ! إنى والله يا بنى عالم بالدوائر !» (١) . وقد انسحب عبد الله بن أبى بن سلول رأس المنافقين بكل عسكره بعد أن سار مع الرسول حتى وصل ثنية الوداع (٢) ، وقال مبرراً تخلفه : «يغزو محمد بنى الأصفر مع جهد الحال والحر والبلد البعيد إلى مالا قبل له به ! يحسب محمد أن قتال بنى الأصفر اللعب ١١ والله لكأنى أنظر إلى أصحابه غدا مُقرّنين فى الجبال !» (٣) .

بعد أن تحرك الرسول فى اتجاه الروم «كان أقصى أثره تبوك» (٤) ، وهى مدينة صغيرة فى شمال الحجاز على حدود الشام ، فى منتصف الطريق تقريباً بين المدينة ودمشق . ولم يجد الرسول فى طريقه أحداً من هؤلاء الذين قيل إنهم تجمعوا يريدون غزو المدينة . ويفسر البلاذرى ذلك بأن الرسول ﷺ «لما سار إليهم ها محاربتهم فلم يلتق كيداً» (٥) . وكلام البلاذرى يشير إلى أن ما سمعه المسلمون تجمع الروم لغزو المدينة كان صحيحاً ، ولكن الواقدى - كما أسلفنا - يذكر أنه يكن شئ مما زعمه هؤلاء الأنباط الذين أذاعوا هذا الخبر ، «إنما ذلك شئ لهم فقالوه» (٦) . ونحن نميل إلى تصديق رواية البلاذرى ؛ فالذى يبدو أن الر

(١) نفس المصدر ، ص ٩٩٢ - ٩٩٣ .

(٢) يقول اليعقوبى فى تاريخه ، ج ٢ ، ص ٦٨ : «خرج النساء والصبيان يودعونه ﷺ عند الثنية ، فسماهن ثنية الوداع» .

(٣) المغارى للواقدى ، ج ٣ ، ص ٩٩٥ ، ٩٩٦ .

(٤) المعارف لابن قتيبة ، ص ١٦٥ . (٥) أنساب الأشراف ، ج ١ ، ص ٣٦٨ .

(٦) المغارى للواقدى ، ج ٣ ، ص ٩٩٠ .

وأحلافهم هموا على الأقل بغزو المدينة وخططوا لذلك ، وأن أنباء هذا المخطط تسربت إلى المسلمين عن طريق هؤلاء التجار . والذي يدفعنا إلى تصديق ذلك أن سرية مؤتة كانت مفاجأة أذهلت الروم وأتباعهم من عرب الشام ؛ فهذه كانت أول مرة يخرج المسلمون فيها في جيش بهذه الضخامة ، وقد واتتهم الجرأة على المضي لغزو الشام حيث سلطان بيزنطة . وقد ذكرنا أن نتيجة مؤتة لم تكن نكسة على المسلمين على عكس ما تذكر بعض المصادر ؛ فقد أبلى المسلمون فيها أحسن البلاء ونالوا من عدوهم رغم اضطرابهم إلى الانسحاب . وكل هذا - في غالب الظن - أغرى هرقل أن يحرض أتباعه على الانضمام إليه لتوجيه ضربة قاصمة لتلك القوة الجديدة في الحجاز . فلما علم الروم بضخامة الاستعدادات الإسلامية - وقد جلى الرسول ﷺ وجهته - تراجعوا هذه المرة حتى تحين الفرصة للقاء يأمنون عواقبه . فإذا كان ثلاثة آلاف في مؤتة قد استطاعوا أن يضربوا العدو ضربة موجعة فأحرى بثلاثين ألفا أن يكونوا أكثر خطراً وأبعد تأثيراً .

وقد أقام الرسول ﷺ بتبوك عشرين ليلة دون أن يلقي كيداً أو يواجه عدواً ؛ ومن هنا لم يجد حاجة إلى التقدم نحو الشمال ، فإن الغرض الأصلي الذي خرجت من أجله هذه الغزوة - وهو التصدي لهجوم الروم الوشيك على المدينة أو محاولة إجهاضه قبل وقوعه - قد تحقق دون قتال . ويروى الواقدي ما يوضح ذلك حين يذكر أن الرسول ﷺ - بعد وصوله إلى تبوك - استشار أصحابه في التقدم نحو الشام لمواجهة الروم فقال له عمر بن الخطاب : «يا رسول الله ، إن للروم جموعاً كثيرة وليس بها أحد من أهل الإسلام ، وقد دنوت منهم حيث ترى ، وقد أفزعهم دُبُوكُ ، فلو رجعت هذه السنة حتى ترى أو يُحدث الله عز وجل في ذلك أمراً» (١) .

وفي ضوء ذلك نجدنا مضطرين لرفض الزعم القائل بأن الرسول كانت لديه

(١) نفس المصدر ، ص ١٠١٩ . وهذا يعني أن غزوة تبوك كان لها اثرها في إظهار القوة الإسلامية في تلك الجهات . انظر : الدولة الإسلامية وامبراطورية الروم للدكتور إبراهيم العدوي ، ص ٤٦ .

خطة للتوغل فى بلاد الروم حين خرج إلى تبوك ولكن حالت عوامل معينة دون تنفيذها . يذكر «بروكلمان» فى هذا الصدد أن الرسول توقف فى تبوك نتيجة وهن الشيخوخة أو لأنه اقتنع بأن خطته غير عملية ^(١) ! ويدور فى هذا الإطار ما يراه «بتلر» من أن الرسول لم يتقدم شمالاً من تبوك لاحتمال أن يكون قد جاءه من الأخبار ما جعله يحجم عن ذلك أو لعله عاد لقلّة الزاد والماء معه ^(٢) . ولكننا نرد على هذه الآراء بقولنا إنه لو صحّ أن الرسول ﷺ كان يعانى من وهن الشيخوخة لاستطاع أن يسند أمر هذه الحملة لمن يستطيع أن ينهض بذلك من أصحابه كما فعل فى حملات أخرى . أما اقتناع الرسول بأن خطته غير عملية فلا سند له من المنطق أو التاريخ ؛ فلا بد أن ثبت أولاً أن الرسول كانت لديه خطة لغزو الروم حين توجه إلى تبوك حتى نستطيع الزعم بعد ذلك بأنه لم يتمكن من تنفيذ هذه الخطة . والواقع - كما ذكرنا منذ قليل - أن الطريقة التى تم بها إعداد هذه الحملة والظروف التى أُعدت فيها تؤكد أنها كانت حملة أملت الضرورة وقُصد بها صدّ هجوم متوقع . أما ما يطرحه «بتلر» من احتمال أن الرسول قد جاءه من الأخبار ما جعله لا يتقدم نحو الشمال أو أنه لم يكن لديه من الزاد والماء ما يكفيه فهذا أمر مستبعد تماماً . فليس فى مصادرها أدنى إشارة إلى وصول أخبار للرسول ﷺ جعلته يتوقف فى سيره . أما المؤن فإن معاهداته مع أهل دومة الجندل وغيرها خلال تلك الغزوة - كما سنذكر بعد قليل - كفت المسلمين حاجتهم منها .

يبقى التساؤل : لماذا استشار الرسول أصحابه فى التقدم نحو الشمال إذا لم تكن لديه خطة لذلك ؟ والإجابة واضحة ؛ فقد خرج المسلمون لهذه الغزوة عندما سمعوا أن الروم تجمعوا وهمّوا بغزو المدينة . وقد انتهى بالمسلمين المسير إلى تبوك على حدود الشام دون أن يقابلوا عدوهم . ولكن لم يكن هناك ما يمنع أن العدو كان ما زال يستعد للزحف من الشام إلى الحجاز ؛ ولذلك استشار الرسول أصحابه

(1) Brockelmann, History of the Islamic Peoples, p. 34 .

(2) فتح العرب لمصر ، ص ١٢٩ .

فى التقدم شمالا على احتمال أن يواجهوا العدو هناك . وقد أخذ الرسول برأى عمر فى العودة إلى الحجاز لأن التقدم إلى الشام كان يحمل فى طياته خطورة على المسلمين بسبب كثرة جموع الروم ، ولم تكن هناك خطورة فى عدم التقدم حيث لم تظهر بوادر تشير إلى زحف الروم نحو الحجاز .

ومع ذلك فقد رأى الرسول ﷺ أن هذه الغزوة يمكن أن تحقق نتيجة مهمة وهى كسب ولاء القبائل والتجمعات الدائرة فى فلك الروم والقاطنة على طريق الشام ، وإن لم يتسن ذلك فيكفى تحييدها فى ذلك الصراع الدائر بين المسلمين والروم . وفى هذا الإطار عقد الرسول - أثناء إقامته فى تبوك - معاهدات مع أهل دومة الجندل وأيلة ومقنا وأذرح والجرباء ، وهى المعاهدات التى مثلت أكبر الإنجاز للمسلمين فى تاريخ الصراع بينهم وبين الروم فى حياة الرسول ﷺ (انظر الخريطة رقم ٢ ص ١٤٠) .

أما دومة الجندل فقد كان لها تاريخها قبل ذلك فى إيذاء المسلمين واستفزازهم . وقد سبق أن ذكرنا أنها كانت موطناً لقبيلة «كلب» البعثانية التى طالما أظهرت العداء للإسلام مما اضطر الرسول أن يتوجه إليهم بنفسه غازيا فى سنة ٥هـ (٦٢٦م) ، وهى تلك الغزوة التى يعتبرها بعض المؤرخين أولى الغزوات «ضد الروم»^(١) . وهذا التعبير يتضمن إشارة إلى تحالف كلب مع الروم . ثم أرسل الرسول ﷺ إليهم فى العام التالى (٦هـ / ٦٢٧م) عبد الرحمن بن عوف على رأس سبعمائة ، فأسلم على يديه الأصبغ بن عمرو زعيم قبيلة كلب هناك ، وتبعه أناس من قومه ، وأقر الباقون بدفع الجزية .

ولكن الذى نستنتجه أن دومة الجندل لم تخضع تماما للمسلمين على يد عبد الرحمن بن عوف ولم يتوقف تهديدها لآمن الدولة الإسلامية . ومن هنا رأى الرسول - أثناء إقامته بتبوك - ضرورة أن يرسل إليها قوة من أربعمائة وعشرين

(١) التنبيه والإشراف للمسعودى ، ص ٢١٥ .

فارسا بقيادة خالد بن الوليد للقضاء على ما تبقى فيها من جيوب التهديد للمسلمين . وقد نجح خالد في الاستيلاء على دومة وتمكن من أسر ملكها أكيدر ابن عبد الملك الكندي والقدوم به على رسول الله ﷺ فحقن له رسول الله دمه وصالحه على الجزية وكتب له ولأهل دومة كتابا «فيه أمانهم وما صالحهم» (١) .

وقد اتصل أيضاً أهل أيلة ومقنا وأذرح والجرباء بالنبي ﷺ يسألونه الصلح ؛ «فقد أشفقوا أن يبعث إليهم رسول الله ﷺ كما بعث إلى أكيدر» (٢) ، وأيقنوا أنه لا جدوى من الاستمرار في عنادهم للدولة الإسلامية . وقد أجابهم الرسول إلى مطلبهم .

وتقع أيلة (التي تعرف الآن باسم العقبة) (٣) على رأس خليج العقبة ، وكان معظم سكانها مسيحيين . وكان حاكمها في ذلك الوقت هو «يوحنا بن رؤية» . وقد قدم يوحنا على النبي ﷺ يسأله الصلح فصالحه على أن يدفع عن نفسه وعن أهل أيلة جزية سنوية مقدارها ثلاثمائة دينار ، وأمنهم في مقابل ذلك على أنفسهم وأموالهم (٤) .

(١) المغازي للواقدي ، ج٣ ، ص ١٠٢٧ - ١٠٢٨ . وتجدد الإشارة إلى ما يشوب تقرير الواقدي بهذا الصدد من التضارب ؛ فهو يذكر أن خالد بن الوليد صالح أكيدر «على ألفي بغير وثمانمائة رأس وأربعمائة درع وأربعمائة رمح» وأنه لما قدم بأكيدر على رسول الله ﷺ صالحه على الجزية . ولكنه يذكر بعد قليل أن الرسول ﷺ كتب لأكيدر كتابا كان مما جاء فيه : «هذا كتاب من محمد رسول الله ﷺ لا أكيدر حين أجاب إلى الإسلام وخلع الأنداد والأصنام» . ثم يذكر بعد ذلك في نفس الكتاب ما اشترطه الرسول ﷺ على أهل دومة حيث قال : «تقيمون الصلاة لوقتها وتؤتون الزكاة لحقها .. إلخ» . نفس المصدر ، ص ١٠٣٠ . والمعلوم أن الجزية تسقط بالإسلام . فلو أن أكيدر وأهل دومة أسلموا حقيقة لما طالبهم رسول الله ﷺ بالجزية . ومن هنا نجد من المؤرخين القدامى أنفسهم من لا يقبلون الرواية القائلة بإسلام أكيدر . يقول ابن الأثير : «من قال إنه أسلم فقد أخطأ خطأ ظاهراً . وكان أكيدر نصرانياً . ولما صالحه النبي ﷺ عاد إلى حصنه وبقي فيه ، ثم إن خالدا أسره لما حصر دومة أيام أبي بكر رضي الله عنه ، فقتله مشركاً نصرانياً» . أسد الغابة . ج١ ، ص ١٣٥ . وانظر أيضاً : الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر ، ج١ ، ص ١٣١ ؛ وزاد المعاد لابن القيم ، ج٣ ، ص ٦ .

(٢) المغازي للواقدي ، ج٣ ، ص ١٠٣١ . وحول صلح رسول الله ﷺ مع أهل هذه المدن ارجع أيضاً إلى فتوح البلدان للبلاذري ، ص ٥٩ - ٦٠ .

(٣) والتي تعرف في العهد القديم باسم «إيلات» . انظر : Watt, Muhammad at Medina, p. 115 .

(٤) المغازي للواقدي ، ج٣ ، ص ١٠٣١ . وانظر أيضاً : فتوح البلدان للبلاذري ، ص ٥٩ .

أما مقنا فتقع جنوبى أيلة ، وكان سكانها من اليهود المشتغلين بالنسج والصيد (١) . وقد صالحهم رسول الله ﷺ على أن يدفعوا جزية سنوية تقدر بربع ثمارهم وغزلهم وصيدهم (٢) . أما أذرح والجرباء فهما بالبلقاء من أرض الشام بالقرب من عَمَّان (٣) . والغالب أن سكانهما كانوا خليطاً من المسيحيين واليهود (٤) . وقد صالح رسول الله ﷺ كلا من أهل أذرح والجرباء على جزية سنوية مقدارها مائة دينار (٥) .

والجدير بالملاحظة هنا أن هذه المستوطنات - رغم ارتباطها مصلحياً وجغرافياً ببيزنطة - كانت تتمتع بنوع من الاستقلال الذاتى ؛ وهذا هو ما أتاح لها الفرصة لأن تعقد معاهدات صلح مع الرسول ﷺ دون تدخل مباشر من الدولة البيزنطية . ويبدو أن الوهن الذى حل بالدولة البيزنطية نتيجة حروبها الطويلة مع الفرس جعل قبضتها تخفّ تدريجياً عن تلك الأماكن التى كانت تقع تحت حمايتها المطلقة . ويضاف إلى ذلك ما قامت به بيزنطة من قطع معونتها السنوية التى كانت تدفعها لسكان تلك المستوطنات (٦) . وكل هذا هياً للنفوذ الإسلامى أن يجد طريقاً سهلاً إلى هناك .

ومن الضروري أن نذكر فى هذا السياق أن بعض مصادرنا تروى أن الرسول ﷺ بعث دحية بن خليفة الكلبي برسالة إلى هرقل أثناء تلك الغزوة ، وفيها خيره بين إحدى ثلاث : الإسلام أو الجزية أو السيف . وتمضى الرواية قائلة إن هرقل

(١) Philip Hitti, History of Syria, p. 410 ; Watt, loc . cit .

(٢) المغازي للواقدي ، ج-٣ ، ص ١٠٤٠ ؛ وفتوح البلدان للبلاذرى ، ص ٦٠ . ويُدخل البلاذرى فى الجزية أيضاً ربع كراعهم وحلقتهم أى سلاحهم .

(٣) تقع «أذرح» بين «البراء» و«معان» ، وتقع الجرباء شمالى أذرح . حول أذرح والجرباء انظر : معجم البلدان لياقوت ، ج-٢ ، ص ١١٨ . وانظر أيضاً : Hitti, loc . cit .

(٤) Hitti, loc . cit . ; Watt, op. cit. , pp. 155 - 166 .

(٥) المغازي للواقدي ، ج-٣ ، ص ١٠٣٢ ؛ وفتوح البلدان للبلاذرى ، ص ٥٩ .

(٦) J. Glubb, The Great Arab Conquests, pp . 99 and 125 . Cf. , Stratos , Byzantium in the Seventh Century, vol . I, p. 314 .

أرسل إلى النبي عليه السلام ، وهو بتبوك ، رد هذه الرسالة مع رجل من تنوخ ، وفيه رفض الإسلام والجزية ^(١) . ورغم أن هذه الرواية لا ترد في الكثير من مصادرنا فليس هناك ما يمنعنا من قبولها . وبناء على صحتها يكون الرسول ﷺ قد أرسل دحية الكلبي إلى هرقل مرتين : أولاها في سنة سبع ؛ والآخرى هي هذه في سنة تسع ^(٢) . والذي يجعلنا نميل إلى قبول هذه الرواية أنها تتسق تماما مع الهدف المعلن لهذه الغزوة . فقد خرج رسول الله إلى تبوك ليواجه جموع الروم بعد أن بلغته أنباء تجمعهم وتهديدهم بالزحف على المدينة . فلما تقدم في مسيره دون أن يلقي كيدا أرسل إلى هرقل يدعو إلى الإسلام أو الجزية ، وإلا فالحرب . وهذا كله يتناسب مع حجم التحدي الذي كانت تتعرض له الدولة الإسلامية من قِبَلِ دولة الروم ، وخصوصاً بعد مواجهة مؤتة .

قدم الرسول ﷺ إلى المدينة عائداً من تبوك في رمضان سنة ٩هـ (ديسمبر سنة ٦٣٠م) وقد بات واضحاً لديه ولدى العدو أيضاً أن الصراع الإسلامي البيزنطي بدأ يدخل طوراً جديداً .

-
- (١) تاريخ مدينة دمشق لابن عساکر ، ج١ ، ص ٤١٧ - ٤١٨ ؛ والبداية والنهاية لابن كثير ، ج٥ ، ص ١٤ . والملاحظ أن السهيلي في الروض الأنف (ج٧ ، ص ٣٦٣ - ٣٦٤) يشير إلى ما كان من إرسال الرسول ﷺ - وهو بتبوك - كتاباً إلى هرقل مع دحية الكلبي ، وردّ هرقل عليه ؛ ولكن الواضح أن السهيلي يخلط بين هذا الكتاب وبين كتاب الرسول الأول إلى هرقل لأنه يقول في سياق حديثه عنه : « ونصه مذكور في الصحاح مشهور » . والكتاب المذكور في الصحاح هو الكتاب الأول الذي أرسله الرسول ﷺ خلال هدنة الحديبية كما يفهم من كلام أبي سفيان لهرقل : « ونحن الآن منه في مدة نحن نخاف أن يغدر » . انظر : صحيح البخاري ، ج٤ ، ص ٥٦ . وفي صحيح مسلم : « ونحن منه في مدة لا ندرى ما هو صانع فيها » . ويعلق النووي على ذلك بقوله : « يعني مدة الهدنة والصلح الذي جرى يوم الحديبية » . صحيح مسلم بشرح النووي ، ج١٢ ، ص ١٠٥ .
- (٢) انظر : السيرة الحلبية لعلی بن برهان الدین الحلبي ، ج٣ ، ص ٢٨٤ . ويروي البلاذري ما يفيد الاتصال بين الرسول ﷺ وهرقل أثناء غزوة تبوك حيث يذكر أن رُسُل هرقل أتت الرسول « فكساهم وردّهم » . أنساب الأشراف ، ج١ ، ص ٣٦٨ . والغالب أن البلاذري يشير إلى بعثة رسول الله إلى هرقل في هذه الغزوة وردّ هرقل عليها .

أهم نتائج تبوك :

نستطيع القول إن غزوة تبوك إذا لم تكن قد أسفرت عن مواجهة مباشرة مع البيزنطيين فإن أهم ما ترتب عليها من نتائج بالنسبة لمستقبل الصراع الإسلامى البيزنطى هو بسط النفوذ الإسلامى على مناطق كانت تخضع تقليديا للسيطرة البيزنطية وتدين بالولاء لبيزنطة رغم أن معظم سكانها كانوا عربا . ويُعد ذلك فى الواقع نقطة البداية للسيطرة الإسلامية على بلاد الشام .

ويضاف إلى ذلك أن القبائل العربية الشامية التى لم تخضع للسيطرة الإسلامية فى تبوك بدأت تتعرض بشدة للتأثير الإسلامى ، وبدأ الكثير من هذه القبائل يراجع موقفه ويقارن بين جدوى الاستمرار فى الولاء للدولة البيزنطية أو تحويل هذا الولاء إلى الدولة الإسلامية الناشئة . وسوف يكون ذلك من بين العوامل التى مهدت للفتح الإسلامى لبلاد الشام بعد وفاة الرسول ﷺ .

* * * *

وبعد : فلعل أبرز ما نستخلصه من هذا الفصل أن غزوة تبوك لم تكن تنفيذا لخطة توسعية رسمها الرسول ﷺ ليتمكن عن طريقها من احتلال بلاد الروم كما يزعم البعض ؛ بل كانت حملة أملت لها ضرورة الدفاع عن النفس وحماية دار الإسلام ؛ صدأ لهجوم بيزنطى ترامت الأنباء إلى المدينة بأنه وشيك الوقوع . وبرهان ذلك أن الرسول ﷺ خرج لهذه الغزوة فى أخرج الأوقات وأبعدها عن ملاءمة ظروف المسلمين ، ثم إنه عندما لم يلق كيذا ولم يواجه عدوا عاد إلى المدينة ، ولو كانت هناك خطة توسعية لواصل سيره . وقد تبين لنا أن عودة الرسول إلى المدينة لم تكن نتيجة وهن الشيخوخة أو نتيجة اكتشافه بأن خطته غير عملية أو نفاذ ما معه من مؤن ، بل كانت نتيجة اختفاء حشود العدو أو عدم خروجها من الأساس . وقد كانت المعاهدات التى عقدها الرسول ﷺ مع بعض القبائل والتجمعات الدائرة فى فلك الروم على طريق الشام تدور فى إطار هدف

استراتيجى كانت الدولة الإسلامية فى ذلك العصر تناضل من أجل تحقيقه وهو تأمين حدودها وخلق المناخ الملائم لنشر دعوة الإسلام فى البقاع المجاورة .
وسوف نرى - فى الفصل التالى - أن السنوات الباقية من حياة الرسول ﷺ شهدت مزيدا من المحاولات من أجل تحقيق هذا الهدف .

* * * * *

الفَصْلُ السَّادِسُ

تطور العلاقة بين الرسول

والبيزنطيين بعد تبوك :

٩هـ - (٦٣٠م) - ١١هـ (٦٣٢م)

نناقش في هذا الفصل نقطتين أساسيتين هما : أولاً : مدى تقدم الدعوة الإسلامية بين عرب الشام في تلك الفترة ورد فعل البيزنطيين ؛ وثانياً : بعث أسامة بن زيد .

أولاً : الدعوة الإسلامية بين عرب الشام ، وموقف البيزنطيين :

رجع الرسول ﷺ إلى المدينة من تبوك - كما أسلفنا - في رمضان سنة ٩هـ (ديسمبر سنة ٦٣٠م) . والمعروف أن العام التاسع للهجرة شهد تكثيفاً للدعوة الإسلامية في شبه الجزيرة العربية وما حولها ، وفيه بدأت وفود القبائل العربية تتقاطر على المدينة من مختلف البقاع معلنةً إسلامها . وهكذا اكتسب هذا العام اسمه الذي اشتهر به في مصادر السيرة وهو «عام الوفود» . وقد استمر تدفق الوفود على رسول الله ودخول الناس أفواجا في دين الله حتى وفاته ﷺ في الثاني عشر من ربيع الأول سنة ١١هـ (٨ يونيو ٦٣٢م) . وكان من الطبيعي أن يمتد تأثير نشاط الدعوة الإسلامية في تلك الفترة إلى عرب الشام ، بل إنه شمل بعض حكامهم كذلك . وفي مقابل ذلك وجدنا البيزنطيين يكتفون نشاطهم لتفتيت الجبهة الإسلامية من داخلها .

تروى بعض مصادرنا في هذا الصدد أن وفداً مكوناً من ثلاثة نفر من غسان قدموا إلى رسول الله ﷺ بالمدينة في رمضان سنة ١٠هـ وأعلنوا إسلامهم ثم

انصرفوا إلى قومهم ييشرون بالإسلام^(١) . ورغم أن قومهم لم يستجيبوا لهم فالذى لا شك فيه أن هذه كانت مرحلة تفكير وموازنة ومراجعة ، وأن هذا كله كان من شأنه أن يهيئ نفوس هؤلاء لاستقبال رسالة الإسلام حين تستوى الفكرة فى النفوس .

ويدخل فى هذا الإطار ما يروى من إسلام فروة بن عمرو الجذامى الذى تذكر عنه المصادر أنه كان «عاملاً للروم على من يليهم من العرب ، وكان منزله معان وما حولها من أرض الشام»^(٢) بمنطقة الأردن ، وذلك فى سنة ١٠هـ^(٣) . ورغم أن بعض مصادرنا تروى أن النبى ﷺ أرسل إلى فروة يدعوه إلى الإسلام^(٤) ، فإن معظم المصادر تذكر أن فروة هو الذى أخذ زمام المبادرة وأرسل إلى النبى ﷺ بإسلامه^(٥) . ولا شك أن هذا كان حادثاً بعيد الدلالة بالنسبة للبيزنطيين ؛ فهو

(١) زاد المعاد لابن القيم ، ج٣ ، ص ٥٣ ؛ والسيرة الحلبية لعلى بن برهان الدين الحلبى ، ج٣ ، ص ٢٧٧ . ويرى مونتجومرى وات أن وفد غسان بعد أن قابلوا محمداً واقتنعوا بصدق رسالته رجعوا إلى قومهم واكتشفوا بذلك دون أن يتخذوا أية خطوة عملية . انظر : Muhammad at Medina, p. 114 . ولكن الذى تقرره مصادرنا أن هؤلاء حاولوا نشر الإسلام بين قومهم دون أن يجدوا استجابة وقد آثروا الانسحاب نتيجة لذلك ، ولكنهم ماتوا جميعاً على الإسلام .

(٢) سيرة ابن هشام ، ج٤ ، ص ٢٦١ ؛ وأسد الغابة لابن الأثير ، ج٤ ، ص ٣٥٧ ؛ وعيون التواريخ لابن شاكر الكتبى ، ج١ ، ص ٣٩١ - ٣٩٢ ؛ وزاد المعاد لابن القيم ، ج٣ ، ص ٤٥ . وتذكر بعض المصادر أن فروة بن عمرو كان «عاملاً لقيصر على عمّان من أرض البلقاء» . انظر مثلاً : طبقات ابن سعد ، ج٧ ، ص ٣٤٥ . ويروى ابن حجر الروائيتى فى : الإصابة فى تمييز الصحابة ، ج٣ ، ص ٣٠٧ وص ٣٩١ . ويبدو أن نفوذ فروة كان يمتد ليشمل معظم منطقة الأردن . ويصفه بعض المؤرخين بأنه صاحب البلقاء . انظر : أنساب الأشراف للبلاذرى ، ج١ ، ص ٥١١ .

(٣) عيون التواريخ لابن شاكر الكتبى ، ج١ ، ص ٣٩١ . ويقال إن فروة بن عمرو كان قائداً لإحدى الفرق البيزنطية التى حاربت المسلمين فى معركة مؤتة . انظر حول ذلك : سيف الله خالد بن الوليد لمصطفى طلاس ، ص ١١٤ .

(٤) زاد المعاد لابن القيم ، ج٣ ، ص ٣١ .

(٥) سيرة ابن هشام ، ج٤ ، ص ٢٦١ ؛ وطبقات ابن سعد ، ج٧ ، ص ٤٣٥ ؛ والإصابة لابن حجر ، ج٣ ، ص ٣٩١ ؛ والبداءة والنهاية لابن كثير ، ج٥ ، ص ٧٧ . ويروى القلقشنندى (صحيح الأعشى ، ج٦ ، ص ٣٦٨) أن النبى ﷺ أرسل إلى فروة بكتاب يخبره فيه بما بلغه من إسلامه ؛ وهذا نصه : «من محمد رسول الله إلى فروة بن عمرو ، أما بعد : فقد قدم علينا رسولك وبلغ ما أرسلت به وخبر عما قبلكم خيراً وأتانا بإسلامك وإن الله هداك بهذا» . =

يعكس المدى الذى وصل إليه تأثير الدعوة الإسلامية ، ليس على جمهور عرب الشام فحسب بل على بعض الحكام الذين كانوا يحكمونهم باسم الامبراطور البيزنطى . ومن هنا كان رد فعل هرقل إزاء صنيع فروة بالغ الحدة والعنف ؛ فقد أمر باعتقاله ، ثم حكم عليه بالقتل والصلب . ولكن هذا كله لم يجعل فروة يتزحزح عن موقفه ؛ ويعكس هذا ما قاله عندما قدموه ليقتلوه :

بَلِّغْ سِرَاةَ الْمُسْلِمِينَ بِأَنْنَى سَلَمَ لِرَبِّى أَعْظُمَى وَمَقَامَى ^(١)

وفى ضوء هذه التطورات على ساحة الصراع الإسلامى البيزنطى وجدنا البيزنطيين وأحلافهم من عرب الشام يحاولون التسلل إلى الجبهة الإسلامية الداخلية وضرب تماسكها ، وذلك عن طريق تشجيع حركة الانشقاق على الصف الإسلامى . ومن طريف ما يروى فى هذا السياق أن ملك غسان (الحارث بن أبى شمر) ^(٢) أرسل إلى الصحابى الجليل كعب بن مالك - وهو أحد الثلاثة الذين خَلَفُوا فى غزوة تبوك رغم صدق إيمانهم - أرسل إليه يغريه باللحاق به وبالبيزنطيين عندما علم أن الرسول ﷺ أمر بمقاطعة هؤلاء الثلاثة عقاباً لهم على تخلفهم حتى ﴿ ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ ﴾ ^(٣) . وقد حمل الرسالة إلى كعب بن مالك نبطى من نبط الشام ممن كان يقدمون بالطعام إلى سوق المدينة . وقد جاء فى الرسالة : « أما بعد ، فقد بلغنى أن صاحبك قد جفأك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مَضِيعَةً ، فالحق بنائوا سيك » . فكان تعليق كعب على هذه الرسالة : « وهذا من البلاء أيضاً ! قد بلغ منى ما وقعت فيه أن طمع فى رجال من أهل الشرك » ! ثم أحرق الرسالة ^(٤) .

= ومن ناحية أخرى ، يُروى أن هذا الحاكم سلم «معان» للمسلمين ثم استردها الروم (حيث أمر هرقل بإعدامه كما سيأتى) . انظر حول ذلك : Stratos , Byzantium in the Seventh Century , p. 313 .

- (١) سيرة ابن هشام ، ج٤ ، ص ٢٦٢ .
(٢) ويروى أنه جبلة بن الأيهم . انظر : المغازى للواقدي ، ج٣ ، ص ١٠٥١ .
(٣) سورة التوبة : ١١٨
(٤) المغازى للواقدي ، ج٣ ، ص ١٠٥١ - ١٠٥٢ . وارجع أيضاً إلى صحيح البخارى ، ج٦ ، ص ٧-٦ (باب غزوة تبوك) ..

ويبدو أن البيزنطيين نجحوا - بعد تبوك - فى أن يضموا إلى صفوفهم بعض من كانوا يتظاهرون بالإسلام دون أن تطمئن به قلوبهم . ومن هؤلاء علقمة بن علاثة الذى كان من بين الوافدين إلى النبى ﷺ فى عام الوفود «فأسلم ثم ارتد ولحق بقيصر» (١) . ومنهم أبو عامر الراهب المعروف بالفاسق ، الذى كان رأسا من رؤوس النفاق (٢) ، والذى بنى له طائفة من المنافقين مسجد الضرار أو مسجد النفاق (٣) ﴿تَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ (٤) . وقد توجه أبو عامر الراهب إلى أرض الروم وأقام هناك مراغما للمسلمين وتنصر وظل على نصرانيته حتى مات عند هرقل سنة ١٠هـ (٥) .

كل ما سبق يدل على أن البيزنطيين وجهوا اهتمامهم فى مقاومتهم للدولة الإسلامية - بعد تبوك - وجهتين أساسيتين : الأولى محاربة أى تأثير إسلامى قد يمتد إلى عرب الشام ، وهم الحلفاء التقليديون لبيزنطة ؛ والثانية محاولة تمزيق الجبهة الإسلامية الداخلية عن طريق تشجيع حركة الانشقاق على الصف الإسلامى

(١) المعارف لابن قتيبة ، ص ٣٣١ . وقد عاد علقمة بعد ذلك إلى دار الإسلام وأسلم واستعمله عمر بن الخطاب على حوران فظل بها إلى أن مات . وهو علقمة بن علاثة بن عوف بن الأحوص ، من بنى عامر بن صعصعة من قبيلة هوازن . انظر : جمهرة أنساب العرب لابن حزم ، ص ٢٨٤ . وقد اشتهر علقمة بن علاثة فى كتب الأدب بسبب المنافرة الدائمة بينه وبين عامر بن الطفيل . راجع : الأغاني للأصفهاني ، ج١٦ ، ص ٢٨٣ وما بعدها .

(٢) المعارف لابن قتيبة ، ص ٣٤٣ . وهو أبو عامر عبد عمرو بن صيفى بن النعمان ، كان من وجهاء الأوس بالمدينة ، وكان قد ترهب فى الجاهلية ولبس السوح فلُقّب بالراهب ، ثم لقيه رسول الله ﷺ بالفاسق ، وقد توجه إلى مكة فى بعض أتباعه مفارقاً للإسلام ولرسول الله ، ثم ذهب إلى الطائف ثم لحق بالروم . راجع : سيرة ابن هشام ، ج٢ ، ص ٢١٦ - ٢١٧ .

(٣) المعارف لابن قتيبة ، ص ٣٤٣ ؛ وتاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ، ج١ ، ص ٤٠٩ .

(٤) سورة التوبة : ١٠٧ . وارجع إلى تفسير الآية فى تفسير الطبرى ، ج١١ ، ص ١٧ - ٢٠ . والمقصود بـ « من حارب الله ورسوله من قبل » أبو عامر الراهب .

(٥) الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر ، ج٣ ، ص ٣٠٥ . ويشكك السير جون جلوب J. Glubb فى صحة الرواية الخاصة بأبى عامر الراهب وهروبه إلى بيزنطة وتحالفه مع البيزنطيين . انظر كتابه : Muhammad, his Life and Times, p. 340 f. ولكننا لا نجد مبررا لهذا التشكيك ؛ فقد أجمعت على هذه الرواية معظم المصادر العربية ، كما أنه ليس فيها ما يتعارض مع أى أساس تاريخى أو منطقى .

وإغراء المنشقين بالانضمام إليهم .

ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل ؛ فقد كان المد الإسلامي بين عرب الشام يتزايد باطراد ، كما كانت وحدة الصف الإسلامي أصلب من أن ينال منها خروج بعض المارقين .

* * * *

ثانياً : بَعَثُ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ : صفر ١١ هـ (مايو ٦٣٢م) :

مع أن تبوك كانت آخر غزوات الرسول ﷺ كما كانت آخر حملة إسلامية ضد البيزنطيين وأحلافهم يتم إعدادها وتنفيذها في عهد الرسول ، فإن هناك حملة ينبغي تناولها هنا وهي التي تعرف في مصادرنا باسم «بَعَثُ أُسَامَةَ» . فرغم أن هذا البعث تم إنفاذه في أوائل خلافة أبي بكر فقد كان الرسول هو الذي وضع تفاصيل خطته وأصدر قرار تنفيذه ، ولكن حالت وفاته دون إتمامه . ومن هنا ساغ لنا أن ندرجه ضمن الحملات الإسلامية ضد الروم وحلفائهم في عهد الرسول ﷺ ، فجازت مناقشته في هذا السياق .

تحقيق تاريخ البعث :

تضع معظم مصادرنا تاريخ هذا البعث في سنة ١١ هـ (قبيل وفاة الرسول ﷺ) . ولكن بعض المصادر تذكر بعثين لأُسَامَةَ : أحدهما في سنة ١٠ هـ وكانت وجهته «يُبْنَى» و «يزدود» من أرض فلسطين ؛ والثاني في سنة ١١ هـ وكانت وجهته البلقاء وأذرعاء وموثة (١) . ونحن نميل إلى اعتبار هذا بعثاً واحداً لا بعثين ، ونرجح أن «يُبْنَى» و «يزدود» كانتا من بين الأماكن التي توجه إليها أُسَامَةُ في بعثه الوحيد في السنة الحادية عشرة للهجرة .

(١) انظر : التنبيه والإشراف للمسعودي ، ص ٢٣٨ و ص ٢٤١ .

ومع ذلك فإن القائلين بأن هذا البعث كان فى السنة الحادية عشرة يختلفون فى الشهر . فيذكر الطبرى أن ذلك كان فى المحرم سنة ١١هـ (١) ؛ فى حين يذكر الواقدي أنه كان فى صفر (٢) . ويبدو لنا أنه لا تناقض بين الروایتين ؛ لأن الذى نستنتجه أن الرسول ﷺ أمر أصحابه فى المحرم بأخذ الأهبة لغزو الشام ، ولا شك أن ذلك كان يتطلب جهداً ووقتاً . وقد استغرق الإعداد شهرى المحرم وصفر تقريباً . وفى أواخر صفر (لأربع ليال بقين منه) أمرهم بالاستعداد للتقدم نحو الشام ، وعقد الرسول لأسامة لواء بيده فى نهاية صفر وقال له : « اغزُ باسم الله . . . » (٣) . فالذين يذكرون تاريخ هذا البعث على أنه شهر المحرم يضعون فى الاعتبار أمر الرسول ﷺ بإعداد العدة له ، والذين يجعلون التاريخ فى أواخر صفر سنة ١١هـ يأخذون فى الاعتبار الخطوات العملية التى سبقتها مباشرة ثم بداية تحرك أسامة . فليس من المعقول أن يأمر رسول الله ﷺ الناس بالتهيؤ لغزو بلاد الشام قبل نهاية صفر بأربعة أيام ثم تؤخذ الاستعدادات اللازمة فى أيام ثلاثة وينطلق الناس للغزو فى آخر صفر . ذلك أن غزو الشام مهمة ثقيلة يصعب إعداد العدة اللازمة للقيام بها فى يومين أو ثلاثة . فنخلص من هذا إلى القول بأن الرسول أمر الناس بالتهيؤ لغزو الروم فى المحرم سنة ١١هـ وأسند مهمة القيادة إلى أسامة ، فأكمل أسامة استعداداته فى أواخر صفر من نفس العام ، ثم أمره رسول الله ﷺ بالتحرك الفعلى للغزو لليلة بقيت من صفر ، فسار أسامة بعسكره حتى وصل إلى الجُرف على بعد حوالى خمسة كيلو مترات شمالى المدينة .

(١) تاريخ الطبرى ، ج٣ ، ص ١٨٤ . وانظر أيضاً : الكامل لابن الأثير ، ج٢ ، ص ٣١٧ ؛ وعيون التواريخ لابن شاکر الكتبي ، ج١ ، ص ٤٤٩ . ويذكر اليعقوبى أن الرسول ﷺ لما قدم المدينة من حجة الوداع أقام أياماً وعقد لأسامة بن زيد على جلة المهاجرين والأنصار . انظر : تاريخ اليعقوبى ، ج٢ ، ص ١١٣ . وهذه الرواية تكاد تتفق مع رواية الطبرى .

(٢) المغازى ، ج٣ ، ص ١١١٧ . وانظر أيضاً : السيرة النبوية لابن هشام ، ج٤ ، ص ٣١٩ - ٣٢٠ ؛ وطبقات ابن سعد ، ج٢ ، ص ١٨٩ - ١٩٠ .

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ، ج٢ ، ص ١٩٠ .

وعندما حال مرض الرسول ﷺ ثم وفاته دون إتمام هذا الغزو كان أول قرار يتخذه أبو بكر بعد خلافته هو الأمر بإنفاذ بعث أسامة . يقول الطبرى : « نادى نادى أبى بكر من بعد الغد من متوفى رسول الله ﷺ : لیتم بعث أسامة . ألا لا ییقین بالمدينة أحد من جند أسامة إلا خرج إلى عسكره بالجرف » (١) . وقد استغرقت عملية إعادة حشد الجيش بقية شهر ربيع الأول ، ثم انطلق أسامة فى غزوه فى غرة شهر ربيع الآخر سنة ١١هـ (٢) .

خلفیات البعث وأهدافه :

قد يكون من المفيد عند مناقشتنا لخلفیات بعث أسامة أن نستعرض عددا من الروایات المختلفة فى مصادرنا الأساسية بهذا الصدد ثم نحاول استنباط دلالاتها .

يقول الواقدى : « لم یزل رسول الله ﷺ یذكر مقتل زید بن حارثة وجعفر وأصحابه ووجد علیهم وجداً شديداً ، فلما كان يوم الاثنين لأربع لیال بقیين من صفر سنة إحدى عشرة أمر رسول الله ﷺ الناس بالتسبیح لغزو الروم . . فلما أصبح رسول الله ﷺ من الغد يوم الثلاثاء لثلاث بقیين من صفر دعا أسامة بن زید فقال : یا أسامة ، سر على اسم الله وبركته حتى تنتهى إلى مقتل أبیک فأوطئهم الخیل ؛ فقد ولیتك على هذا الجيش » (٣) .

ويقول البلاذرى : « وكان رسول الله ﷺ قد رأى توجيه أسامة بن زید إلى الذین حاربهم أبوه يوم مؤتة وأمره أن یوطئهم الخیل » (٤) . ويقول فى موضع آخر : « عزم رسول الله ﷺ على توجيهه - أى أسامة - إلى شرحبیل بن عمرو الغسانی بمؤتة فلم یتھیا شخوصه حتى قبض رسول الله ﷺ » (٥) .

(١) تاریخ الطبرى ، ج٣ ، ص ٢٢٣ .

(٢) المغازى للواقدى ، ج٣ ، ص ١١٣٥ ؛ والسيرة الحلبیة لعلى بن برهان الدین الحلبی ، ج٣ ، ص ٢٣٠ .

(٣) المغازى ، ج٣ ، ص ١١١٧ .

(٤) أنساب الاشراف ، ج١ ، ص ٣٨٤ . (٥) نفس المصدر ، ص ٤٧٣ .

ويروى اليعقوبى أن رسول الله ﷺ لما قدم المدينة من حجة الوداع « أقام أياماً وعقد لأسامة بن زيد بن حارثة على جلة المهاجرين والأنصار وأمره أن يقصد حيث قُتل أبوه من أرض الشام » (١) .

أما الطبرى فيروى أن الرسول ﷺ « ضرب فى المحرم من سنة إحدى عشرة على الناس بعثاً إلى الشام وأمر عليهم مولاة وابن مولاة أسامة بن زيد بن حارثة وأمره أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين » (٢) .

يتضح لنا من هذه الروايات المختلفة أن بعث أسامة هذا لا يمكن النظر إليه بمعزل عن سرية مؤتة وملابساتها ونتائجها . فقد تعرض المسلمون فى مؤتة لتجربة لم تكن فى الحسبان ؛ حيث خرجوا فى ثلاثة آلاف للرد على الاستفزازات المتكررة من عرب الشام ، ولم يكن أقلها - كما ذكرنا - قتل الغساسنة لمبعوث رسول الله ﷺ إلى ملك بصرى وفتك قضاة بالدعاة المسلمين فى ذات أطلاق (٣) . وقد فوجئ المسلمون فى مؤتة بأنهم أمام جموع هائلة من الروم وحلفائهم من عرب الشام . ورغم أنهم أبلوا أحسن البلاء ونالوا من عدوهم فقد اضطروا إلى الانسحاب نتيجة عدم توازن القوى بعد أن فقدوا القادة الثلاثة الذين عينهم الرسول ، وعلى رأسهم زيد بن حارثة . ولم يستطع المسلمون فى مؤتة توقيع العقاب الرادع على تلك القبائل العربية التى طال إيذاؤها للمسلمين وتحرشها بهم ؛ كما لم يتمكنوا بعد مؤتة من تحقيق ذلك على الوجه المطلوب . وقد ذكرنا فيما مضى أن غزوة تبوك أملت ظروف خارجة عن إرادة المسلمين ؛ فقد اضطّر الرسول ﷺ إلى تجهيز هذه الغزوة « فى زمن عسرة من الناس وشدة من الحر وجذب من

(١) تاريخ اليعقوبى ، جـ ٢ ، ص ١١٣ .

(٢) تاريخ الطبرى ، جـ ٣ ، ص ١٨٤ . وانظر أيضاً : الكامل لابن الأثير ، جـ ٢ ، ص ٣١٧ . والداروم - كما يقول ياقوت - « قلعة بعد غزوة للقاصد إلى مصر ، الواقف فيها يرى البحر... » . معجم البلدان ، جـ ٢ ، ص ٤٨٣ .

(٣) انظر ملابسات سرية مؤتة فى ص ٨٧ - ٨٨ فيما سبق .

البلاد» (١) ، وذلك حين بلغه أن الروم تجمعوا وهموا بغزو المدينة ؛ فلم يكن أمام الرسول والمسلمين خيار إلا أن يذهبوا للقاء العدو وأن يحشدوا لذلك كل ما استطاعوا من عدد وعدة . ويبدو - كما أسلفنا - أن الروم وحلفاءهم عندما جاءتهم أنباء هذه الاستعدادات الهائلة جئوا عن اللقاء فلم يلق المسلمون في طريقهم كيذا . وعقد الرسول ﷺ من المعاهدات مع سكان المستوطنات الواقعة على حدود الشام ما ذكرنا في موضعه . وكان من الممكن أن يتقدم الرسول شمالاً بعد وصوله إلى تبوك وأن يتعقب الروم وأشياعهم من عرب الشام ممن تكرر أذاهم للمسلمين ، ولكن نصيحة بعض أصحابه جعلته يحجم عن ذلك ، فقد ذكروا له أن للروم جموعاً كثيرة « وقد دنوت منهم حيث ترى وقد أفرعهم دُنُوكَ ، فلو رجعت هذه السنة حتى ترى أو يحدث الله عز وجل لك في ذلك أمراً » (٢) .

كل هذا يدل على أن المسلمين لم تتح لهم فرصة حقيقية لتأديب كل تلك القبائل العربية الشامية التي ارتكبت ضدهم كثيراً من التجاوزات ، وخاصة قبائل غسان وقضاعة وجذام ولخم . وكان التأديب هنا ضرورياً ؛ كفاً لأذاهم عن المسلمين ، وتحذيراً لأمثالهم من أن يسلكوا مسلكهم ، وتأكيداً لهيئة الدولة الإسلامية أمام هؤلاء العرب وأمام من وراءهم من الروم . ومن هنا كان الرسول ﷺ شديد الحرص على إنفاذ بعث أسامة ، فيروى عنه أنه قال في مرض موته بعد أن اشتدت عليه علته : « أنفذوا جيش أسامة ! فقالها مراراً » (٣) .

وقد كان لغزوة تبوك تأثيرها في غرس هيئة المسلمين في صدور الروم وفي توسيع دائرة الولاء للدولة الإسلامية بين عرب الشام . ومن ثم لم يكن الهدف من بعث أسامة مواجهة الروم في الميدان ، بل يمكن القول إن هذا البعث كان يهدف أساساً إلى ما كانت تهدف إليه سرية مؤتة وهو تأديب عرب الشام الذين كشفوا

(١) تاريخ الطبري ، جـ ٣ ، ص ١٠١ .

(٢) المغازي للواقدي ، جـ ٣ ، ص ١٠٩ . وانظر ص ١١٤ فيما سبق .

(٣) تاريخ اليعقوبي ، جـ ٢ ، ص ١١٣ .

عن عدائهم السافر للدولة الإسلامية ولم تتهياً الفرصة فى سرية مؤتة لتسويق العقاب الراجع عليهم . والجدير بالملاحظة أن هاتين الحملتين تشتركان كذلك فى العدد الذى احتشد لهما من مقاتلى المسلمين وهو ثلاثة آلاف . وإذا كان هناك فارق أساسى بين سرية زيد بن حارثة إلى مؤتة وسرية ابنه أسامة فهو فى النتيجة لا فى الهدف كما سوف نوضح فيما بعد .

ولعل اختيار أسامة بن زيد قائدا لهذا البعث يلقى مزيدا من الضوء على ذلك الهدف الذى ناقشناه الآن . فقد أسند الرسول ﷺ إلى أسامة هذه المهمة رغم صغر سنه (١) ورغم الاعتراضات التى أثارها البعض ضد تعيينه بسبب ذلك ولوجود من هم أكثر خبرة بالقتال منه (٢) . ولكن تأمير الرسول له فى هذه السرية بالذات كان له مغزى عميق ؛ فهذه السرية - كما ذكرنا - كانت شديدة الارتباط بسرية مؤتة التى قُتل فيها زيد بن حارثة والد أسامة . ولاشك أن اختيار أسامة قائدا لهذه السرية يجسّد فكرة الشار التى كانت وراءها ويدفع المسلمين المحاربين جميعاً - وليس قائدهم فقط - إلى بذل أقصى الجهد لتأديب ذلك العدو الذى قتل خيار المسلمين فى مؤتة ومنهم والد هذا القائد . يقول الواقدي : «وكان أسامة خرج على فرس أبيه التى قتل عليها أبوه يوم مؤتة ، كانت تُدعى سبعة ، وقتل قاتل أبيه فى الغارة» (٣) . ولا ينبغي أن يمثل صغر السن عقبة أمام الإنجاز

(١) كان أسامة فى العشرين من عمره فى ذلك الحين ، وقيل كان ابن ثمانى عشرة سنة . انظر : الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر ، ج١ ، ص ٤٦ .

(٢) آثار اختيار أسامة دهشة بعض الصحابة ومنهم عياش بن أبى ربيعة الذى يروى عنه أنه قال : «يستعمل هذا الغلام على المهاجرين الأولين» ! وكثرت القالة فى ذلك ، فكان هذا ما أغضب رسول الله ﷺ غضباً شديداً ، فخرج على الناس وهو مريض عاصب رأسه فصعد المنبر وخطب فيهم قائلاً : «يا أيها الناس ، فما مقالة بلغتني عن بعضكم فى تأميرى أسامة بن زيد؟ والله لئن طعتم فى إمارتى أسامة لقد طعتم فى إمارتى أباه من قبله ، وأيسم الله إن كان للإمارة لخليقاً وإن ابنه من بعده لخليق للإمارة...» . المغازى للواقدي ، ج٣ ، ص ١١١٨ - ١١١٩ . وارجع إلى ترجمة عياش بن أبى ربيعة فى أسد الغابة لابن الأثير ، ج٤ ، ص ٣٢٠ - ٣٢١ ، وهو يتسمى لبطن بنى مخزوم من قريش ، وكان ممن هاجروا إلى الحبشة .

(٣) نفس المصدر ، ص ١١٢٣ . وقد علم أسامة بذلك من بعض سبي الروم .

العسكري ، خصوصاً إذا علمنا أن جيش أسامة ضم العديد من خيرة أصحاب رسول الله ﷺ من ذوى الخبرة والسن ممن كان أسامة لا يستطيع أن يقطع أمرا دونهم (١) . ويضاف إلى ذلك أيضاً أن أسامة نفسه كان له رصيده القتالى المعروف ؛ فقد كان أحد القلائل الذين ثبتوا مع الرسول ﷺ فى غزوة حنين بعد أن فرَّ عامة أصحابه (٢) . فليس هناك ما هو أكثر بعدا عن الحقيقة من زعم «إرفنج» بأن تأمير أسامة يُعدُّ برهاناً على تدهور الطاقات الذهنية للرسول (٣) ، أو زعم «جلوب» بأنه كان قائماً على أسس عاطفية بحتة وليس على أسس عملية (٤) . وقد أثبتت نتيجة هذه السرية - كما سوف نرى - أن اختيار أسامة كان اختياراً صائباً وأن هذا القائد أدى المهمة التى أنيطت به خير أداء وكان موضعاً للثقة التى خصه بها رسول الله ﷺ .

تطور البعث وأهم نتائجه :

انطلق أسامة بجيشه من المدينة فى اتجاه الشام فى آخر صفر سنة ١١ هـ ، ثم عسكر بالجرف على مشارف المدينة حين علم باشتداد المرض على رسول الله ﷺ . وقد اضطر أخيراً أن يعود بجيشه إلى المدينة ورسول الله فى التزع الأخير . وانتقل الرسول ﷺ إلى جوار ربه فى الثانى عشر من ربيع الأول سنة ١١ هـ . وجئ بلواء أسامة الذى عقده له رسول الله ﷺ فأمر به أبو بكر بعد بيعته أن يكون فى بيت أسامة حتى يتم بعثه الذى وجهه إليه رسول الله ﷺ . ثم استدعى أبو بكر أسامة فقال له : « انفذ فى وجهك الذى وجهك فيه رسول الله ﷺ » . وقد شقَّ على بعض الصحابة أن يترك أسامة المدينة بجيشه متوجهاً إلى الشام فى وقتٍ كانت

(١) وقد كان الرسول ﷺ حريصاً على أن يوصى بأسامة أصحابه ؛ فيروى عنه أنه قال لهم : «استوصوا به خيراً فإنه من خياركم» . المغازى للواقدي ، ج٣ ، ص ١١١٩ .

(٢) المعارف لابن قتيبة ، ص ١٦٤ .

(3) W. Irving, Mahomet and his Successors, vol. I, p. 318 .

(4) J. Glubb, The Great Arab Conquests, p. 110 .

حركة الردة فيه تمثل تهديداً خطيراً لكيان الدولة الإسلامية ، فكلّموا أبا بكر في تأجيل ذلك البعث حتى يزول خطر الردة ؛ ولكن الحقيقة أن أبا بكر كان يرى نفسه منفذاً لأمرٍ أمر به رسول الله ﷺ لا مستأنفاً بعثاً جديداً ؛ ولهذا أجابهم بقوله : «والذى نفسى بيده لو ظننت أن السباع تأكلنى بالمدينة لأنفذت هذا البعث ولا بدأت بأول منه ؛ ورسولُ الله ينزل عليه الوحي من السماء يقول : أنفذوا جيش أسامة!» (١) .

من أجل ذلك كان أبو بكر حريصاً على أن يشترك في هذا البعث كل الذين احتشدوا له قبيل وفاة الرسول ﷺ ، وهم ثلاثة آلاف ، «فلم يتخلف عن البعث إنسان واحد» (٢) . وكل ما سمح به أبو بكر لنفسه هو أنه استأذن أسامة في أن يُعفى عمر بن الخطاب من الاشتراك في هذه السرية ، وقد برر أبو بكر ذلك بقوله : «فإنه لا غناء بنا عنه» ، وقال حين همّ بذلك : «والله ما أدرى : يفعل أسامة أم لا . والله إن أبى لا أُكرهه» ؛ فأذن له أسامة (٣) .

ذكرنا أن أسامة تحرك بجيشه من الجرف صوب الشام في مستهل شهر ربيع الآخر سنة ١١ هـ . وقد قال له أبو بكر فيما قال : «إنى سمعت رسول الله ﷺ يوصيك ، فانفذ لأمر رسول الله ﷺ ، فإنى لست آمرك ولا أنهاك عنه» ، وإنما أنا منفذ لأمر أمر به رسول الله ﷺ» (٤) .

وقد كانت وجهة أسامة من بلاد الشام تلك الأماكن الجنوبية في منطقة الأردن وفلسطين حيث تتركز القبائل العربية التي دأبت على إلحاق الأذى بالمسلمين ولم تنل ما تستحق من العقوبة . وقد كانت قبيلة قضاة على رأس هذه القبائل . أما

(١) المغارى للواقدي ، ج٣ ، ص ١١٢١ .

(٢) نفس المصدر ، ص ١١٢٢ .

(٣) نفس المصدر ، ص ١١٢١ - ١١٢٢ ؛ وانظر أيضاً : تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ، ج١ ، ص ٤٣٨ .

(٤) المغارى ، ج٣ ، ص ١١٢٢ .

الاماكن التى تذكر مصادرها أن أسامة توجه إليها فى بعثته هذا فأهمها يُبنى (أو أُبْنَى) (١) وأبل الزيت (٢) ومؤتة . وقد أغار أسامة على قبائل قضاة وجذام ولخم وأصاب منها (٣) ثم رجع سالماً غانماً إلى المدينة بعد أن غاب عنها فى بعثته ذاك أربعين يوماً ، وقيل ستين يوماً أو سبعين (٤) .

يلفت نظرنا فى حملة أسامة هذه أمران : أولهما ما ترويه مصادرها من أن جيش أسامة لم يُصبّ بسوء خلال تلك الحملة . والثانى : أن البيزنطيين لم يظهر لهم دور ملحوظ فى هذه المواجهة .
فما تفسير ذلك ؟

أما أن جيش أسامة لم يصب بسوء فلعل السبب فى ذلك يكمن أولاً فى عنصر المفاجأة التى صاحبت هجومه على تلك القبائل التى قصد إليها بحملته ؛ ويكمن ثانياً فى أن أسامة لم يمعن فى طلب الهارين حتى لا يواجه موقفاً لم يأخذ له عدته . يروى الواقدي بهذا الصدد أن أسامة لما نزل وادى القرى فى طريقه إلى الغزو أرسل عيناً له من بنى عذرة يقال له حريث حتى يأتى له بخبر القوم ، فتوجه حريث إلى «أبنى» ثم رجع فأخبر أسامة «أن الناس غارون ولا جموع لهم، وأمره أن يسرع السير قبل أن تجتمع الجموع وأن يشنها غارة» . ويمضى الواقدي فى تقريره قائلاً إن أسامة لما انتهى إلى أبني «عباً أصحابه وقال : اجعلوها غارة

(١) يُبنى موضع بفلسطين بين عسقلان والرملة . ويروى أنها قرية بالقرب من مؤتة التى قتل عندها زيد بن حارثة . انظر : تاريخ مدينة دمشق لابن عساکر ، ج١ ، ص ٤٢٦ ؛ والسيرة الحلبية لعلى بن برهان الدين الحلبي ، ج٣ ، ص ٢٢٧ ؛ والروض الأنف للسيلى ، ج٧ ، ص ٥١١ - ٥١٢ .

(٢) أبل الزيت قرية من قرى الأردن تقع بالقرب من مؤتة . انظر : معجم البلدان لياقوت ، ج١ ، مدخل «أبل» .

(٣) تاريخ مدينة دمشق لابن عساکر ، ج١ ، ص ٤٣٢ - ٤٣٣ ؛ والكامل لابن الأثير ، ج٢ ، ص ٣٢٥ .

(٤) بخصوص اختلاف الروايات حول المدة التى قضاها أسامة فى غزوه ارجع إلى : تاريخ اليعقوبى ، ج٢ ، ص ١٢٧ ؛ وتاريخ خليفة بن خياط ، ج١ ، ص ٦٥ ؛ وأنساب الأشراف للبلاذرى ، ج١ ، ص ٤٧٣ ؛ والكامل لابن الأثير ، ج٢ ، ص ٣٣٦ .

ولا تمنعوا في الطلب . ثم يذكر أن أسامة «دفع عليهم الغارة فما نبه كلب ولا تحرك أحد وما شعروا إلا بالقوم قد شنوا عليهم الغارة .. فقتل من أشرف له وسى من قدر عليه .. وأجال الخيل في عرصاتهم ولم يُمنعوا في الطلب» (١) .

فواضح من هذا التقرير أن القبائل التي توجه أسامة لحربها أخذت على حين غرة وأن حملته عليها كانت في شكل هجوم خاطف أو غارة سريعة لم تُتَح الفرصة لهؤلاء أن يلتقطوا أنفاسهم ويستجمعوا قواهم . وقد كانت هذه الضربة المفاجئة محققة للهدف الذي أراده أسامة ؛ وهذا هو السر في عدم إمعانه في طلب الهاريين .

أما أن البيزنطيين لم يظهر لهم دور ملحوظ خلال تلك الحملة فذلك يرجع في المقام الأول إلى ما سبق أن ذكرنا تواتراً من أن هذه الحملة أخذت شكل هجوم سريع خاطف مما لم يهيئ للبيزنطيين الفرصة لإعداد أنفسهم والدخول في مواجهة ميدانية منظمة . ولعلنا لا ننسى أن البيزنطيين كانوا قد خرجوا حديثاً من حرب طويلة الأمد باهظة الثمن مع العدو الفارسي ، ورغم خروجهم منها منتصرين فقد كانت قواهم مبعثرة ولم يكونوا على استعداد للدخول في مواجهات أخرى تستنفد مزيداً من طاقاتهم التي لم يتبق منها الكثير . وقد نكصوا عن مواجهة المسلمين في تبوك قبل ذلك بحوالي عام ونصف حين علموا بضخامة الجيش الإسلامي . ولعلمهم تصورا أن حملة أسامة كانت بمثل هذه الخطورة أو أنها كانت طليعة حملة ضخمة . كما أن نتيجة معركة «مؤتة» لم تكن في صالحهم تماماً كما أشرنا قبل ذلك . وهذا لا يعني أن البيزنطيين تجاهلوا التهديد الإسلامي لحدودهم ودفنوا رؤوسهم في الرمال ولكنه يعني أنهم آثروا تأجيل المواجهة الحاسمة مع المسلمين حتى يحين الوقت المناسب ويأخذوا لذلك أهبتهم . وقد كان لهذه المواجهة الحاسمة أن تحدث في خلافة عمر بن الخطاب .

(١) المغارى ، ج٣ ، ص ١١٢٢ - ١١٢٣ .

يتضح مما سبق أن حملة أسامة أحرزت نتيجة لم تحرزها حملة أبيه زيد بن حارثة إلى مؤتة وهى إنزال العقوبة الرادعة بالقبائل العربية الشامية المتواطئة مع البيزنطيين ضد المسلمين . ويضاف إلى ذلك أن هذه الحملة لفتت نظر البيزنطيين إلى حقيقة الخطر الذى يهدد حدودهم وإلى أن المواجهة الحاسمة إذا كان لها أن تتأجل فلا مناص فى الوقت نفسه من أخذ الإجراءات اللازمة لحماية الحدود حتى يحين وقت هذه المواجهة . ونتيجة لذلك أمر هرقل بوضع رابطة فى البلقاء تكون مسئولة عن حماية حدود الشام من الهجمات الإسلامية . ويؤثر عنه أنه قال لبطارقه بمناسبة حملة أسامة : « قد صارت العرب تأتى من مسيرة شهر فتغير عليكم ثم تخرج من ساعتها ولم تُكَلِّمْ أ^(١) » وقد استمرت الحامية البيزنطية فى البلقاء حتى قدمت الجيوش الإسلامية إلى الشام فى خلافة أبى بكر وعمر ^(٢) ، لبدأ بذلك فصل جديد مختلف الملامح فى تاريخ الصراع بين المسلمين والروم .

(١) المغارى للواقدي ، جـ٣ ، ص ١١٢٤ . وفى تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر (جـ١ ، ص ٤٣٩) «

ولم تتكلم » بدلا من : « ولم تُكَلِّمْ » . والصواب ما روينا عن الواقدي .

(٢) المغارى ، جـ٣ ، ص ١١٢٤ ؛ وطبقات ابن سعد ، جـ٢ ، ص ١٩٢ .

خاتمة

-١-

من خلال هذا التتبع لجذور العلاقة وتطورها بين المسلمين والبيزنطيين فى عصر الرسول ﷺ يتبين لنا أن الإسلام فى مرحلته المكية لم يثر اهتمام البيزنطيين ولا أحلافهم المنتصرين من عرب الشام ، بل يمكن القول إن بعضهم - إن لم يكن الكثيرون منهم - لم يكادوا يسمعون به . وقد كان الشاغل الذى سيطر على اهتمام الرسول ﷺ خلال معظم تلك المرحلة هو تبليغ قومه من قريش دعوة الإسلام . وقد أذن الرسول لبعض أصحابه أثناء ذلك بالهجرة إلى الحبشة فراراً من أذى قريش واضطهادهم . ومن الصعب حقاً أن نتصور أن تكون هذه الهجرة قد أثارت فى نفوس البيزنطيين أو أحلافهم أى قدر من القلق أو الريبة ؛ فلم يكن مهاجرو الحبشة إلا جماعة قليلة مستضعفة لا يمكن أن يحسب لها أمثال هؤلاء حساباً . وفوق ذلك فليس هناك ما يشير إلى أن المسلمين خلال المرحلة المكية ظهر منهم عداء تجاه البيزنطيين بشكل أو بآخر ، بل إننا نلاحظ أنهم كانوا أكثر تعاطفاً مع البيزنطيين فى صراعهم المزير ضد الفرس ؛ فقد كان الأولون أهل كتاب ، وكان الآخرون أهل أوثان .

-٢-

ولم يتغير الأمر كثيراً فى السنوات الأولى التى أعقبت هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة . والمعروف أن المهمة الملحة أمام الرسول فى صدر المرحلة المدنية كانت تتمثل - أولاً - فى وضع الأسس السياسية والتشريعية والاجتماعية التى تثبت قواعد الدولة الناشئة ؛ وكانت تتمثل - ثانياً - فى التعامل مع عدوها اللدود المتربص بها من مشركى قريش ومن يلوذ بهم . والحق أننا لا نجد فى مصادرها أدنى إشارة إلى أن الرسول فكر فى أن يفتح جبهة مع البيزنطيين أو أحلافهم فى السنوات الأولى

من الوجود الإسلامى فى المدينة . والواضح أن المسلمين كانوا يعرفون قدر الدولة البيزنطية على المستوى العسكرى والاقتصادى ، ولم يكن لديهم من الأسباب فى تلك الفترة ما يغريهم بالدخول فى مواجهة معها .

وقد كانت للرسول ﷺ مواجهات مع أعدائه فى شبه الجزيرة العربية - وخاصة مع مشركى قريش - فى تلك الفترة المدنية المبكرة . ولا شك أن معركة بدر كانت أكثر هذه المواجهات خطورة وحسما . ولعل من بين أهم النتائج التى ترتبت عليها أنها لفتت أنظار الكثيرين - داخل شبه الجزيرة العربية وخارجها - إلى هذه القوة الإسلامية الناشئة فى المدينة ، وهى القوة التى استطاعت أن تنزل أفسى الهزيمة بقريش ذات الحول والطول ورعيمة معسكر الشرك فى شبه الجزيرة .

ورغم أن مشركى قريش حققوا نصراً محدوداً على المسلمين فى معركة أحد فإنهم جَبُنُوا عن تصعيد المواجهة معهم بتعقبهم إلى المدينة ؛ كما جَبُنُوا عن لقائهم فى غزوة «حمراء الأسد» بعد أحد مباشرة ، ولم يجرؤوا على مواجهتهم فى غزوة بدر الموعد (أو بدر الآخرة) فى العام الرابع للهجرة .

- ٣ -

يبدو - فى ضوء هذا الملابسات - أن أحلاف البيزنطيين من عرب الشام بدأوا ينظرون إلى هذه القوة الإسلامية المتنامية على أنها تمثل تهديداً مستقبلياً لهم ، بل إنهم أحسوا فعلاً بمؤشرات هذا التهديد عندما أخذ طريق التجارة المزدهر بين مكة والشام يقع تحت الضغط المتزايد من دولة المدينة .

وهكذا التمس عرب الشام لأنفسهم من المبررات ما أغراهم بانتهاج مسلك عدوانى حيال الدولة الإسلامية الوليدة . وهم حين فعلوا ذلك كانوا لا يعبرون عن أهوائهم فقط ، بل عن أهواء أسيادهم البيزنطيين كذلك . وقد رأينا كيف حاول هؤلاء العرب فرض حصار اقتصادى على دولة المدينة عن طريق إلحاق الأذى بالتجار الأنباط الذين كانوا يحملون إلى المسلمين سلع الشام الضرورية كالدقيق

- ١٤٠ -

والزيت والخل ، بل إنهم ذهبوا إلى أبعد من ذلك حين حاولوا عرقلة سير الدعوة الإسلامية فى تلك البقاع . ومن هنا أمكننا أن نقرر باطمئنان أن الحملات الإسلامية المبكرة فى اتجاه الشام كانت ردأ على الاستفزازات المتكررة من هؤلاء العرب الدائرين فى فلك بيزنطة ، ردأ لهم ولأمثالهم ، وكان بعضها أقرب فى طبيعته إلى بعثات للدعوة لا حملات للقتال ، وذلك بهدف تهيئة الأرض الصالحة لنشر الإسلام بين هذه القبائل العربية . وينطبق ذلك بصفة خاصة على سرية عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل فى السنة السادسة للهجرة ، أى بعد غزوة الخندق وفشل الأحزاب فى اقتحام المدينة ؛ فقد بدأت الدعوة الإسلامية فى تلك الفترة تشهد نشاطاً ملحوظاً لمدّ دائرتها خارج حدود شبه الجزيرة العربية .

-٤-

إن العام السادس للهجرة يمثّل - بحق - خطاً فاصلاً بين فترتين متميزتين فى العهد المدنى : الفترة الأولى كانت الدعوة الإسلامية فيها لا تكاد تتجاوز حدود شبه الجزيرة ، وكانت فترة تتسم بتكريس أعظم الجهود لمقاومة جبهات التحدى الداخلى : من اليهود ومشركى قريش ومن آزرهم من قبائل العرب . أما الفترة الثانية - وهى التى بدأت بصفة خاصة بعد صلح الحديبية - فهى الفترة التى شهدت الدعوة الإسلامية فيها محاولات مكثفة للخروج بها إلى دائرة أوسع من دائرة شبه الجزيرة ، وهى الفترة التى بدأ اسم الإسلام فيها يفرض نفسه على الساحة العالمية .

إن ما يهمنا فى هذا السياق على وجه الخصوص - وقد ناقشناه تفصيلاً - هو كتب رسول الله ﷺ إلى ملوك العالم وأمرائه ، وخاصة كتبه إلى هرقل والمقوقس وأمراء الغساسنة . وقد تبين لنا أن التشكيك الذى يطرحه كثير من المستشرقين حول وثاقة هذه الكتب لا يعتمد على أساس من المنطق أو التاريخ ؛ ذلك أن هذه الكتب جاءت تطبيقاً لمبدأ إسلامى ثابت أكدّه القرآن الكريم منذ العصر المكي ،

وهو عالمية الدعوة الإسلامية ، كما جاءت فى اتساق كامل مع مقتضيات تلك المرحلة من حياة الرسول ﷺ فى المدينة ، حيث أتاح صلح الحديبية للمسلمين جوا من السلام والأمن فتح المجال واسعاً أمام انطلاق الدعوة الإسلامية . والحق أن لهذه الكتب أهمية كبيرة فى إلقاء مزيد من الضوء على جذور الصراع بين المسلمين والروم ، وقد لاحظنا أن ردود أفعالها عند أمراء الغساسنة اختلفت عنها عند هرقل والمقوقس . فعلى حين كان رد هرقل والمقوقس رداً متأسماً باللباقة وحسن الكياسة جاء رد أمراء الغساسنة استفزازياً حاداً . ومن صور هذا الاستفزاز تهديد الحارث ابن أبى شمر الغسانى أمير دمشق بالهجوم على المدينة بعد أن تلقى كتاب رسول الله . على أن جموح الغساسنة بلغ مداه حين أقدم أحد وجهائهم على قتل مبعوث رسول الله ﷺ إلى أمير بُصْرَى . ولا شك أن هذه التطورات كانت من بين الأسباب الأساسية وراء تصعيد المواجهة بين المسلمين وعرب الشام بما أدت إليه من اقتحام البيزنطيين ميدان الصراع إلى جانب أحلافهم .

كما تبين لنا أن من بين الأسباب الأخرى لتصعيد تلك المواجهة ذلك التحدى السافر الذى أبداه عرب الشام بصفة عامة إزاء ما قام به الرسول ﷺ من محاولات لنشر الدعوة الإسلامية فى تلك الأنحاء . ويتجلى هذا التحدى فى أبشع صوره فيما ارتكبه قضاة فى «ذات أطلاق» حين قتلت بضعة عشر نفراً من المسلمين . تشير كل الدلائل إلى أنهم ذهبوا فى بعثة للدعوة لا حملة للقتال .

ثم إننا وضحنا أن تفسير بعض مصادرنا لموقف هرقل من كتاب رسول الله ﷺ على أنه يعكس رغبته فى اعتناق الإسلام أو يشير إلى أنه اعتنق الإسلام فعلاً - تفسير لا ظل فيه للحقيقة التاريخية . فليس فى حياة هرقل ما ينبئ عن ميل إلى التصالح بينه وبين الإسلام ، بل فيها ما يؤكد عكس ذلك ؛ فقد ظل حرباً على الإسلام حتى وفاته . ويحدثنا التاريخ أنه كان بالغ القسوة فى معاملته للمقوقس نائبه على مصر متهما إياه بأبشع التهم لأنه تخاذل فى مقاومة الفتح الإسلامى لمصر

فى خلافة عمر بن الخطاب ! أما موقفه السَّليْن إزاء كتاب رسول الله إليه وما أبداه من حسن استقبال لمبعوثه فإنه لا يعكس إلا حصافة سياسى محنك دون أن تكون له أدنى دلالة على الرغبة فى اعتناق الإسلام .

- ٥ -

إن الموقف المتشدد الذى أبداه عرب الشام إزاء الدولة الإسلامية الناشئة فى المدينة - وهو الموقف الذى بسطنا الحديث عن مظاهره المختلفة فى بحثنا - كان وراء أخطر مواجهة ميدانية بين المسلمين والروم فى عصر الرسول ﷺ ، وهى معركة مؤتة فى سنة ٨هـ (٦٢٩م) . وقد انتهى بنا فحصُ الملابسات التى أحاطت بهذه الواقعة الخطيرة ، وتتبعُ تطوراتها ، إلى أن المسلمين لم يسعوا إلى مواجهة البيزنطيين فى الميدان بل كان هدفهم الأول هو تأديب عرب الشام ووضع حد لاستفزازاتهم المتكررة التى جاوزت حد الاحتمال . وقد كان هذا الهدف بدوره كفيلاً بتحقيق أهداف أخرى لعل أهمها تأمين الدعوة الإسلامية فى تلك المناطق ودرء أى خطر يحول دون وصول السلع الضرورية إلى المدينة . وحين فوجئ المسلمون فى الميدان بما لا قبل لهم به من حشود الروم واتخذوا قرار المواجهة بعد تردد كانت المعركة التى خاضوها غير متكافئة ، ولهذا جاءت مخيبة لآمالهم بما اضطرهم إلى الانسحاب إلى المدينة بعد أن فقدوا قادتهم الثلاثة .

وقد رأينا أن أخطر ما تمخضتُ عنه «مؤتة» كان بروز الروم على مسرح الصراع ضد المسلمين . والواضح أن المسلمين بعد هذه الواقعة أدركوا حق الإدراك أنهم لا يتعاملون مع عرب الشام بل مع من وراءهم من جحافل الروم ، وكان عليهم أن يرسموا سياستهم على هذا الأساس . وكانوا فى الوقت نفسه يدركون ما عليه الروم من قوة ومنعة ؛ ولهذا كانوا يتهيبونهم ويخشون لقاءهم .

- ٦ -

والحق أن السنين التالية لمؤتة حتى وفاة الرسول ﷺ تمثل الفترة التى شعر

- ١٤٣ -

المسلمون فيها بجسامة التهديد البيزنطى للوجود الإسلامى ذاته . وقد أقام الرسول سياسته بعد مؤتة على أساس أنه لابد من صدام عاجل أو آجل مع هذه القوة الكبرى ولابد من حشد كل الجهود للتعامل معها قبل أن تدور رحاها على المسلمين . وتقع فى إطار هذه الجهود - كما رأينا - محاولاته لكسب ولاء عرب الشام ، إن لم يكن عن طريق اعتناقهم للإسلام فعن طريق تحييدهم فى الصراع الحتمى بين المسلمين والروم . وتمثل سرية «ذات السلاسل» أبرز محاولاته فى هذا الإطار ؛ فقد كانت تهدف بصفة خاصة إلى كسب ولاء قبيلة «بلى» التى كانت تربطها رحم بقائد هذه السرية عمرو بن العاص .

-٧-

وقد كان علينا - فى ضوء ما بسطناه عن خلفيات مؤتة وملابساتها ونتائجها - أن نعيد النظر فى غزوة تبوك وأن نراجع بعض ما يثور حولها من آراء . فلم يكن الهدف من هذه الغزوة - كما بيّنا - هو الانتقام لمقتل القادة المسلمين فى مؤتة ، بل كان الهدف منها هو صد هجوم الروم المتوقع الذى ترامت أنبأؤه إلى المدينة ؛ فقد كانت - إذن - غزوة اضطرار لا غزوة اختيار . والذى يؤكد ذلك هو ما أحاط بها من ظروف قاسية جعلت المؤرخين يطلقون على جيشها اسم «جيش العسرة» ، وجعلت بعض المسلمين يتناقلون فى الانضمام إليها . وقد أدى بنا تقرير هذه الحقيقة إلى تأكيد حقيقة أخرى وهى أن الرسول ﷺ لم تكن لديه خطة للتوغل فى بلاد الروم حين خرج إلى تبوك ، على خلاف ما يقول به بعض المستشرقين . والواضح أن هؤلاء ينطلقون من تصور راسخ لديهم وهو أن الدولة الإسلامية منذ نشأتها قامت على العدوان والتوسع . وهم - من أجل تأييد هذا التصور - يلوون أعناق الحقائق التاريخية . وقد عرفنا من دراستنا لغزوة تبوك أن الرسول حين اكتشف أن الروم لم يخرجوا للقاء المسلمين - كما أشيع قبل ذلك - لم يجد مبرراً للتوغل فى بلادهم وعاد إلى المدينة مكتفياً بعقد بعض المعاهدات مع عدد من

التجمعات القبلية على حدود الشام كفاً لأذاها وكسباً لتأييدها فيما كان يتوقعه من صدام لا يبد منه بين المسلمين والروم ؛ وهى السياسة التى كان الرسول قد أرسى دعائمها قبل ذلك . ولا شك أن هذه السياسة أدت إلى تعرض تلك التجمعات للتأثير الإسلامى مما سهّل عملية انتشار الإسلام بينها بعد ذلك .

- ٨ -

ومع أن غزوة تبوك كانت آخر حملات الرسول ﷺ ضد الروم (بل آخر حملاته جميعاً) فإن هناك حملة أخرى أعدّها قبيل وفاته ولم يُقدّر لها أن تكتمل إلا فى صدر خلافة أبى بكر وهى بعث أسامة بن زيد . وقد انتهينا من دراستنا لظروف هذا البعث إلى أن الرسول لم يقصد به أن يكون هجوماً على الروم بل مجرد غارة سريعة خاطفة هدفها تأديب تلك القبائل العربية التى دأبت على إيذاء المسلمين وكانت مسئولة إلى حد كبير عن مقتل القادة الثلاثة فى مؤتة ومن بينهم زيد بن حارثة والد أسامة . ورغم أن أبا بكر كان هو الذى تولى إنفاذ هذه الحملة فإن الذى خطط لها ورسم أهدافها واختار قائدها هو الرسول ﷺ ؛ ولهذا جاز لنا أن ندرجها ضمن نشاطه الحربى ضد بلاد الشام . وإذا كان بعث أسامة يتفق مع سرية مؤتة فى الغرض الذى خرجت من أجله وهو تأديب القبائل العربية الشامية التى طالّ تحرشها بالمسلمين فإنه يختلف معها فى النتيجة كما رأينا ؛ فقد حقق هذا البعث أهدافه وعاد إلى المدينة دون أن يمر بالتجربة القاسية التى تعرضت لها سرية مؤتة . والواضح أن المسلمين وعَوْاً درس مؤتة جيداً ؛ ولهذا جاءت غارتهم سريعة خاطفة ترمى إلى إنزال العقاب بالعدو دون الإمعان فى طلبه ؛ وذلك حتى لا يتجاوز هذا البعث مرماء ويجد المسلمون أنفسهم فى مواجهة لا يريدونها مع الروم كما حدث فى مؤتة .

وقد لاحظنا أن النجاح الذى حققه بعث أسامة أفزع الروم ووجّه أنظارهم إلى خطورة هذا العدو الجديد الرابض على حدودهم . ولهذا أمر هرقل بوضع رابطة

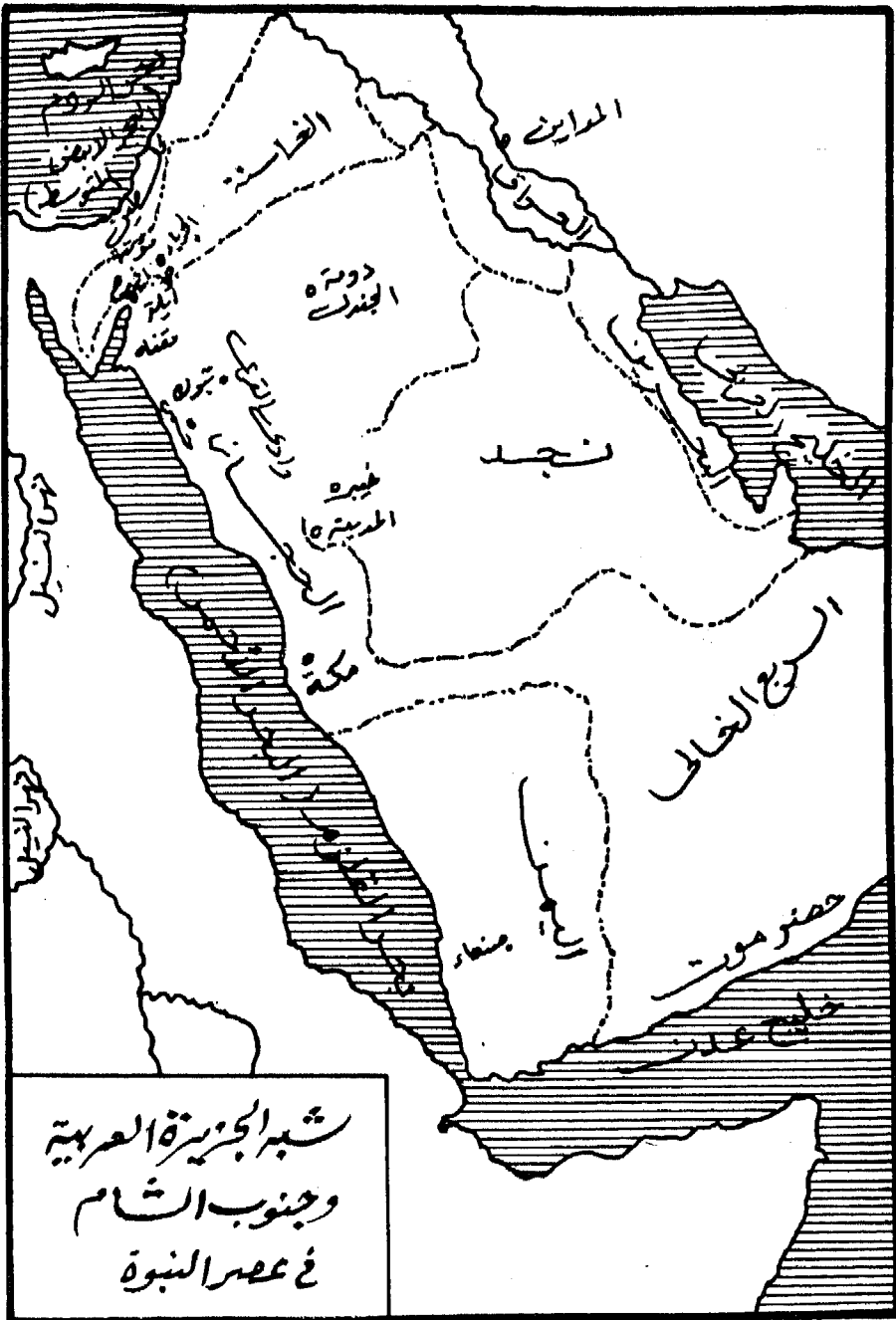
فى البلقاء تحسبا لآى هجوم مصدره شبه الجزيرة العربية . وهكذا بدأ الاحتكاك الإسلامى البيزنطى يأخذ منعطفأ جديداً خطيراً ، ولم يعد أى من الطرفين يأمن الطرف الآخر . وقد كان تطور الوضع على هذا النحو سببأ فى اشتعال المواجهة الشاملة بينهما فى وقت لاحق فى عصر الخلفاء الراشدين ، وهو ما يحتاج إلى دراسة مستقلة لابد أن تأخذ فى اعتبارها جذور الصراع وتطوره بين الجانبين فى عصر الرسول ﷺ .

* * * *

وبعد : فلعل هذا البحث نجح فى إلقاء بعض الضوء على إحدى القضايا المهمة فى تاريخنا الإسلامى وهى العلاقات الإسلامية البيزنطية فى عصر النبوة . والحق أنه بدون الفهم الصحيح لجذور هذه العلاقات وتطورها فى ذلك الصدر المبكر يصعب على المرء أن يفهم الكثير من أبعاد الصراع اللاحق بين المسلمين والروم فى مراحلہ المتعاقبة ؛ وهو صراع يشغل حيزا لا يستهان به من صفحات التاريخ الإسلامى . وقد حاولنا - فى حدود الإمكانيات المتاحة - أن نعطى اللثام عن كثير من المشاكل المتصلة بجوانب هذه القضية فى الفترة المذكورة ، مع اعترافنا التام بأن الكثير من الأسئلة المطروحة ما زال فى حاجة إلى مزيد من جهد الباحثين المخلصين .

ونحمد الله على ما أعان .

الخراط



خريطة رقم (١)

قائمة المصادر والمراجع

مرتبة ترتيباً هجائياً حسب أسماء المؤلفين

أولاً ، العربية والمترجمة *

أبو عبيد (القاسم بن سلام) :

- كتاب الأموال . تحقيق محمد خليل هراس . دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع . القاهرة : ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .

أبو الفدا (الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل) :

- المختصر فى أخبار البشر . المطبعة الحسينية المصرية . القاهرة : ١٣٢٥هـ .

ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن على بن محمد) :

- أسد الغابة فى معرفة الصحابة . دار الشعب . القاهرة : ١٩٧٠م .

- الكامل فى التاريخ . دار صادر . بيروت : ١٩٧٩ - ١٩٨٢م .

الأصفهاني (أبو الفرج على بن الحسين) :

- الأغانى . المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

القاهرة : ١٩٦٣م .

امروء القيس (ابن حُجر بن الحارث) :

- ديوان امرئ القيس . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . دار المعارف

القاهرة : ١٩٩٠م .

* يلاحظ ما يأتى :

أولاً : لم تُدخل فى الاعتبار كلمة «ابن» عند الترتيب الهجائى لأسماء المؤلفين .

ثانياً : راعينا اسم الشهرة فى الترتيب ، سواء اشتهر المؤلف باسمه الأول مثل «ياقوت» ، أم باسمه المرادف

مثل «خليفة بن خياط» ، أم باسمه الأخير مثل «المسعودى» .

أوليرى (ديلاسى) :

- مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب . ترجمة الدكتور تمام حسان . مكتبة الأنجلو المصرية . القاهرة : ١٩٥٧ م .

أومان (ش) :

- الامبراطورية البيزنطية . تعريب الدكتور مصطفى طه بدر . دار الفكر العربى . القاهرة : ١٩٥٣ م .

إيوار (Huart) :

- مادة «امرو القيس» فى : دائرة المعارف الإسلامية ، ج٤ . الطبعة العربية . دار الشعب . القاهرة (بدون تاريخ) .

بتلر (ألفريد . ج .) :

- فتح العرب لمصر . ترجمة الأستاذ محمد فريد أبو حديد . الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة : ١٩٨٩ م .

البخارى (أبو عبد الله محمد بن إسماعيل) :

- صحيح البخارى . دار الشعب . القاهرة (بدون تاريخ) .

البلاذرى (أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر) :

- أنساب الأشراف ، ج١ . تحقيق الدكتور محمد حميد الله . دار المعارف . القاهرة : ١٩٨٧ م .

- فتوح البلدان . مراجعة وتعليق رضوان محمد رضوان . دار الكتب العلمية . بيروت : ١٩٩١ م .

بينتز (نورمان) :

- الامبراطورية البيزنطية . ترجمة الدكتور حسين مؤنس والأستاذ محمود يوسف زايد . لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة : ١٩٥٠ م .

جاء المولى (محمد أحمد) ، وعلى محمد البجاوى ، ومحمد أبو الفضل إبراهيم :

- أيام العرب فى الجاهلية . دار الجيل . بيروت : ١٩٨٨ م .

جرجى زيدان :

- العرب قبل الإسلام . مراجعة وتعليق الدكتور حسين مؤنس . دار الهلال . القاهرة (بدون تاريخ) .

جواد على :

- المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام . دار العلم للملايين بيروت ومكتبة النهضة ببغداد : ١٩٨٠ م .

جوزيف نسيم يوسف (الدكتور) :

- تاريخ الدولة البيزنطية . مؤسسة شباب الجامعة . الإسكندرية : ١٩٨٤ م .

ابن حبيب (أبو جعفر محمد) :

- كتاب المجبّر . مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية . حيدر آباد الدكن : ١٣٦١ هـ - ١٩٤٢ م .

- كتاب المنمّق فى أخبار قریش . تحقيق خورشيد أحمد فاروق . مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية . حيدر آباد الدكن : ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م .

ابن حجر (أحمد بن على بن محمد الكنانى العسقلانى) :

- الإصابة فى تمييز الصحابة . دار الكتاب العربى . بيروت (بدون تاريخ) .

ابن حزم (على بن أحمد بن سعيد) :

- جمهرة أنساب العرب . دار الكتب العلمية . بيروت : ١٩٨٣ م .

- جوامع السيرة وخمس رسائل أخرى . تحقيق الدكتور إحسان عباس والدكتور ناصر الدين الأسد ومراجعة أحمد محمد شاكر . دار إحياء السنة . لاهور (بدون تاريخ) .

حسن إبراهيم حسن (الدكتور) :

- تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى . دار الجيل بيروت
ومكتبة النهضة المصرية بالقاهرة : ١٩٩٦ م .

الحلبى (على بن برهان الدين) :

- إنسان العيون فى سيرة الأمين المأمون ، الشهير بالسيرة الحلبية . مصطفى
البابى الحلبى . القاهرة : ١٩٦٤ م .

حمزة الأصفهاني :

- تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء . منشورات دار مكتبة الحياة . بيروت
(بدون تاريخ) .

الخضرى (الشيخ محمد) :

- محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية . المكتبة التجارية الكبرى . الطبعة
الثالثة . القاهرة (بدون تاريخ) .

ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) :

- كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن
عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر (الشهير بتاريخ ابن خلدون) . دار الكتب
العلمية . بيروت : ١٩٩٢ م .

خليفة بن خياط :

- تاريخ خليفة بن خياط . تحقيق أكرم ضياء العمرى . المجمع العلمى العراقى .
بغداد : ١٩٦٧ م .

**الذهبي (الحافظ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن
عثمان) :**

- تاريخ الإسلام . المجلد الأول : المغازى . تحقيق محمد محمود حمدان .
دار الكتاب المصرى بالقاهرة ودار الكتاب اللبنانى بيروت : ١٩٨٥ م .

- العبر فى خبر من غير . الجزء الأول بتحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد .
دائرة المطبوعات والنشر . الكويت : ١٩٦٠ م .

ابن سعد (محمد) :

- الطبقات الكبرى . دار صادر . بيروت : ١٩٥٨ م .

السهيلي (عبد الرحمن) :

- الروض الأثف فى شرح السيرة النبوية لابن هشام . تحقيق عبد الرحمن
الوكيل . دار الكتب الحديثة . القاهرة : ١٩٦٧ - ١٩٧٠ م .

الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير) :

- تاريخ الرسل والملوك (الشهير بتاريخ الطبرى) . تحقيق محمد أبو الفضل
إبراهيم . دار المعارف . القاهرة : ١٩٧٩ م .

- جامع البيان فى تفسير القرآن . المطبعة الأميرية . بولاق . القاهرة :
١٣٢٩ هـ .

ابن عبد البر (أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد) :

- الاستيعاب فى معرفة الأصحاب . تحقيق على محمد البجاوى . مكتبة
نهضة مصر . القاهرة (بدون تاريخ) .

ابن عبد الحكم (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله) :

- فتوح مصر وأخبارها . تحقيق تشارلز توري . نيوهافن : ١٩٢٢ م .

ابن عبد ربه (أحمد بن محمد) :

- العقد الفريد . تحقيق محمد سعيد العريان . دار الفكر . بيروت
(بدون تاريخ) .

العدوى (الدكتور إبراهيم أحمد) :

- الدولة الإسلامية وامبراطورية الروم . دار رياض الصالحين . الفيوم :
١٩٩٤ م .

- المسلمون والجرمان . دار رياض الصالحين . الفيوم : ١٩٩٤ م .

العرينى (الدكتور السيد الباز) :

- الدولة البيزنطية . دار النهضة العربية للطباعة والنشر . بيروت : ١٩٨٢ م .

ابن عساكر (الحافظ أبو القاسم على بن الحسن) :

- تاريخ مدينة دمشق . المجلد الأول . تحقيق صلاح الدين المنجد . دمشق : ١٩٥١ م .

العقاد (الأستاذ عباس محمود) :

- مطلع النور أو طوابع البعثة المحمدية . المكتبة العصرية . بيروت . صيدا (بدون تاريخ) .

ابن العماد الحنبلى (أبو الفلاح عبد الحى) :

- شذرات الذهب فى أخبار من ذهب . دار الكتب العلمية . بيروت (بدون تاريخ) .

فُنسَنك (١ . ج .) :

- مادة «بحيرا» فى دائرة المعارف الإسلامية ، ج٦ . الطبعة العربية . دار الشعب . القاهرة (بدون تاريخ) .

ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم) :

- المعارف . تحقيق الدكتور ثروت عكاشة . الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة : ١٩٩٢ م .

القلقشندي (أبو العباس أحمد بن على) :

- صبح الأعشى فى صناعة الإنشا . المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر . القاهرة : ١٩٦٣ م .

ابن القيم (شمس الدين أبو عبد الله محمد) :

- زاد المعاد فى هدى خير العباد . المكتبة التوفيقية . القاهرة : ١٩٨٠ م .

الكتبى (محمد بن شاكر بن أحمد) :

- عيون التواريخ . السُّفر الأول . تحقيق حسام الدين القدسى . مكتبة النهضة المصرية . القاهرة : ١٩٨٠ م .

ابن كثير (الحافظ إسماعيل بن عمر) :

- البداية والنهاية . تحقيق الدكتور أحمد أبو ملحّم وآخرين . دار الكتب العلمية . بيروت : ١٩٨٥ م .

محمد كرد على :

- خطط الشام . دار العلم للملايين . بيروت : ١٩٦٩ م .

المسعودى (أبو الحسن على بن الحسين) :

- التنبيه والإشراف . تحقيق عبد الله إسماعيل الصاوى . المكتبة العصرية . بغداد : ١٩٣٨ م .

- مروج الذهب ومعادن الجوهر . تحقيق محمد محبى الدين عبد الحميد . المكتبة التجارية الكبرى . القاهرة : ١٩٤٨ م .

مسلم (أبو الحسين بن الحجاج) :

- صحيح مسلم بشرح النووى . دار الريان للتراث . القاهرة : ١٩٨٧ م .

مصطفى طلاس :

- سيف الله خالد بن الوليد . دمشق : ١٩٧٨ م .

المقدسى (مظهر بن طاهر) :

- البدء والتاريخ (ويُنسب كذلك إلى أبى زيد أحمد بن سهل البلخى) . مكتبة المثنى ببغداد ومؤسسة الخالجي بمصر : ١٨٩٩ - ١٩١٦ م .

ابن منظور (جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي) :

- لسان العرب . دار المعارف . القاهرة : ١٩٧٩ م .

نولدكه (تيودور) :

- أمراء غسان . ترجمة الدكتور بندلي جوزي والدكتور قسطنطين زريق .

بيروت : ١٩٣٣ م .

هسّي (ج . م .) :

- العالم البيزنطي . ترجمة الدكتور رأفت عبد الحميد . دار المعارف . القاهرة :

١٩٨٤ م .

ابن هشام (أبو محمد عبد الملك) :

- سيرة النبي ﷺ (الشهيرة بسيرة ابن هشام) . تحقيق محمد محيي الدين

عبد الحميد . دار الهداية . القاهرة (بدون تاريخ) .

الواقدي (محمد بن عمر بن واقد) :

- كتاب المغازي . تحقيق الدكتور مارسدن جونز . عالم الكتب . بيروت :

١٩٨٤ م .

ابن الوردي (زين الدين بن عمر) :

- تامة المختصر في أخبار البشر (الشهير بتاريخ ابن الوردي) . الجزء الأول .

تحقيق أحمد رفعت البدراوى . دار المعرفة . بيروت : ١٩٧٠ م .

ياقوت (شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي) :

- معجم البلدان . تحقيق فريد عبد العزيز الجندى . دار الكتب العلمية .

بيروت : ١٩٩٠ م .

اليقوبى (أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر) :

- تاريخ اليعقوبى . دار صادر . بيروت : ١٩٩٢ م .

ثانياً ، المراجع الأجنبية ،

Brockelmann (v.) :

- History of the Islamic Peoples . Translated from the German by J. Carmichael and M. Perlmann . London and Henley, 1980 .

Bury (J. B.) :

- History of the later Roman Empire from Arcadius to Irene (395 - 800) . London, 1889 .

Canard (M.)

- The article "al - Djazira" in "The Encyclopedia of Islam" . New Edition .

Davis (R. H. C.) :

- History of Medieval Europe . London, 1988 .

Donner (F. M. G.) :

- The Early Muslim Conquests . Princeton, 1981 .

Glubb (J. B.) :

- The Great Arab Conquests . London, 1963 .
- The Life and Times of Muhammad . New York, 1979 .

Grégoire (H.) :

- "The Byzantine Church" , an article published in : "Byzantium", ed . by N. H. Baynes and H. Moss . Oxford . 1953 .

Grunebaum (G. E. Von) :

- Classical Islam : A History 600 - 1258 . London, 1970 .

Hitti (Ph. K.) :

- History of the Arabs . London, 1970 .
- History of syria . London, 1957 .

Irving (W.) :

- Mahomet and his Successors . London, 1985 .

Johnson (P.) :

- A History of Christianity . Penguin Books, Middlesex, 1982 .

Kennedy (H.) :

- The Prophet and the Age of the Caliphates . London and New York, 1986 .

Krüger (G.) :

- "Monophisitism" , in the "Encyclopedia of Religion and Ethics" . Vol . 8 .

Moss (H.) :

- "The Formation of the East Roman Empire 330 - 717" , an article published in "The Cambridge Medieval History". Vol . IV, part I, Cambridge .
- " The History of the Byzantine Empire : an outline" , an article published in "Byzantium" , ed . N. H. Baynes and H. Moss. Oxford, 1953 .

Nicol (D. M.) :

- "Justinian and his Successors" , an article published in "Byzantium : an Introduction to East Roman Civilization" . Oxford, 1961 .

O' Leary (De Lacy) :

- Arabia before Muhammad . Lahore, 1989 .

Ostrogorsky (G.) :

- History of the Byzantine State . Translated into English from the German by J. Hussey, Oxford, 1968 .

Runciman (S.) :

- History of the Crusades. Penguin Books, Middlesex, 1986.

Saunders (J.) :

- A History of Medieval Islam . London, 1965 .

Shahid (Irfan) :

- "Ghassan", in "The Encyclopedia of Islam" , New Edition .

Sourdel (D.) :

- "Dumat al - Djandal" , in "The Encyclopedia of Islam" , New Edition .

Stratos (A. N.) :

- Byzantium in the Seventh Century . Translated by Marc Ogilvie - Grant, Amsterdam, 1968 .

Sykes (P.) :

- A History of Persia . London, 1958 .

Theophanes :

- Chronographia . Ed. de Boor . Leipzig, 1883 .

Trimingham (J. S.) :

- Christianity among the Arabs in Pre - Islamic Times .
Librairie du Liban, 1979 .

Vasiliev (A. A.) :

- History of the Byzantine Empire . Wisconsin, 1952 .

Watt (W. M.) :

- Muhammad at Medina . Oxford, 1956 .
- Muhammad : Prophet and Statesman, Oxford, 1961 .

Whitting (Philip) :

- "Byzantine Art and Architecture" , and article published in
"Byzantium : an Introduction" . Oxford, 1981 .

الفهارس

أولاً: فهرس الأعلام

[أ]

- آمنة بنت وهب : ٧٦
إبراهيم (بن محمد بن عبد الله ﷺ) : ٨٢
أبرهة : ٢١
أبو بكر الصديق : ١٠ ، ٥٨ ، ٦٨ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١١٢ ،
١١٧ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٧ ، ١٤٥ .
أبو سفيان (بن حرب) : ٧٦ ، ٧٧ ، ١١٩
أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف : ٦٧
أبو طالب (عم الرسول ﷺ) : ٥٣
أبو عامر الراهب : ١٠ ، ١٢٦
أبو عبيدة (عامر بن الجراح) : ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥
أبو الفدا : ٣٧ ، ٣٨
أبو كبشة : ٧٦
أبو معشر : ١٢
أبو هريرة : ٩٨
ابن أبي سبرة الغساني : ٩٥
أتيل (القائد الهوني) : ٢٠
ابن الأثير : ١٣
إرفنج : ٩٨ ، ١٣٣
أركاديوس (الامبراطور البيزنطي) : ٢٠
أسامة بن زيد : ١٠ ، ١٤ ، ٦٨ ، ١٢٣ ، ١٢٧ ، ١٣٧ إلى ١٢٧ - ٣٧
١٤٥١
ابن إسحاق = محمد بن إسحاق .
أسد بن عبد العزى : ٥٢

الإسكندر الأكبر : ٣٢
الأصبع بن عمرو الكلبي : ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ١١٦
أكيدر بن عبد الملك السكوني الكندي : ٦١ ، ٦٣ ، ٦٦ ، ١١٧
ألا أصبحت : ٤٧
ألبوين (الملك اللمباردي) : ٢٧
امرؤ القيس (أمير شعراء الجاهلية) : ٤٢ ، ٤٣
أم سلمة (زوج النبي ﷺ) : ٩٨
أميلنو : ٨١
أناستاسيوس الأول : ١٩ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٧
أنس بن مالك : ٩٧
أودوفاكار : ٢٠
أوس بن خولى : ٧٨
أوستروجرسكى : ٢٥
أوليرى : ٨١
الأيهم بن النعمان الغساني : ٧٤

[ب]

بتلر : ١١٥
بحيرى : ٥٣ ، ٥٤
البخارى : ١٢ ، ٨٢ ، ٩٧ ، ١٠٠
بروكلمان : ٩٤ ، ١١٥
بروكوبيوس : ٤٠
البلاذرى : ١٣ ، ١٤ ، ٦٢ ، ٧٢ ، ١٠٦ ، ١٠٩ ، ١١٣ ، ١١٩ ، ١٢٩
بهرام : ٢٨

[ت]

تماضر بنت الأصبع : ٦٧
تيادوقس = ثيودوروس البطريق

[ث]

ثعلبة بن عمرو بن المجالد : ٣٧

ثيود وروس البطريق : ٩٣ ، ٩٤

ثيودوسيوس الأول : ٢٠

ثيوفانس : ١١ ، ٤٦ ، ٩٤

[ج]

جبله بن الأيهم : ٤٦ ، ٧٤ ، ١٢٥

الجد بن قيس : ١١٣

جرجي زيدان : ٣٨

جرونبوم : ٨٠

جستين الأول (الكبير) : ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤

جستين الأول (الأكبر) : ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٦ ، ٤٧

جستين الثاني (الأصغر) : ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٤٣ ، ٤٤

جعفر بن أبي طالب : ٩٢ ، ٩٦ ، ١١٠ ، ١٢٩

جفنة بن عمرو مزيقيا بن عامر بن ماء السماء : ٣٧

جلوب : ٨١ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٤ ، ١٢٦ ، ١٣٣

جيفر بن جُلْنَدَى : ٧٣

[ح]

الحارث بن أبي شمر الغساني : ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٧٣ ، ٧٤

٧٨ ، ٧٩ ، ٨٤ ، ٨٨ ، ١٢٥ ، ١٤٢

الحارث الأعرج = الحارث بن أبي شمر

الحارث بن جبله = الحارث بن أبي شمر

الحارث الرابع = الحارث بن أبي شمر

الحارث بن عبد العزى : ٧٦

الحارث بن عمرو بن عامر بن حارثة (الحارث الأكبر) : ٣٧

الحارث بن عُمَيْر الأزدى : ٧٤ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٤ ، ٨٨ ، ٩٢

حاطب بن أبي بلتعة : ٧٣ ، ٧٨

حتى = فيليب حتى

ابن حَجَر : ١٣

حُجْر بن الحارث : ٤٢

حريث (من بنى عُذرة) : ١٣٥

ابن حزم : ١٢

حسان بن ثابت : ٣٦ ، ٧٨

حليمة بنت الحارث بن جبلة : ٤١

حليمة السعدية : ٧٦

حمزة الأصفهاني : ٣٧ ، ٣٨

[خ]

خالد بن الوليد : ٦٦ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١١٧

خديجة بنت خويلد : ٥٣

خسرو برويز = كسرى الثانى

ابن خلدون : ١٣

خليفة بن خياط : ١٣

[د]

داجوبيرت : ٣٢

دحية بن خليفة الكلبي : ٦٤ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٨٧ ، ١١٨ ، ١١٩

[ذ]

ذونواس : ٢٢ ، ٤٧

[ر]

رانسمان : ٨١

[ز]

زيد بن حارثة : ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٨٧ ، ٩٢ ، ٩٥ ،

٩٦ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٤٥

زيد بن عمرو بن نفيل : ٥٢

زينون : ١٩

[س]

ستراتوس : ٥

ابن سعد = محمد بن سعد

سلمة بن هشام بن المغيرة : ٩٨

سلمى بنت عمرو بن زيد : ٧٦

السهيلي : ١٢ ، ١١٩

سو ندرز : ٨١ ، ٨٣

سيرين : ٧٨

سيف بن ذي يزن : ٢٦

[ش]

شجاع بن وهب الأسدي : ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٨

شرحبيل بن عمرو الغساني : ٧٤ ، ٧٨ ، ٨٤ ، ٨٨ ، ٩٣ ، ٩٥ ، ١٢٩

شَهْرُ بَرَار : ٣٠ ، ٣١

شيبة بن ربيعة : ٥٢

[ط]

الطبري : ١٣ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٨٢ ، ٩٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠

طياريوس الأول : ٢٦ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٩

طياريوس قسطنطينوس = طياريوس الأول

[ع]

العاص بن وائل : ١٠٤

عامر بن صعصعة : ١٢٦

عامر بن الطفيل : ١٢٦

عباد بن جلندي : ٧٣

ابن عباس = عبد الله بن عباس

ابن عبد البر : ١٣
 ابن عبد الحكم : ١٣ ، ٧٨ ، ٨٢
 ابن عبد ربه : ٣٨
 عبد الرحمن بن حسان بن ثابت : ٧٨
 عبد الرحمن بن عوف : ٨ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ١١٦ ، ١٤١ .
 عبد الله بن أبي بن سلول : ١١٣
 عبد الله بن الجعد بن قيس : ١١٣
 عبد الله بن رواحة : ٩٢ ، ٩٥ ، ٩٦
 عبد الله بن عباس : ٥٨
 عبيد الله بن جحش : ٥٢
 عثمان بن الحويرث : ١٦ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢
 عثمان بن عفان : ١١٢
 ابن عساكر : ١٣ ، ١٤ ، ٩٨
 العلاء بن الحضرمي : ٧٣
 علقمة بن علاثة : ١٢٦
 عمر بن الخطاب : ٤٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١٢٦ ،
 ١٣٤ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٤٣
 عمرو بن جفنة الغساني : ٤٩
 عمرو بن زيد بن لييد النجاري : ٧٦
 عمرو بن العاص : ٩ ، ١٤ ، ٧٣ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٤٤
 عمرو بن قميئة الشكري : ٤٣
 عمّار بن ياسر : ٧٤
 عيسى بن مريم : ٧٧
 عيَّاش بن أبي ربيعة : ١٣٢

[ف]

فاز يليف : ٨٠

فروة بن عمرو الجذامي : ١٠ ، ١٢٤ ، ١٢٥

فوكاس : ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١

فيليب حتّى : ٨٩ ، ٩٠

[ق]

قابوس بن المنذر : ٤٤

قباذ : ٢١

قباذ شيرويه (قباذ الثاني) : ٣١ ، ٥٩

ابن قتيبة : ١٥ ، ٣٥ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٥١

قسطنطين الأكبر : ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٣

قصى بن كلاب : ٥١

قطبة بن قتادة العذرى : ١٠٠

ابن القيم (ابن قيم الجوزية) : ١٢ ، ٩٨

[ك]

ابن كثير : ١٣ ، ٩٧ ، ١٠٠

كسرى أنوشروان : ٢٤ ، ٢٦ ، ٢٨ ، ٤٤

كسرى الثاني : ٢٨ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٨٢

كعب بن عمير الغفارى : ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٨

كعب بن مالك : ١٢٥

كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان : ٣٦

[م]

مارية (القبطية) : ٧٨ ، ٨٢

مازن بن الأزد : ٣٦

مالك بن رافلة : ٩٣ ، ٩٥ ، ١٠٠

محمد بن إسحاق : ١٢ ، ١٣ ، ٩٧ ، ١٠٤

محمد بن حبيب : ١٥ ، ٣٧ ، ٤٩

محمد الخضرى : ٩٤

محمد بن سعد : ١٣ ، ٩٧
 محمد الفاتح : ١٧ ، ٢٥
 المسعودي : ١٥ ، ٣٥ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٦١ ، ٧٣ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ١٠٦
 مسلم (بن الحجاج) : ١٢
 مصطفى طلاس : ٩٩
 معمر بن راشد : ١٢
 المقوقس : ٩ ، ١٣ ، ٧٣ ، ٧٥ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨٢ ، ١٤١ ، ١٤٢
 المنذر الثالث بن ماء السماء : ٤١ ، ٤٤
 المنذر بن الحارث بن أبي شمر = المنذر بن الحارث بن جبلة
 المنذر بن الحارث بن جبلة : ٤٣ ، ٤٤ ، ٧٤ ، ٧٨
 المنذر بن ساوى : ٧٣
 موريس (الامبراطور البيزنطى) : ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٤٥ ، ٤٩
 موسى بن عقبة : ١٢
 ميسرة (غلام خديجة) : ٥٣

[ن]

نسطورا : ٥٤
 النعمان بن عمرو بن مالك : ٣٥
 النعمان بن المنذر بن الحارث : ٤٥
 نقفور (المؤرخ البيزنطى) : ١١
 النووى : ١١٩

[هـ]

هرقل (الاب) : ٢٩
 هرقل (الامبراطور البيزنطى) : ٩ ، ١١ ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٩ ،
 ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٦٤ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ،
 ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ،
 ١٠٩ ، ١١٤ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٣٧ ، ١٤١ ، ١٤٢

١٤٥

هرمز الرابع : ٢٨

ابن هشام : ١١ ، ١٢ ، ٨٢ ، ٩٣ ، ٩٧

هونوريوس : ٢٠

[و]

وات (مونتجومري) : ٦٣ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٧٢ ، ٨١ ، ٨٣ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٩٩ ،

١٠٠ ، ١٢٤

الواقدي : ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ٩٣ ، ٩٧ ، ١٠٣ ، ١٠٦ ، ١٠٩ ، ١١٠ ،

١١٣ ، ١١٤ ، ١١٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٢ ، ١٣٥

ابن الوردى : ٩٣

ورقة بن نوفل : ٤٩ ، ٥٢

وهب بن عبد مناف بن زهرة : ٧٦

[ي]

ياقوت الحموى : ١٣ ، ٦١ ، ٦٣

يعقوب البراذعى : ٤٢

اليقوبى : ١٣ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٨٢ ، ١١١ ، ١٢٨ ، ١٣٠

يوحنا بن رؤبة : ١١٧

ثانياً: فهرس الأماكن والبلدان

[١]

- آبل الزيت : ١٤ ، ١٣٥
آسيا : ١٨ ، ٢٠ ، ٣٠
آسيا الصغرى : ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ١١٠
آسيا الوسطى : ٢٧
آيا صوفيا : ٢٥ ، ٢٩
أبْنَى = يُبْنَى
أُحْد : ٦٠ ، ٦٢ ، ١٤٠
أَذْرُح : ٤١ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨
أَذْرَعَات : ٨٥ ، ١٢٧
الأردن : ٦٣ ، ٩٥ ، ١٢٤ ، ١٣٤ ، ١٣٥
أرمينيا : ٢١ ، ٢٣
إسبانيا : ٢٤
استانبول : ٢٥
الإسكندرية : ٣٠
اسكندناوه : ٢٠
إفريقية : ٢٠ ، ٢٩
أم القرى = مكة
أنطاكية : ٢٨ ، ٣٠ ، ٩٣
أنقرة : ٤٢
أوروبا : ١٨
إيطاليا : ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٧
إيلات = أيلة
أيلة : ٤٧ ، ٩٣ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨

[ب]

- باب المندب : ٤٨
البحر الأبيض المتوسط : ٤٧ ، ٢٤
البحر الأحمر : ٤٨
بحر مرمرة : ١٨
البحرين : ٧٣
بدر : ٥٢ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٩ ، ٩٤ ، ١٤٠
بريطانيا : ٢٠
اليسفور : ١٧ ، ١٨
بُصْرَى : ٣٩ ، ٤٧ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٦٤ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٤ ،
٨٧ ، ٨٩ ، ١٣٠ ، ١٤٢
بلاد الجزيرة : ٢١ ، ٢٣ ، ٢٨ ، ٣١ ، ٣٣
بلاد الغال : ٢٠ ، ٢٢
البلقاء : ٣٩ ، ٧٤ ، ٧٩ ، ٩٣ ، ١٠٩ ، ١١٨ ، ١٢٤ ، ١٢٧ ، ١٣٠ ،
١٣٧ ، ١٤٦
البلقان : ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٧
بيت المقدس : ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٧٥
بيزنطة : ٥ ، ١٧ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٢ ، ٤١ ،
٤٥ ، ٥٥ ، ٦٠ ، ٦٧ ، ١١٤ ، ١١٨ ، ١٢٠ ، ١٢٦ ، ١٤١

[ت]

- تبوك : ٥ ، ٦ ، ١٠ ، ١٢ ، ١٤ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٨٥ ، ٨٩ ، ٩٢ ، ١٠٠ ،
١٠٢ ، ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ،
١١٦ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٢ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٣٠ ، ١٣٦ ،
١٤٤ ، ١٤٥
تدمر : ٤١ ، ٤٤
تيماء : ٤١ ، ٦٥

[ث]

ثنية الوداع : ٩٢ ، ١١٣

[ج]

الجابية : ٣٩ ، ٤٠

جبل طيئ : ٦١

الجرباء : ٤١ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨

الجُرْف : ٩٢ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٣ ، ١٣٤

الجزيرة = بلاد الجزيرة

الجزيرة العربية = شبه الجزيرة العربية

جلق : ٣٩

الجوف : ٦١

الجولان : ٣٩ ، ٧٤

[ح]

الحبشة : ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ١٣٢ ، ١٣٩

الحجاز : ٧ ، ٨ ، ٣٣ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٦٠ ،

٦٢ ، ٦٣ ، ٧٦ ، ٨٣ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦

الحديبية : ٨ ، ٩ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٤ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ،

٧٩ ، ٨٧ ، ١١٩ ، ١٤١ ، ١٤٢

حسَمَى : ٨ ، ١٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٨٧ ، ١٠٣

حَمَاة : ٤١

حمراء الأسد : ٦٠ ، ١٤٠

حمص : ٤١ ، ٧٥ ، ٧٦

خُنَيْن : ١١١ ، ١٣٣

حوارين : ٤٤

حوران : ٣٤ ، ٣٩ ، ١٢٦

الحيرة : ٤١ ، ٤٤ ، ٤٧

[خ]

خلقيديونية : ٤٣

الخنديق : ٦٠ ، ٦٩ ، ١٤١

خيبر : ٦٥ ، ٩٣ ، ١٠٣

[د]

دارا : ٢٨

الداروم : ١٣٠

الدانوب : ٢٤ ، ٢٧

دمشق : ٣٠ ، ٤١ ، ٤٤ ، ٤٧ ، ٧٤ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٥ ، ٨٨ ، ١١٣ ،

١٤٢

دومة = دومة الجندل

دومة الجندل : ٨ ، ١٢ ، ١٤ ، ١٥ ، ٤١ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٦ ، ٦٧ ،

٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٨٧ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١٤١

[ذ]

ذات أطلاق : ٩ ، ١٢ ، ١٤ ، ١٥ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٨ ، ١٠٧ ، ١٣٠ ، ١٤٢

ذات السلاسل : ٩ ، ١٤ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٢٢

[ر]

الرملة : ١٣٥

الرها : ٤٢

روما : ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١

[س]

سد مأرب : ٣٦ ، ٣٨

سوريا : ٢٨ ، ٣٠ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٧٦ ، ٧٧

[ش]

الشام : ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١٤ ، ١٥ ، ٣٠ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ،

٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٩ ، ٥٣ ،

٥٤ ، ٥٥ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠

٩٠ ، ٨٩ ، ٨٨ ، ٨٧ ، ٨٦ ، ٨٥ ، ٨٤ ، ٨٣ ، ٧٦ ، ٧٣ ، ٧١ ،
١٠٦ ، ١٠٥ ، ١٠٤ ، ١٠٣ ، ١٠٢ ، ١٠١ ، ٩٣ ، ٩٢ ، ٩١ ،
١١٦ ، ١١٥ ، ١١٤ ، ١١٣ ، ١١٢ ، ١١١ ، ١١٠ ، ١٠٩ ، ١٠٧ ،
١٣٠ ، ١٢٨ ، ١٢٧ ، ١٢٦ ، ١٢٥ ، ١٢٤ ، ١٢٣ ، ١٢٠ ، ١١٨ ،
١٤٣ ، ١٤٢ ، ١٤١ ، ١٤٠ ، ١٣٩ ، ١٣٧ ، ١٣٤ ، ١٣٣ ، ١٣١ ،
١٤٥ ، ١٤٤

شبه الجزيرة العربية : ٦ ، ٨ ، ٣٣ ، ٤٢ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ،
٥١ ، ٥٣ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧١ ، ٩١ ، ١١٢ ، ١٢٣ ،
١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٦

شمال إفريقيا : ٢٤

شيزر : ٤١

[ص]

صقلية : ٤٤

صنعاء : ٥٠

[ط]

الطائف : ١٢٦

طرسوس : ٤٣

[ع]

العراق : ٣١ ، ٣٣

عسقلان : ١٣٥

العقبة : ٤٧ ، ٩٣ ، ١١٧

عُمان : ٧٣

عَمَّان : ١١٨ ، ١٢٤

[غ]

غزة : ٤٧ ، ٧٦ ، ١٣٠

[ف]

فارس : ٢٣ ، ٣٩ ، ٥٨ ، ٥٩

فرنسا : ٢٠ ، ٢٢

فلسطين : ٣٠ ، ٣٩ ، ١٢٧ ، ١٣٠ ، ١٣٤ ، ١٣٥

[ق]

القرن الذهبي : ١٨

القسطنطينية : ٥ ، ١٧ ، ١٨ ، ٢٥ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥

القليس : ٥٠

قيصرية : ٢٩

[ك]

الكرك : ٩٥

الكعبة : ٢٦ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢

[ل]

لبنان : ٣٩

لمبارديا : ٢٧

[م]

مآب : ٩٣

المدائن : ٣٠ ، ١١٠

المدينة (المنورة) : ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٣١ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ،

٦٥ ، ٦٦ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٢ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٧ ، ٨٨ ،

٨٩ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٣ ، ١٠٩ ،

١١١ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ،

١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ،

١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥

مرج الصَّفَر : ٧٤

مصر : ٣٠ ، ٣٣ ، ٥٥ ، ٧٣ ، ٧٧ ، ١٣٠ ، ١٤٢

معان : ٤١ ، ٩٣ ، ٩٥ ، ١٢٤ ، ١٢٥

مقنا : ٤١ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨

مكة المكرمة : ٧ ، ١٥ ، ٣١ ، ٤٦ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ،
٥٤ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٨ ، ٧١ ، ٨١ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ١٢٦ ، ١٤٠ ،
مؤتة : ٥ ، ٦ ، ٩ ، ١٢ ، ١٤ ، ٣٢ ، ٤٦ ، ٦٣ ، ٧١ ، ٧٤ ، ٧٨ ،
٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ،
٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١٠٧ ، ١١٠ ،
١١١ ، ١١٢ ، ١١٤ ، ١١٩ ، ١٢٤ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ،
١٣٢ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥

الموصل : ٣١

[ن]

نجد : ٤٢

نجران : ٣٩ ، ٤٧

نينوى : ٣١ ، ٣٢ ، ٥٩

[هـ]

الهند : ٣٢

هنغاريا : ٢٧

[و]

وادی القرى : ٨ ، ٤١ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٨٥ ، ٨٧ ، ٩٣ ، ١٣٥

[ی]

يُبْنَى : ١٤ ، ١٢٧ ، ١٣٥

يثرب : ٥٥

اليرموك : ٣٩ ، ٤٦

يَزْدُود : ١٢٧

اليمن : ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٦ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٦ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٣ ،

٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠

يوغوسلافيا : ٢٧

ألبانيا : ٢٧

ثالثاً: فهرس القبائل والأمر والجماعات

[أ]

الآفار : ٢٧

آل ساسان : ٤٥

الأحباش : ٨ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٥١

الأزد : ٣٦

الأنباط : ٦١ ، ٦٩ ، ١٠٩ ، ١١٣ ، ١٢٥ ، ١٤٠

الأنجلوسكسون : ٢٠

الأنصار : ٣٦ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١٢٨ ، ١٣٠

الأوس : ٣٦ ، ٥٥ ، ١٢٦

[ب]

البرجنديون : ٢٠

البلغار : ٢٢

بَلَقَيْن : ٤١ ، ٩٣ ، ١٠٥ ، ١٠٦

بَلَى : ٧ ، ٤١ ، ٩٣ ، ٩٥ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٤٤

بنو أسد : ٤٢ ، ٤٣

بنو بكر : ٧١

بنو جفنة = الغساسنة

بنو عامر بن صعصعة : ١٢٦

بنو عُذرة = عُذرة

بنو غسان = الغساسنة

بنو كنانة : ٦١

بنو مخزوم : ١٣٢

بهراء : ٤١ ، ٩٣

[ت]

تَنُوخ : ٧ ، ٣٥ ، ٤١ ، ١١٩

[ج]

جُذَام : ٧ ، ٤١ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٧٠ ، ٨٧ ، ٩٣ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ،
١٠٦ ، ١٠٩ ، ١٣١ ، ١٣٥

الجرمان ٢٠

جهينة : ٧ ، ٤١

[ح]

حَمِير : ٣٦ ، ٤٣

[خ]

خُزَاعَة : ٥١ ، ٧١

الخزرج : ٣٦ ، ٥٥

[ذ]

ذبيان : ٤١

[س]

السلاف = الصقالبة

سليح : ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٨ ، ٤١

[ص]

الصقالبة : ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٧

[ض]

الضافطة : ٦١ ، ٨٧ ، ١٠٩

الضجاعة : ٧ ، ١٥ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨

[ع]

عاملة : ٤١ ، ١٠٦ ، ١٠٩

عُنْدَرَة : ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٣٥

[غ]

الغساسنة : ٧ ، ٩ ، ١٠ ، ١٥ ، ٣٤ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ،
٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٧٣ ،
٧٥ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨٤ ، ٨٧ ، ١٣٠ ، ١٤١ ، ١٤٢

[ف]

الفرس : ٧ ، ١٧ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ،
٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٨ ، ٥٥ ، ٥٨ ،
٥٩ ، ٧٥ ، ١١٠ ، ١١٨ ، ١٣٩ ،
الفرنجية : ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٧ ، ٣٢ ،
فزارة : ٦٦

[ق]

القحطانيون : ٤٠ ،
قريش : ٨ ، ١٥ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ٧١ ، ٨٣ ،
١٣٢ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ ،
قضاة : ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٨٥ ، ٨٧ ، ٨٨ ،
٩٣ ، ١٠٣ ، ١٠٦ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٤٢ ،
القووط : ١٨ ، ٢٠ ، ٢٢ ،
القين = بلقين

[ك]

كلب : ٧ ، ٤١ ، ٦١ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٧٠ ، ٨٧ ، ١٠٥ ، ١١٦ ،
كندة : ٤٢

[ل]

لخم : ٧ ، ٤١ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٧٠ ، ٨٧ ، ٩٣ ، ١٠٦ ، ١٠٩ ، ٣١ ،
١٣٥ ،
اللخميون : ٤٤ ،
اللمبارد : ٢٧ ، ٢٠

[م]

المدائني : ٦٢

مذحج : ٦٥ ، ٨٧

مُضَر : ٦٥

المهاجرون : ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣٢

[ن]

النبط = الأنباط

[هـ]

هوازن : ١٢٦

الهون : ٢٠

[و]

وائل : ٩٣

الوندال : ٢٠

[ي]

اليعاقبة : ٤٢ ، ٤٣

رابعاً: فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٥
تمهيد : يتناول - باختصار - حالة الامبراطورية البيزنطية وعلاقتها بأهم القوى الخارجية حتى الفتح الإسلامي	١٧
الفصل الأول : علاقة عرب الشام والحجاز بالبيزنطيين قبل ظهور الإسلام	٣٣
أولاً : علاقة عرب الشام بالبيزنطيين	٣٣
(أ) الضجاعة والبيزنطيون	٣٤
(ب) الغساسنة والبيزنطيون	٣٦
ثانياً : علاقة عرب الحجاز بالبيزنطيين	٤٦
الفصل الثاني : الرسول والبيزنطيون منذ البعثة حتى صلح الحديبية ، ٦١٠م - ٦٢٨هـ / ٦٢٨م	٥٧
أولاً : المرحلة المكية	٥٧
ثانياً : بعد الهجرة حتى صلح الحديبية : ١هـ - ٦هـ (٦٢٢ - ٦٢٨م) :	٥٩
١- غزوة دومة الجندل : ٥هـ (٦٢٦م)	٦١
٢- سرية زيد بن حارثة إلى حسمى : ٦هـ (٦٢٧م)	٦٣
٣- سرية زيد بن حارثة إلى وادي القرى : ٦هـ (٦٢٧م)	٦٥
٤- سرية عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل : ٦هـ (٦٢٧م)	٦٦
ملاحظات أساسية حول علاقة المسلمين بالروم قبل الحديبية	٦٩

	الفصل الثالث: الرسول والبيزنطيون من صلح الحديبية حتى سرية
٧١	مؤتة: ٦هـ (٦٢٨م) - ٨هـ (٦٢٩م)
٧١	مقدمة
٧٢	أولاً: كتب الرسول إلى الملوك والأمراء
	ثانياً: علاقة الرسول بالقبائل العربية في الشام ، ودور عرب الشام في
٨٤	إشعال فتيل الصراع بين المسلمين والبيزنطيين
	الفصل الرابع: سرية مؤتة ٨هـ (٦٢٩م):
٨٧	ملابساتها - أهدافها - تطوراتها - نتائجها
٨٧	خلفيات مؤتة وملابساتها
٨٩	أهداف مؤتة
٩٢	جيش المسلمين وجيش العدو في مؤتة وتطورات المعركة
٩٧	مؤتة بين النصر والهزيمة
١٠١	أخطر نتائج مؤتة
١٠٢	في أعقاب مؤتة:
١٠٢	سرية ذات السلاسل
١٠٩	الفصل الخامس: غزوة تبوك بين الفعل ورد الفعل
١٠٩	خلفيات الغزوة وملابساتها
١١١	مناقشة أهداف الغزوة
١١٢	ترقيات الغزوة وتطوراتها
١٢٠	أهم نتائج تبوك

الموضوع

الصفحة

الفصل السادس : تطور العلاقة بين الرسول والبيزنطيين بعد تبوك :

١٢٣	 ٩هـ (٦٣٠م) - ١١هـ (٦٣٢م)
١٢٣	 أولاً : الدعوة الإسلامية بين عرب الشام ، وموقف البيزنطيين
١٢٧	 ثانياً : بعث أسامة بن زيد : صفر ١١ هـ (مايو ٦٣٢م)
١٢٧	 تحقيق تاريخ البعث
١٢٩	 خلفيات البعث وأهدافه
١٣٣	 تطور البعث وأهم نتائجه
١٣٩	 خاتمة
١٤٧	 الخرائط
١٤٨	 خريطة رقم (١) شبه الجزيرة العربية وجنوب الشام فى عصر النبوة
	 خريطة رقم (٢) أهم الأماكن التى توجهت إليها حملات المسلمين على
١٤٩	 طريق الشام فى عصر النبوة
١٥١	 قائمة المصادر والمراجع
١٦٣	 الفهارس :
١٦٥	 أولاً : فهرس الأعلام
١٧٤	 ثانياً : فهرس الأماكن والبلدان
١٨١	 ثالثاً : فهرس القبائل والأمم والجماعات
١٨٥	 رابعاً : فهرس الموضوعات

١٩٩٧ / ٩٠٩٧	رقم الإيداع
977 - 10 - 1042 - 5	الترقيم الدولي I. S. B. N

هذا الكتاب



الدكتور / عبد الرحمن أحمد سالم

- تخرج في كلية دار العلوم جامعة القاهرة عام ١٩٦٧م، وكُلف معيدا بقسم التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية بالكلية في نفس العام .
- حصل على درجة الماجستير في عام ١٩٧٤ في موضوع «التاريخ السياسى للمعتزلة حتى نهاية القرن الثالث الهجرى».

- أوفد في بعثة دراسية إلى إنجلترا عام ١٩٧٦ حيث حصل على الدكتوراه في موضوع «العلاقات الساسية بين الخلافة العباسية والإمبراطورية البيزنطية في العصر العباسى الأول» من مركز الدراسات البيزنطية بكلية الآداب جامعة برمنجهام في عام ١٩٨٣ .
- يقوم بتدريس مادة التاريخ الإسلامى والحضارة بكلية دار العلوم .

بدأ احتكاك المسلمين بالبيزنطيين (أو الروم كما تسميهم مصادرنا العربية) منذ العصر النبوى (أى فى النصف الأول من القرن السابع الميلادى) ، واستمر الصراع بين الجانبين يشتد حيناً ويهدأ حيناً آخر إلى حوالى منتصف القرن الخامس عشر الميلادى حين سقطت القسطنطينية عاصمة إمبراطورية الروم على يد السلطان التركى محمد الفاتح .

ورغم الأهمية القصوى التى يمثلها العصر النبوى - والمدنى منه بصفة خاصة - فى ميدان العلاقات الإسلامية البيزنطية فإن هذا العصر لم يحظ بنصيبه الوافى من الدراسة فى هذا المجال .

وهذا الكتاب يمثل محاولة لتتبع جذور تلك العلاقات ورصد تطوراتها فى تلك الفترة البالغة الأهمية ؛ وهو يتصدى - قدر الجهد - للإجابة عن هذا السؤال المحورى : هل سعى المسلمون إلى إثارة العداء مع دولة الروم واختلقوا الأسباب للدخول فى مواجهة معها أو أنهم كانوا فى علاقتهم بها يقفون موقفاً دفاعياً ؟

ومن أجل الإجابة عن هذا السؤال كان من الضرورى دراسة الدور الذى قام به أحلاف الروم من عرب الشام فى التحرش بالدولة الإسلامية الناشئة وما أدّى إليه ذلك من حدوث عدد من المواجهات المبكرة بينهم وبين المسلمين ، ثم إلى نزول الروم بعد ذلك فى ميدان الصراع المباشر ضد المسلمين ، وهو الصراع الذى كائت مؤتة أخطر مظاهره ، كما كانت غزوة تبوك أبلغ تعبير عن إدراك الرسول ﷺ لخطورته على الكيان الإسلامى الوليد .

ويعرض الكتاب لأهم آراء الباحثين المحدثين حول أبرز القضايا المثارة ويناقشها فى ضوء المصادر المؤتقة وصولاً إلى الرأى الذى يمكن الاطمئنان إليه فى موضوع من أخطر موضوعات التاريخ الإسلامى وهو علاقة المسلمين بالروم فى عصر النبوة .